سلمى الدباغ

غزة تحت الجلد

مكتبة ٥٢٨

ترجمة: خلود عمرو

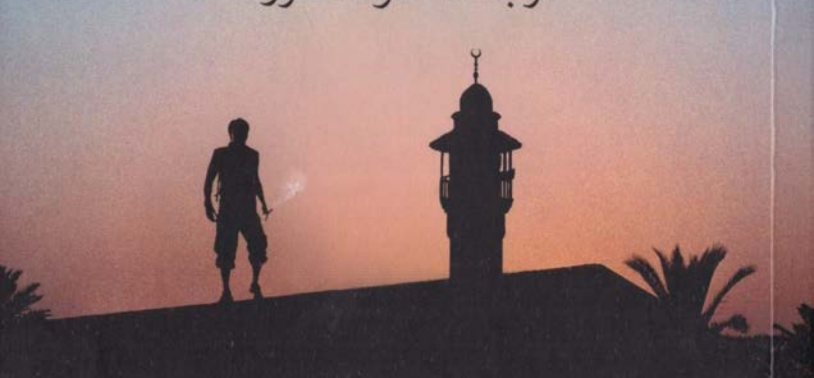

مكتبة | 528
غزة تحت الجلد
t.me/t_pdf

دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation

كلمة بلومزبري وعلامة ديانا هما علامتان مسجلتان باسم شركة بلومزبري للنشر.

صدرت الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٥

OUT OF IT © SELMA DABBAGH, 2012
All rights reserved.

حقوق النشر © سلمى الدباغ، ٢٠١٥
حقوق الترجمة © خلود عمرو، ٢٠١٥

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠١٩ ١١ ١٠

الترقيم الدولي:
الغلاف العادي: ٩٧٨٩٩٩٢١٩٤٦٨٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

FSC
www.fsc.org
MIX
Paper from responsible sources
FSC® C020471

تمت الطباعة في بريطانيا العظمى بمعرفة CPI Group (UK) Ltd, Croydon CR0 4YY
زورونا على موقعنا www.bqfp.com.qa للمزيد من المعلومات حول كُتّابنا ومؤلفاتهم.

غزة تحت الجلد

سلمى الدباغ

ترجمة: خلود عمرو

مكتبة | 528

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

الجزء الأول

سماء غزة

الفصل الأول

كانت أوقاتا عصيبة، لكنّ الرسالة الإلكترونية غيَّرت كلَّ شيء.

ليلة الأمس، بدأت الانفجارات قبيل الثامنة. هذا كلّ ما كان رشيد متيقنا منه. قبل ذلك، لم يكن هناك سوى دويّ لجوج وطلقات مدافع رشاشة، تلعلع في مكان ما. إحساسه بكل شيء تضخم، أصبح أكثر حدّة. سرى في أوصاله خدرٌ لذيذٌ، تكرمت عليه به وريقات غلوريا، نبتة الحشيش، عزيزته التي يرعاها بدلال في غرفته. عندما بدأت الانفجارات، كان الخدر قد جرى في دمائه طويلا، أوصله إلى النشوة. ظلت أعمدة الدخان وحرائق القصف تتراقص في عينيه، حتى بعد تلاشيها بزمن طويل.

عندما اشتدّ القصف فوق الرؤوس، كان هو في عالم آخر. جنون النشوة يعتمل في رأسه، طنين المدافع الرشاشة لا يبارح أذنيه. صرخ بأعلى صوته يا أولاد الكلب، يا للا اقصفوا! ليش ما تقصفوا؟ يا أولاد الحرام! اضربونا ... اقصفونا، يا للا، يا للا! كأنما استجابوا له، سقط صاروخ على الفور، أضاء سماء القطاع حتى السياج الحدودي، تصاعدت سحب الدخان، أطبقت على صفحة الأفق.

فجّروا المستشفى بعد مرور نصف ساعة على سماع دويّ

الانفجارات، أو ربما أكثر بقليل. تفجير مجلجل، كأنه انتزع أحشاءه من جسده. لحظتها انفصل تماما عن الواقع، ما عاد يسيطر على نفسه، فهو عندما يبلغ ذروة النشوة، يتحد الجسدي مع الروحي فيه. في تلك اللحظة، راح يقفز فوق سطح البيت، يهزأ بمروحيات الموت المحلّق من فوقه، يصرخ بكل ما في قاموسه من شتائم: أنتم! يا أولاد القحبة! هل ترونني؟ أجل، على السطح هنا! يا عرصات! يا قوادين؟

تلك هي اللحظة الوحيدة التي يتذكرها. كل ما جرى بعدها، عصيّ على ذاكرته. حالما انقضت، صار كل ما رآه، كلِ ما سمعه، يجلله بياضٌ مُطبقٌ. تنطبع تلك اللحظة بشدة في ذهنه، كلُّ ما سواها، يستغلق عليه، كأنه لم يكن.

أفاق من غيبوبته. جسده ممدد تحت السرير، رجلاه مفتوحتان على اتّساع، لعابٌ لزجٌ، يلصق وجهه بأرضية الغرفة، صداعٌ مرٌّ يعصف برأسه. حلّ أوانها، نوبةُ جَلْدِ الذات الرهيبة، إنّه حثالة، كومة من العار، لا قيمة له، لا فائدة منه.

كانت تلك حاله حين أفاق من غيبته.

أما الآن، وبعد ربع ساعة، فهو شخص آخر. لا يعبأ بالخزي، لا يبالي بالاختباء كطفل تحت السرير، أو بفقدان الوعي، لا يكترث بعار وجهه الملطخ باللعاب. كل ذلك جرى قبل فتح الرسالة الإلكترونية، قبل أنْ تقع عيناه عليها.

الرسالة الإلكترونية غيّرت كل شيء.

حوّلته إلى شخص آخر.

وقف أمام مرآة الحمام، مبلل الوجه، عاري الصدر، باسطا ذراعيه، منتشيا بنفسه كثور الأساطير. نظر في المرآة، أبصر رجلًا

خالدًا في جسدٍ مُفْعَم بالشباب. الشمس لوّحت ساعديه، وجهه ورقبته، لونهما أشدُّ دُكْنةً من بقية جسمه. بدا وكأنه يرتدي قميصًا حنطيًّا فوق جسده العاري. تجاهل ما رسمته الشمسُ من طيفٍ داكنٍ فوق بشرته، غضّ الطرفَ عن ضمورِ عضلاته. أحيانا، ينظر إلى نفسه في المرآة، يهيمن عليه الشعور بأنّ جسده سيضيع سدى، يقشعرّ، ينكمش على نفسه. في هذا الصباح، لم ير سوى عظام كتفيه وصدره، تؤطر جسده. لم يلحظ غير بروز عضلات ساعديه، وانشداد بطنه، لا يحتاج إلى جهد لإبقائه كذلك، خطّ الشعر القاتم، يمتدُّ من سرّته إلى داخل سرواله. درب الفردوس، هذا ما قالته ليزا، اقتفت أثره بأناملها، كررت: درب الفردوس.

تذكّرها، حضرته ضحكتها، أحس بها تزهر في داخله، شعر بأنه يطير، عاليًا، عاليًا، بعيدًا عن كلّ هذا.

رأى نفسه مُحلِّقًا، إيكاروس الأسطوري في السماء، غطاس أوليمبي يقفز في البحر، يسوع على هضبة، تداخلت الصور ببعضها، تمتم في نفسه: حلّق عاليًا، بعيدًا، فوق هذا كله.

لكن، عاليًا وبعيدًا عن ماذا؟

بعيدًا عن هذا المكان الذي سيبدو من الأعلى رِمَّةً عظميّةً، هياكل مرجانية متحجرة، مجوفة، هشة، تكسوها الرمال. هكذا سيبدو وجهه لا محالة، إنه يعرف، تعقّبَ ملامحه بأنامله، فوق صور الأقمار الاصطناعية، بينما كانت تساوره أحلام الفرار منه. على ذلك العلو، يضمحلُّ السياجُ الحدوديُّ الذي يطبق عليهم، أما الحواجز العسكرية فيصعبُ تمييزها على ذلك العلو. لكن ما لا يمكن أنْ يبهت، حتى من أعلى طبقات الجو، فهو التباين الصارخ بين جانبي الحدود.

ذلك الجانب الآخر، حيث المكان الذي جاؤوا منه، الذي كان لهم ذات يوم، ثم أصبحوا ممنوعين من مجرد زيارته. ذلك الجانب ليس رمّة عظميّة، بل بساط متقن، بديع التصميم. تعلوه مربعات متناسقة، دوائر جذابة، صفوف منظمة. كل شكل بلون، كأنها طليت بكبسة زرٍّ على شاشة حاسوب. بنيٌّ طينيٌّ هنا، خضرةٌ داكنةٌ هناك، أما الخطوط الحدودية فبلون الصدأ. ذلك الجانب الآخر، يتلألأ بالضوء، ينعكس عن الخزانات الشمسية، وبرك السباحة.

ليذهبوا إلى الجحيم.

ليذهبوا إلى الجحيم.

كان خارج المكان.

لا يطير، بل يقفز، يتشقلب في الهواء، فوق البحر، فوق المتوسط. صاف شديد الزرقة، الحياة تمور فيه، ها هي الأسماك والدلافين تقفز فيه كما يقفز هو، إلى الأعلى، وبعيدا. خارج هذا المكان، إلى السماء وما بعد هذا المكان.

خارج هذا المكان.

بعيدا عن هذا المكان.

إلى الأبد.

حسنا، لسنة واحدة على الأقل.

انضم إلى مكتبة .. اضغط اللينك

t.me/t_pdf

الفصل الثاني

مكتبة
t.me/t_pdf

في الاجتماع، لم تكن ثمة مناسبةٌ تستدعي ذلك التعليق، لكنه أثار حفيظة إيمان إلى أبعد الحدود. تلك الإشارة الماكرة، مررتها رئيسة الجلسة بشكل عابر: لكنك وصلت غزة للتو! إنك حديثة عهد بما يجري هنا.

على الرغم من أنها لم تسمعها من قبل من جانب المشاركات في الاجتماع، إلاّ أنّ إيمان شعرت أنّ تلك الإشارة اللئيمة ليست وليدة اللحظة. أدركت أنها بالنسبة لهنّ فلسطينية من الشتات، من الخارج، من العائدين، لذلك فهي لا تستحق حتى مجرد إبداء الرأي فيما يجري في غزة.

قالت إحداهن من خلفها: سويسرا، في إشارة إلى حيث كانت إيمان تقيم طيلة سنوات تحصيلها المدرسي. استدارت إيمان بحدة وحدقت فيها بغضب، ولكن المتحدثة واصلت كلامها دونما اكتراث:

- والدها كان مع قيادة الخارج، عادت إلى هنا منذ سنة واحدة. إنها تدرّس الآن في إحدى المدارس.

- وليكن! هل هذا يعني أني لست فلسطينية؟ هل يعني أنه لا

علاقة لي بما يجري هنا؟ ألا يمكن أن أكون قادرة على فعل شيء ما؟

يجب عليها أنْ تسيطر على أعصابها كما لو أنه يراقبها، هذا ما دار بخلدها. ستقول له فيما بعد: هكذا تصرفت، أجل هذا ما ستقوله إن سألَ لاحقا، إنْ رأته ثانية: لقد واجهتهم. ولكن واجهتهم بماذا؟ كنّ يراقبنها، أعينهن مسلَّطة عليها، نظراتهن ليست كلها عدائية، بعضها مشجعة، وأغلبها فضولي. لكن لا يبدو أنّ أيًّا منهن لاحظت الإهانة البالغة التي شعرت بها إيمان.

- ربما لم أعش هنا زمنا طويلا، لكنني هنا الآن ولا نيّة لدي في الرحيل. لا بدّ أنْ يكون من حقّي إبداء الرأي في ما يجري وفي ما يتوجب علينا فعله. حاولت جاهدة أنْ تظل نبرةُ صوتها هادئة، لا تشي بتعال أو عصبية.

- صحيح!

قالت أمُّ نضال التي تحظى باحترام إيمان وشقيقها التوأم رشيد إلى درجة أنهما يشيران إليها بالسيدة العظيمة، ويبدو أنها قررت استغلال نفوذها في تلك اللحظة.

- صحيح! معها حق، يجب أن تقول رأيها.

سألتها رئيسة الجلسة:

- ما رأيك إذًا؟

نظرت إليها شزرا كعادتها، حكّت فروة رأسها بطرف قلمها:

- أعتقد أنه ليس في وسعنا انتظار فرصة سانحة لأنّ هذا لن يحدث.

التقطت إيمان أنفاسها لتحافظ على رباطة جأشها وتابعت:

- نحن بحاجة إلى الاتفاق على خطوات ممكنة التنفيذ، حتى وإن كانت صغيرة، من الأفضل فعل شيء، مهما كان صغيرا....

قالت رئيس الجلسة، مقاطعة،: شكرا.

ثمّ واصلت وهي تومئُ برأسها لإيمان حتى تجلس:

- شكرا لك آنسة إيمان مجاهد.

اجتماع لجنة المرأة ينعقد مرة كل أسبوعين. التأم هذه المرة في طابق أرضي غير مكتمل، في مبنى إحدى الجامعات الجديدة. غرفة الاجتماع بلا نوافذ، جدرانها من الطوب العاري، أرضُها اسمنتية غير مبلطة. شعرت إيمان أنّ المكان أشبه بغرفة في متحف للهولوكوست. بدأ الاجتماع في السابعة مساء، يفترض ألا يستغرق سوى ساعتين، لكن القصف بدأ فجأة في الثامنة. قررت المشاركات ملازمة المكان. تواصل القصف. قمن بتمديد الاجتماع، ثم مدّدنه لمدة أطول.

كن عالقات في ذلك المكان، لكن إيمان قررت أن تتحلى بالإيجابية. صعدت إلى الطابق الثاني، وجدت زوجة حارس البناية، بحوزتها كيسٌ من المفاتيح. بحثن في المكاتب الموصدة، عثرن على بُسُطٍ، أنزلنها إلى أعضاء اللجنة. ثم وجدن شايًا وسكرا، غلين ماءً في قدر، أعددن شايًا للأخريات، وحملته إيمان في كؤوس مرصوصة فوق صينية، ثمّ دارت بها على الجميع. وأخذت تُساعد في تقاسم الهواتف النقالة التي ما زالت تعمل بين النسوة المحتجزات، جاملت بعضهن ومازحت أخريات. بذلت قصارى جهدها في كسر رتابة مشهد التوجّس والانتظار، غير أنها شعرت أنها لا تستحق ذلك التعليق. لقد وصلت هنا للتوّ. ذكّرها التعليق بمن تكون، وبكونها غيرَ مرغوب فيها.

أوشك الفجر على البزوغ. لاحظت إيمان الإعياء الشديد على وجوه أعضاء اللجنة. قليلات منهن شاركن في الاجتماع، أغلبيتهن تتبعن بقلق بالغ أصوات الطائرات، بعضهن وقعن فريسة للنوم. رئيسة اللجنة هي الوحيدة التي ظلت على نشاطها، لا تكل ولا تمل حتى ولو لثانية واحدة.

رفعت إيمان شعرها، لفّته، أسندت به رأسها على الحائط. ماذا كان رائد سيقول عن اللجنة؟ لا حيلة لها في عدم التفكير به. رائد يبدي اهتماما كبيرا بكل ما تقول، يجد فيها ظرفا وحسًّا تهكميًّا لم يلاحظه الآخرون. لديه رأي في كل شيء، وكلُّ رأي من آرائه يبدو، وبصورة سحريّة، متفقا مع رأيها.

حاولت تناسي سخف اللجنة ورعب القصف، لجأت إلى التفكير في رائد من جديد. استحضرت ما سرى في جسدها عندما لامست ذراعه ذراعها. كان ذلك قبل أشهر، في أثناء حفلة في شقة بمخيم الشاطئ. الكنبة صغيرة، لا تتسع لعدد الجالسين عليها، تدافع الآخرون، وجدت نفسها ملتصقة به. بالطبع، سمعت باسمه من قبل. إنه ابن عم تلميذة من تلميذاتها، لكنها المرة الأولى التي تلتقيه فيها. في لحظة من اللحظات، حرك ساقه، ألصقها بساقها. كانت متأكدة أنّ حركته مقصودة، أعقب الحركة بنظرة ذات مغزى، وشت لها بأنَّ الأمرَ ليس بصدفة. تفكّرُ بنظرته، بلمسته، يتغير إيقاع تنفسها حتى بعد مرور أشهر عليها.

كان في وسعها لو تجاوزت الأمور حدودها، أنْ تدفع بنفسها إلى الوراء على الكنبة، أو أنْ تترك لنفسها العنان، تتخيل قبلة لم تحدث، ولو حدثت، لكان من شأنها أنْ توقف عالمها عن الدوران.

ما يعتريها من ضجر يشوشها عاطفيا، يصعب عليها تذكر ملامحه، بدأت تبهت، لكثرة ما استحضرتها في خيالها.

لا بدَّ لها من تناسي أمره.

قبل أسبوعين أصيب ونقل إلى المستشفى، لم تستطع زيارته. كيف تفعل! وبماذا تتذرع! ليس من صلة قرابة أو معرفة تسوّغُ زيارتها له، حتى شقيقاها لا يعرفانه، لم يسمعا باسمه من قبل. حاولت الاطمئنان عليه من تلميذتها، ابنة عمه، لكن ما حصلت عليه منها لا يشفي الغليل. ليس سهلا استدراج صغيرة في السابعة: إنه بخير يا آنسة، هل تحبين رسمتي يا آنسة؟

كيف كان رائد سيعلق على مشاركتها في لجنة كهذه؟ أكان يرضى عنها أم يحسبها مضيعة للوقت؟ صبري، شقيقها الأكبر، يعتقد أنها مهمة. دائما ما تناقش معه توصيات اللجنة وقراراتها. أما شقيقها التوأم، رشيد، فلا تعبأ أبدًا بالحديث إليه عن اللجنة:

- كلا يا رشيد، ما زالت اللجنة تراوح في مكانها دون تقدم، إن خطر ببالك السؤال.

عندما وصلت غزة وانضمت إلى اللجنة كانت، من فرط غبائها، شديدة الحماس. تعود بخطط العمل إلى البيت، تعكف عليها تأملا وتمحيصا، تنشط في الكتابة، قضايا شتى وعناوين مختلفة: قدوة تحتذى أم خطيب أجوف؟ دور النساء في عمليات الاختطاف التي نفذتها الجبهة في السبعينيات، التعاون مع الآخرين، تحديد سياسات اللجنة النسائية نحو حركة المقاومة الإسلامية، سطرت صفحات وصفحات. ولكن في كل اجتماع يعقد، يظل الخلاف سيد الموقف،

تساق الأعذار نفسها، الحجج نفسها، لتسويغ التقاعس والجمود. ما الذي يمكننا فعله في مثل هذه الظروف المستعصية؟

سحقًا للظروف!

لن تتغير الظروف ما لم يبادرن إلى فعل شيء ما.

- فعل ماذا؟

قال لها رائد بصورة تبسيطية وكأنه يشرح قواعد لعبة النرد لطفل صغير، ثم أضاف:

- لا يفلّ الحديد إلا الحديد، ينبغي لنا أنْ نحاربهم بما يحاربوننا به. إنها الطريقة الوحيدة. الحركات الدينية تدرك ذلك، أما نحن فردودنا ناعمة للغاية، ولهذا لا ننجز شيئا. استراتيجيتنا عقيمة.

معه حق! عندما أعدّت الشاي شعرت كما لو أنها أنجزت عملا مهما وأنّ الحركة التي تنتمي إليها ذات معنى. لكن إعداد الشاي في الواقع ليس سوى ردٍّ ناعم على ما يقوم به العدو من قصف!

انتبهت إيمان إلى منار؛ فتاة جدية، متدينة، وجهها دهني، يحيطه حجاب مشدود. تلك الفتاة لا تكفّ عن مراقبتها طيلة الوقت. تخصها بنظرات تشي بالتفهم والتعاطف، لماذا يا ترى؟

- منار؟ هل تودين قول شيء الآن؟ لم لا تقولينه إذًا؟

ثم أردفت رئيسة اللجنة بقراءة ملخص ما عُرض في الاجتماع والنتائج التي خلص إليها. مالت إيمان بجذعها نحو ركبتيها، انسدلت خصلات شعرها فوق ظهرها. أنصتت بغيظ. كل ما تلته رئيسة اللجنة لا يتضمن أيًا من النقاط التي أثارتها، ليس من إشارة، كلمة أو فكرة واحدة من أفكارها.

لملمت رئيسة اللجنة أغراضها، أعلنت انتهاء الاجتماع،

ثم انصرفت. ما أنْ أُغلق الباب، حتى عمّت حالة من الهلع بين المشاركات:

- أين حصل القصف؟ في الشمال؟

- كلا، إلى الشرق من هنا. طبعا في الجنوب، إنهم دائما يقصفون الجنوب. قالوا إنهم سيستخدمون طائرات جديدة وقنابل مختلفة هذه المرة....

في ثوان معدودة، انقلب حالهن، من خنوع وانقياد لرئيسة اللجنة، مثل قطيع من الغنم، إلى توثب ونشاط استعدادا لمغادرة المكان. بعضهن هرع إلى إيقاظ الغافيات، جمعن حقائبهن، جمعت إحداهن أكواب الشاي الفارغة. اقتربت منار من إيمان، ساعدتها في طي ما استخدمنه من بسط. تمتمت إيمان بينها وبين نفسها كأنها تدفع عن نفسها تلك السطوة التي تفرضها منار على كل من حولها:

- فتاة مضطربة.

رغم ما تبديه تلك الفتاة من تواضع مبالغ فيه، إلا أنها قطعا ذات كبرياء مصطنع. لاحظت إيمان أنّ منار ترفعت عن قراءة جدول أعمال الجلسة لدى توزيعه على الحاضرات. لوحت بيدها استخفافا، كأنها تقول إنها لا تعيره اهتماما، لكنها تعجب ممن يجدنه كذلك. أنّى لها كل هذا الاعتداد بالنفس والشعور بالفوقية على الآخرين؟ لا أحد يعرف من تكون هذه المرأة، ورغم أنها مقلّة في الحديث، إلا أنّ جميع أعضاء اللجنة تقريبا تغيرن منذ انتسابها. لم يعدن يمزحن حول عدم الصيام في رمضان، بل باتت كثيرات منهن يقلن بأنهن يصمن. وبدل نقاشاتهن المعتادة حول الحجاب، واختزاله المرأة إلى موضوع للشهوة، أصبحن الآن يصرفن أوقاتهن في حوارات حماسية حول اضطهاد النساء في الغرب.

تفحصت إيمان مظهر منار، لا تحمل حقيبة نسائية، لا أثر لمستحضرات التجميل، ليس ما يدل على اهتمام بمظهرها سوى حاجبين مزججين برداءة. لم يكن من معالم لأنوثتها، بل كانت أشبه بتلميذة مدرسة، تلفّ جسدها بمعطف داكن طويل، تلامس أطرافه الأرض، تحكم إغلاقه حتى العنق.

قالت منار وهي تومئ باتجاه الباب بعدما حملت كل منهما بساطا:

- سأذهب معك.

كان آذان الفجر يعلو في الخارج، يدعو النيام إلى الصلاة، عندما صاح المؤذن: الصلاة خير من النوم.

تمتمت إيمان في سرها:

- والنوم خير من الاجتماعات.

سألت منار إيمان:

- ألن تصلي الفجر؟

أجابت إيمان:

- سأصلي لاحقا، دعيني أساعدك أولا.

وجدتا زوجة الحارس، ناولتاها البسط بصمت، نزلن درجات السلم ولم تنبس أيٌّ منهما بكلمة. فجأة، هبط التشاؤم على إيمان. انتابتها الهواجس. اليوم هو ذلك اليوم! هذا ما جال في خاطرها عندما فتكت بها موجة من الخوف، كأنّها في كابوس مزعج، تسقط في هاوية سحيقة. اليوم هو ذلك اليوم! يوم الشؤم الذي لن تنجو فيه عائلتها من غائلة القصف. سينكلون بأمها وشقيقيها، سينتقمون منها لأنها لا تبالي ببأس القصف وشدته، لا تمنحه سلطة تعطيل حياتها. ليس ما يمنعهم من قصف بيتها، من قتل عائلتها. أفاقت من كابوسها،

انتبهت إلى نفسها، أسنانها تصطك برعب، قبضتاها متشنجتان فوق درابزين السلم.

ابنة الحارس في المدخل تمسح بلاط الممر. صوت انسكاب الماء وارتطام الممسحة بالدلو البلاستيكي، بعث في إيمان شعورا بالارتياح. جالت ببصرها في أنحاء المكان، ساعة حائط مذهّبة، صورة كبيرة للقائد، لوحة إعلانات تعلن نتائج الطلبة. كلّ هذا بثّ في نفسها شعورا بالاطمئنان، ما كانت تلك الفتاة لتواصل مسح الأرض لو أنّ عائلتها أصيبت بمكروه في القصف.

عند عتبة الباب استدارت منار باتجاه إيمان:

- ليس هذا ما عدت من أجله، صحيح؟ لم تعودي إلى هنا لأجل هذا.

ضوء الفجر بدأ ينتشر في الخارج. عبر زجاج الباب، أبصرت إيمان دخان الحرائق التي خلّفها القصف. تبدد الاطمئنان الذي بعثته فيها تلك الفتاة وممسحتها.

تمتمت إيمان بينها وبين نفسها: اللعنة! استحضرت ما قاله رشيد لها ذات مرة:

- أتظنين أن أحدا يعود لأجل هذا؟

أفاقت من شرودها. سألت منار:

- ماذا تقصدين؟

أجابت، وهي تنتقي كلماتها بعناية بالغة:

- أنت تبحثين عن دور وهذه اللجنة لن تعطيك إياه، صحيح؟

- عليّ أن أجد دوري بنفسي.

- بالضبط.

هزت منار رأسها. تابعت قائلة:

- بالضبط، بإمكاني أن أساعدك في هذا الأمر. هناك أناس...

سألتها إيمان:

- من هم هؤلاء الناس؟

لم ترد، أغمضت عينيها بهدوء وكأنهما اختارتا لحظتها أن تصغيا إلى هدير البحر وصوت الممسحة على البلاط.

- منار، دعينا نتحدث في وقت آخر، أريد العودة إلى البيت للاطمئنان على عائلتي. لقد سمعت رئيسة الجلسة وقراراتها التي لم تشملني بشيء.

- أنت قادرة على فعل ما هو أفضل من اللجنة وقراراتها، هناك أشخاص طلبوا مني الحديث إليك.

- من يرغب في الحديث إلي؟

سيطر الانفعال على إيمان، حاولت التركيز فيما تقوله منار. لا تريد نسيان ولو كلمة واحدة، ستكرره حرفيًا لصبري حتى يشرح لها ما يعنيه بالضبط.

- لا تقلقي يا إيمان، أصغيت إلى كلّ ما قلته في الاجتماع. أنت محقة تماما بشأن ضرورة إحداث تغيير في الأوضاع.

قالت ما قالته بنبرة تشي بالجدية وكأنها تطوق عنق إيمان بميدالية.

- أصبت بعودتك إلى فلسطين، وبالفعل لديك دور هنا.

- وما هذا الدور يا ترى؟

تأرجحت حقيبة إيمان في كتفها، علا صوت ارتطام مفاتيحها بولّاعة وأساور كانت إحدى تلميذاتها قد أهدتها لها.

- من تقصدين عندما تقولين نحن؟ لا أعرف من تقصدين بـ نحن.

- أعني جماعة، ولكن جماعة جدية في عملها. إننا لا نعقد اجتماعات، ليس على شاكلة الذي انتهينا منه على أي حال. الأمر لا يتطلب سوى الاتصال بك، وهذا بدوره يعتمد فقط على مدى استعدادك.

- استعدادي؟

- استعدادك للمساهمة في تغيير الظروف، على إحداث فرق في الأوضاع.

وضعت منار يدها الجميلة التي لا تزينها خواتم على كتف إيمان وأضافت:

- إنهم يعتقدون أنك قادرة على ذلك، أنت الوحيدة من بين أعضاء اللجنة التي طُلِب مني الحديث إليها. إيمان مجاهد، لقد وقع اختيارهم عليك.

- وقع اختيارهم علي؟ من هم الذين اختاروني؟

شعرت إيمان بارتعاش في يديها، يشبه ما كان يعتريها قبيل نتائج امتحاناتها المدرسية. تعالت من خلفها طرطشة الماء فوق أرضية المدخل.

- أجل، اختاروك أنت، وأنا هنا أقوم بمهمة تبليغك بذلك. عليك أنْ تفكري بحذر فيما تقولينه أو تفعلينه، فبعد الاتصال بك ليس في وسعك تغيير رأيك. إنّ جماعتنا كما وصفتها لك جدية في عملها، ليس من خيار لدينا، كيف أشرح لك ذلك؟ ليس من خيار لدينا سوى أنْ نكون صارمين. أجل، لا بد لنا من أنْ نكون صارمين جدا. نظرت إلى إيمان بتحد وأردفت:

- «صارمين مع كلّ من يغير رأيه. لهذا إنْ قررت فعل أمر يحدث تغييرا في الأوضاع،» وأشارت في اتجاه غرفة الاجتماع، «فعوضًا عن مضيعة الوقت في الكلام فقط، فإنّ كل ما تحتاجينه هو إبلاغهم بأنك جاهزة.»

اخترقت طائرة نفاثة حاجز الصوت، مادت الأرض من تحت أقدامهما، اهتز كل ما في المكان. دويها المرعب يسخر منهما، يهزأ بعالمهما الذي يقوم على أساسات من ورق. بوووم! تصدّعت أذنا إيمان، تعالت صيحات من آخر الممر، لعلها زوجة الحارس، تطلب الرحمة من الله. فتحت الطائرة جحيمها من جديد، بوووم! انهار لوح زجاجي من مكان ما، تشظي على الأرض.

رمتها منار بنظرات كأنها تقول: أرأيت؟ ألم أقل لك؟

- سؤالنا لك هو: هل أنت جاهزة أم لا؟

ابتسامتها تشير إلى أنّ الحديث شارف على نهايته.

- إننا نعرف أنك جاهزة، واصلت منار كلامها وكأنّ إيمان أجابت عن سؤالها.

أومأت برأسها قبل أن تخرج:

- أردنا أنْ نتأكد فحسب.

تركت إيمان متجمدة على عتبة الباب، لا تسمع غير هدير البحر، لا تشعر إلا بأثر يد منار على كتفها.

الفصل الثالث

الرسالة الإلكترونية في يده، كأنها ورقة إطلاق سراحه من السجن. أطرق لدى وصوله إلى الباب، لم يفكر كيف سيخبر عائلته، من سيفاتح منهم أولا بالأمر. هذا الصباح ليس مناسبا لذلك على الإطلاق.

التفت إلى الوراء، جال ببصره في غرفته، أصبح الآن متأكدا، سيرحل عنها.

نسيم الصباح يعبث بالستائر، تتمايل أكواز الذرة البُنيّة المرسومة عليها. عبر الفرجة، بين شقيها، أبصر رشيد عمودي دخان كثيفين، يتلويان صعودا ويلتحمان بجبل عظيم من السحاب الأسود. المستشفى يلفظ دخانا مهولا، السماء غارقة في بحر من سواد الحرائق.

مشى إلى النافذة، يريد تفحّص المشهد. أيعقل أنّ المستشفى أصبح مائلا أكثر مما كان عليه في البارحة؟ مال برأسه يمينًا، هل يعاني من مشكلة في بصره؟! ثلاث سيارات، تجللها أغطية قماشية، تربض أسفل المبنى. مرت به أيام كان لا بدّ له فيها من تفحّص كل شيء: الأشجار والبحر من ورائها، منظرها يبدو عاديًّا، السيارات

عادية أيضا، الخيام وجيرانه في داخلها، عاديون كما هو حالهم دائما. المنظر الغريب الذي استغرق وقتا في ملاحظته لم يكن الدخان أو المبنى أو البحر أو الشجرات أو السيارات، جميعها كانت في مكانها المعتاد. آه! إنهما هذان الرجلان. هذان الرجلان إلى جانب المبنى لم يكونا عاديين أبدا، كانا يحملان السلاح.

- أفّ! انصرفا من هنا، انقلعا من هذا المكان! ما فيه يكفيه هذا الصباح.

لكنّ الرجلين لم ينصرفا، لم يفارقا المكان، أحدهما سمين والآخر نحيف. مشيا حول أعمدة مرآب السيارات، أسند السمين جسده إلى مقدمة إحدى السيارات. التفت أحدهما يمينا فالتفت الآخر يسارا، ثم رفعا بصرهما معا باتجاه رشيد.

جفل رشيد وقفز إلى الوراء، سحب الستارة، أغلقها بإحكام. غاب عن ناظريه: الدخان، المستشفى، البحر، الرجلان وسلاحهما.

يفضل في بعض الأوقات منظر أكواز الذرة على ما تخفيه الستارة خلفها.

الرسالة الإلكترونية! ما تزال في يده، نعم! حلّق مرّة أخرى إلى أعلى، بعيدا عن كلّ هذا، خارج كل هذا، إلى لندن، إلى ليزا! لن يسمح لأي شيء باختطاف فرحته بالخبر السعيد. كلا، لن يسمح لأي شيء، لأي كان.

الفصل الرابع

وجدت إيمان نفسها في عالم مختلف عندما خرجت من مقر الاجتماع. البحر ما يزال من أمامها، الجامعة من خلفها، والمدينة تمتد إلى يسارها. كشك بيع كرات الحلوى ورقائق البطاطا البرتقالية المحاذي للشاطئ ما يزال في مكانه. حتى قائمة أسعار بضائعه ما تزال فوق جداره. لم يبرح شيء محلّه منذ ليلة أمس، لكنّ الهواء مثقل بروائح البارود، دخان كثيف يتصاعد من تحت الدمار. كأنّ الأفق مثقوب، ينفث أعمدة ماردة، تتثنى، تتلوى، تعلو، تتداخل، تصبح جدرانا سوداء وتطبق عليهم. كان عصيًّا عليها أنْ تتخيل نفسها في هذا المشهد، كلُّ ما فيه مشؤوم، استثنائي وخرافي. تمتمت إيمان في سرها: إنه العقاب الإلهي! خطرت منار في بالها، أصيبت بالذعر: منار هي نذير هذا العقاب الإلهي، والآن انتهى كلُّ شيء، صوتها، وجهها، العتمة، الدخان، ثم النهاية، إنها النهاية.

لم تتخيل أبدا أنها ستكون في مبنى جامعي، مشمشي اللون، عندما تشهد بداية النهاية. منار، وجه بلا جسد، يغلفه قماش داكن، رخيص الثمن: دورٌ لك، نحن لدينا دور لك.

كان رأسها نهبا للوساوس، ترى صورا وتسمع أصواتا. لم

يغمض لها جفن طيلة الليلة الفائتة، وقعت من فرط التعب فريسةً للأوهام.

لكن مهلا، دوي القصف كان بعيدا عن بيتها، لاحظت ذلك من النظرة الأولى. الدخان البغيض يتصاعد بعيدا عن بيتها، لا بد أنّ عائلتها إذًا بخير. أحست بأنها تتنفس من جديد، لكنها مع ذلك تتنفس بحذر، كأنَّ التنفس يحتاج إلى تفكير.

هناك تحت الدخان، رغم كل هذا، كان الهواء طريا ويكاد يكون عطريا. غيم منفوش الريش يتمدد فوق البحر، خطوط بيضاء فوق صفحة السماء، خلفتها طائرات القصف، بدأت بالاضمحلال. كان ما حولها هادئا، ساكنا، الشوارع بلا مارة، كأنها مهجورة.

لم تكن النهاية إذًا، عائلتها بخير. لقد ضخّمت الأمور على نحو دراميّ.

مشت في اتجاه بيتها، مرت ببنايات استبدلت صخبها المعهود بسكون عجيب. العمال أصحاب رخص العمل في الجانب الآخر، عبروا الممرات المُحاطة بالأسلاك الشائكة وبوابات الماشية. أما البقية، من عاطلين عن العمل، ومن هم دونهم، فلا يزالون نياما. الشوارع فارغة، كأنها جديدة، غريبة. إنها لها وحدها هذا الصباح. كتابات تنتشر على الجدران، متاجر موصدة، صور قتلى تكسو جذوع الأشجار.

ليس من أحد في الجوار. ستائر الدخان تلفّ المكان، تحوّله إلى عالم مُقنّع متّشح بالسواد، لم تشهد مثله من قبل في حياتها.

جلست إيمان فوق حائط ملعب، بعيدا عن إعلانات ووعود بإعادة التعمير. قطة شقراء، مشت بخيلاء، تمطت، انبطحت أرضا،

أدركت أنّ إيمان ليست في وارد التسلية، أدارت ظهرها وقفزت عن الجدار، زمّت عينيها بضيق من وهج الشمس.

هذه أرضها، هذه حياتها، حياة أبيها وأمها وأشقائها. إنها أرضهم، بلادهم، مكانهم تحت الشمس. هذا ما عادت لأجله، وهي وحدها من سيجد لنفسه فيه دورا. عندما قررت العودة والعيش مع عائلتها في غزة، كان ثمة تغيير، أمل، اتفاقيات سلام. تلك الاتفاقيات رغم ما فيها من عيوب، جعلت ما بدا دوما مستحيلا أمرا ممكنا. عادت بشجاعة، بشيء من الانتصار، لكنها اكتشفت أنّ ما من أحد يود منحها دورا. الدور الوحيد الذي يسمح لها به، بل يفرض عليها فرضا وبلا هوادة، هو أنْ تصبح زوجة وأما فحسب.

الجماعات الدينية تثير فيها القشعريرة. متعالية، فوقية تلك المنار: لدينا دور لك. من هم هؤلاء؟ أي جماعة هي تلك؟ اختاروها هي؟ لتنفيذ ماذا بالضبط؟

كان المكان خاليا من الناس، لن يراها أحد، تشجعت على التدخين في العلن. أخرجت من حقيبتها علبة سجائر، سحبت معها كتيبا عن مركز للمقعدين زارته منذ أشهر. حيطانه مغطاة بصور أطفال باسمين، ضمادات تغطي أجسادهم الصغيرة، يرفعون أطرافهم المبتورة أمام عدسة الكاميرا، أفواههم الصغيرة تعجّ بالأنابيب. يتضمن الكتيب إحصائيات بأرقام ثنائية وثلاثية ورباعية عن أعداد من بترت أطرافهم، وإعلانات خاصة عن الأطراف الصناعية: تحرير ٢٠٠٠: تشكيلة الأطراف السفلى، تمكين الأيدي والأذرع.

قالت السكرتيرة لإيمان لدى زيارتها المركز:

– مصيبة! مديري بلا مخ! مركز للمقعدين في الدور الثالث من بناية ليس فيها مصعد!

أغرقت إيمان بسيل من المهام المكتبية.

- في مقدورك مساعدتنا، فقد تعلمت في الخارج. اكتبي لنا مقترحا حتى نتحرك إلى الإمام. إنني أقضي نهاري صعودا وهبوطا على درجات السلم، فمدخل البناية ينسدّ دائما لكثرة كراسي المقعدين، والجيران في تذمر دائم.

رمقت إيمان الكتيّب، تمتمت في سرها: هذا ما سأقوم به. ستتصل بالجهات المانحة، إنّه عمل صغير، ولكنه بداية لشيء ما. ستنسى منار وجماعتها.

لم تنتبه لعيارات الولاعة، كانت على مستواها الأعلى، أشعلتها قرب فمها. انتشرت رائحة أطراف شعرها المحترق في الهواء، خلفت رائحة كريهة في منخاريها.

أدركت بعد أنْ باتت تعلم الآن أنّ عائلتها بخير حَجْمَ ما تملّكها من قلق على أفراد تلك العائلة. الآن وقد زال القلق، شعرت بالسكينة، بسيجارتها، بنسيم الصباح، بأنّ العالم من حولها لم ينفجر بالكامل، وبأنّ الدمار جزئي فحسب. الابتهاج الذي شعرت به، انبثق من رحم اليأس، طار بها فوق الغمام.

ثمة من يراقبها، أحسّت بذلك وهي تجلس هناك. نظرت إلى البنايات من حولها، النوافذ موصدة والشوارع ما تزال بلا مارة. نهضت ورمت سيجارتها، راحت تمشي وكأنها تقصد وجهة ما، تتظاهر بأنها لم تكن جالسة تدخن فوق سور ملعب في أعقاب قصف مجنون. بلاط الرصيف محطم، تغطيه الأوحال، قفزت فوق صدوع تحيط بجذور شجرة. أحسّت من جديد، ثمة من يراقبها، قلبها هبط في صدرها، نظرت أمامها.

إنه شقيقها رشيد... كلا، ليس هو. يشبه رشيد في طوله ونحافته وملامحه الجانبية، ولكنه يختلف عنه في وقفته ونظرة عينيه وملابسه.

يرتدي سترة خضراء، جيوبها كبيرة، يسند كتفيه إلى حائط خلفه، كما لو أنه في نيويورك أو باريس وقد خرج لتدخين سيجارة في زقاق خلفي هناك. بدا لإيمان نافرا في المشهد، كل ما هو قريب من الأرض هنا، مسودّ ونازف. لونُ سترته الأخضر ذكّرها بعالم آخر، عالمٍ يُسمح فيه للشجر بمعانقة ضوء الشمس، وتَطلُعُ فيه صباحات المتوسط بسلام.

اقتربت منه، فاعتدل في وقفته. رمقها بشيء من الألفة، تعجبت، فهي متأكدة أنها لم تره من قبل. أجل، إنه مثل رشيد، طويل، نحيف، عظام وجنتيه، فيهما نتوء، مثل أبناء الشمال الإفريقي. إنه أيضا يحمل بندقية.

خطا إلى الوراء، أفسح لها طريق المرور فوق الرصيف الناشف، ارتطم كعب بندقيته بباب حديدي. تعالى صوت الارتطام المزعج. مرت على مقربة شديدة منه، لو أنها تنفست ولو نفسا واحدا، لتمكنت من شم رائحته. تجاوزته، ظل في مكانه، لم يصدر عنه ما يشي بنية تعقبها، لكنها عندما التفتت إلى الوراء، رأته يتتبعها بالنظر.

* * *

تسكن عائلة إيمان في الدور العلوي لبناية من طابقين. كانت ذات يوم تصطف مع ثماني بنايات تطابقها شكلا في شارع كان يمكن، وبشيء من الخيال، أنْ يوصف بأنه مشجر.

أما الآن، فإن بناية آل مجاهد، بطراز بنائها الحديث، تقف وحيدة وسط أرض خراب تتوزع فوقها الخيام. تبدو لإيمان وكأنها تتوسط مقبرة أفيال، تكتظ بكتل الباطون المحطم وقضبان الفولاذ المقوس.

وسط حطام البيوت المهدمة؛ أغطية أسرة ممزقة، وبقايا ألعاب أطفال مكسرة.

ذات ليلة قبل أشهر، جاء الجيش ودمّر حيّهم، هدّم أساساته واقتلعه من جذوره. راح الجنود يلهون فوق الخراب، طاردوا المتشردين الجدد بجرافاتهم الصفراء. أما أشجار الحي فظلت تحترق لأيام.

خيم جيرانها بلا أرضيات، هياكل هرمية مشدودة إلى أوتاد خشبية. تضيق على من فيها، فتطل أقدامهم وأطراف أغطيتهم من تحت حواشيها. في ذلك الصباح، بدت بنايتهم وحيدة بلا أنيس وسط الخيام، كأنها تحتج على تركها وسط الخراب، تقول: اهدموني كسائر رفيقاتي، دعوني أرقد إلى جانبهم. فوق جدرانها عريشة من الياسمين، أمام بابها شجرة زيتون وحيدة هي الأخرى، كأنها ورقة توت تستر عورة البناية. حتى البنايات، من الظلم أنْ تُستثنى، أن تترك وحيدة وسط الخراب!

تحاول إيمان ألا تبدو في عجلة من أمرها وهي تقطع الباحة التي تفضي إلى بيتها. تجهد في إخفاء رغبتها الدفينة في نصب ممر وبوابة حديدية يفصلانها عن فوضى الجوار. يتوجب عليها احترام مشاعر من أُرغموا على العيش في العراء. تبذل قصارى جهدها لكي تتكلم مع جيرانها، تسألهم عن أطفالهم، تعصر ذهنها في الاهتداء إلى ما يسرهم الحديث عنه. لم يكن في وسعها أن تعرض عليهم المساعدة، فهي لا تدري إن فعلت إلام سيؤول الأمر. لكنهم رغم كل ذلك لا يكفون عن مراقبتها. تتخيل تعليقاتهم على طريقة لبسها، اختلافها، عذريتها، صلاحيتها للزواج أو انعدام فرصها في الفوز بعريس مناسب.

بعد رحلة العذاب هذه تصل إلى بنايتها، تتمكن حينها من نسيانهم. نسيان الكيلومترات التي يقطعونها مشيًا على الأقدام لجلب الماء، فحِصَّةُ عائلتها من الماء شحيحة، لا يمكن تقاسمها مع الآخرين. تنسى مساوماتهم للحصول على الإسمنت ومواد البناء، أعصابهم التي يفقدون السيطرة عليها بسبب الملل، أطفالهم الجوعى. توصد البوابة من خلفها، تمشي فوق الممر المبلط عبر الحديقة الضيقة، تمر بمدخل شقة أبي عمر. تصعد السلم إلى منزلها، تفوح منه روائح الياسمين والهيل، مبيض الغسيل ودخان السجائر.

يبدو أنّ أحدهم تمكن اليوم من عبور البوابة. عجوزٌ تتكوّم فوق العتبة، وجهها مُغضّن، وذقنها عليه وشمٌ أزرق. أزاحت العشب والنبات من فوق البلاط الذي ما يزال يحتفظ بألوانه، إصبعها يقتفي أثر الرسوم فوق البلاط النابلسي. فخر وحنين يشعان من عينيها.

وقفت عندما وصلت إيمان، لكن وقوفها كان أشبه بجلوسها، ظلت كومة محدودبة. جيب صدر ثوبها الفلاحي منتفخ، يكتظ بما فيه من حاجيات. كأن ثدييها استطالا وامتدا إلى ما تحت حزامها.

قالت لها العجوز بنبرة لا تعلن فيها عن مجرّد وقوع فعل بل عن تحقيق إنجاز:

- لقد رجعت!

واصلت كلامها:

- أنا عمة رائد وتلميذتك تغريد، يجب أن تأتي معي على الفور.

ردّت:

- كنت في انتظارك.

الفصل الخامس

استبدت برشيد رغبة جامحة لدفع كرسي أخيه صبري والدوران به مرات ومرات. لكنه عندما أمسك بمقبضي الكرسي وهمّ بدفعه شعر بمقاومة كوابحه. علا صوت المذياع: جرى التعرّف على هوية الانتحارية التي تنتمي إلى عائلة الحجار... أبصر فنجان القهوة في يد أخيه، أدرك أنّ ما فيه سيندلق إنْ فعل ما همّ بفعله. سمع صوت صبري يعلو على صوت المذياع:

- توقف! توقف! ما الذي تحاول فعله؟ يا للسخافة!

شعر بقبضتي أخيه تدفعانه بعيدا عن الكرسي.

- هل قالوا عائلة الحجار؟

مسح صبري بقعة القهوة عن مكتبه بمنديل ورقي، تتبع ما تناثر منها على حضنه.

- عائلة الحجار، أليس كذلك؟

- أجل، أعتقد أنهم قالوا ذلك. متأسف، لكن يا صبري...

- لماذا وقع اختيارهم على فتاة من عائلة الحجار؟ لقد قالوا الحجار، أليس كذلك؟

- أجل، أجل. يا صبري...

- ما الأمر؟ حصلت على المنحة إذًا، صحيح؟

رمى صبري المناديل الورقية التي تنزّ منها القهوة على أرض الغرفة.

- أجل، منحة شاملة لرسوم الدراسة وتكاليف السكن...

- والبروفسور مايرز، هل تقاعد أم لا؟

- شبه متقاعد، لكنه يرغب في الإشراف على أطروحتي. سأسكن شمال لندن.

- ما زال على نشاطه إذًا، لا بد أنه تجاوز السبعين. يجب أنْ أعطيك بعض أبحاثه لتطلع عليها.

بدأ صبري بسحب كتب من مكتبته. لم يكتف بالكتب، سحب مجلدات ضخمة يربو عدد صفحات أحدها على الألف. وضعها على المكتب وبدأ بترتيبها وفقا لتاريخ نشرها.

وقف رشيد إلى جانب نافذة غرفة صبري، تطلّ على المدينة بشكل أفضل من نافذته. الدخان ما زال ينبعث بقوة من المستشفى، أشد كثافة من دخان الحرائق الأخرى. في الأسفل، أمه تحاضر من جديد في جارهم أبي عمر، تفعل ذلك داخل حديقة الجار المسكين. تشتهي الحصول على تلك الحديقة، وصل بها الأمر حد مطالبة صاحبها بالتنازل عنها. ليس هذا فحسب، بل طالبته بشقته أيضا. عرضت على الجار تبادل الشقق قبل خمس عشرة سنة بعد أنْ فقد صبري رجليه، حاولت إقناعه حينها. قالت له:

- ليتمكن الصبي من الخروج بمفرده، وحتى لا نضطر إلى حمله على الكرسي والنزول به على درجات السلم.

أصبحت الآن في مزاج سيء، بدأت برفس تراب الحديقة، تناثر فوق أقدامهما. إنه يعرف ما ستقوله أمه سلفا، سمعه مرات ومرات:

- إنك لا تفعل شيئا بأرض حديقتك، تتركها بورا. أما أنا فسأزرعها بطاطا وزعتر وبندورة...

أبو عمر لا يرد على أم رشيد ولو بكلمة. يقف ويده خلف رقبته، أصابعه تتبع ما حفره الدهر فوقها. رشيد حثه في سره: هيا يا رجل! تصدَّ لها، ردَّ عليها! لكن أبا عمر يواصل تحسس تجاعيد رقبته، كأنه يضغط على أزرار لاسلكي، يرسل برقية عاجلة، تطالب بتدخل خارجي. تشاغل بإزاحة التراب عن البلاط بطرف صندله، رآه يقول شيئا. لكن رشيد يعلم أنّ كل ما سيتفوّه به كلام عقيم بلا معنى. سيدور بينهما حديث على شاكلة:

- أنت تعرفين أني أعدُّ هذا الصبي مثل ولد من أولادي، لكن كيف أتنازل عن شقة والدي؟

ترد عليه:

- أريدك أن تفعل ذلك حتى يتمكن من الخروج على كرسيه بمفرده. لكي يجلس هنا في الحديقة ويحتسي قهوة الصباح تحت أشعة الشمس. يا للعار! ألا يستحق هذا الصبي استنشاق بعض الهواء المنعش...

ردد رشيد في نفسه: صبري يشارف على بلوغ الأربعين، إنه ليس بصبي!

تكمل أمه حديثها إلى أبي عمر:

- هل نتركه يتعفّن في الداخل وهو يعكف على الكتابة؟

رفع أبو عمر رأسه، دبّ الحماس في رشيد:

- هيّا يا رجل! ردّ عليها هذه المرّة، أفحمها، أين رجولتك؟

لكن حفيد الرجل ركض في اتجاهه، احتضنه، تشاغل الجد

بمداعبة شعر الصغير. أقصى ما بدر من أبي عمر قبل أنْ ينسلّ إلى شقته، ابتسامة بلهاء، كأنه يعتذر عن لعاب سال من فمه لا إراديا.

ظلت أم رشيد واقفة في حديقة جارهم، تضع يديها فوق خاصرتيها. انحنت وجسّت التراب بأصابعها. كأنها تتحسس قماش فستان نفيس، تدري سلفا أنها لا تملك ثمنه.

رفع رشيد رأسه، نظر إلى الدخان الهائل، ينبعث من مولّدات المستشفى المحترق. أسود وكثيف، كأنه يتصاعد من بئر نفط محترق.

قال صبري:

- اشترى سيارة جديدة.

شعر شقيقه بدأ بالتساقط، ربما لم يكن هذا قد بدأ للتو، لكن رشيد لم ينتبه له إلا في تلك اللحظة. لو حاول وصف شقيقه لقال: إنّ شعره كثيف، له سوالف طويلة، يشبه صور المغنين على أغلفة أسطوانات الإخوة مو تاون. لكن صبري كان هكذا في شبابه، أما من يجلس أمامه الآن فيشبه نائب مدير. ترتكز فوق قصبة أنفه عدسات نظارة بلا إطار، يختارها بنفسه على هذا النحو، رقعة الصلع فوق رأسه الكبير، تتسع يوما بعد يوم. نائب المدير هذا يقول كلاما مبطَّنا حول سيّارة.

كرر صبري القول.

- لقد اشترى سيارة جديدة.

أبو عمر

- من الذي اشترى سيارة جديدة؟

- أعرف، إنها حمراء. رأيته ينظفها ليلة أمس.

- ألا تجد الأمر غريبا؟ الرجل بلا عمل ويشكو الفقر منذ

عشرين سنة. كل الشوارع المحيطة ببيته أزاحتها الجرافات، ورغم ذلك فإنه يشتري سيارة! أليس هذا غريبا؟

- كلا، ليس غريبا!

هزّ رشيد كتفيه، تمتم في سره: أرح نفسك من كل هذا العناء! ألن تقلع عن التجسس على الجيران! حرّر عقلك من سطوة استحواذ التفاصيل الصغيرة عليه. لا تتحول في أواسط العمر إلى شخص حقود بغيض. لا تصبح كذلك سواء كنت صحيح الجسم أو مقعدا بلا رجلين. لكن لم أشغل نفسي بكل هذا؟ لم أكترث به على أي حال؟ لندن! ليزا! لندن! ليزا! ليزا! ليزا!

انتبه، فوجد صبري يطيل النظر اليه. أيًّا كان مغزى نظراته، فإن رشيد لا يفهم مغزاها.

قال صبري.

- نيل درجة الماجستير سيؤهلك للحصول على وظيفة للتدريس عندما تعود. بهذا ستتمكن من نقل ما تعلمته إلى الآخرين.

- وعندها سأقوم بواجبي الوطني؟

حكّ رشيد رقبته. انسدل كمُّ قميصه إلى الوراء وكشف عن إبطه. تعكرت سحنة صبري وهو ينظر إلى شعر إبط رشيد، ربما كان كثيفا جدا.

فتح صبري كتابا، نظر إلى رشيد من حافة نظارتيه قائلا:

- عندها ستقوم بواجبك الوطني.

- إنْ كنت تعتقد أنّ هذا أمر مضحك فإنني لا أرى سببا يدعوك إلى قبول هذه المنحة. هناك طلبة مجدون يتمنون فعل المستحيل لأجل الحصول...

- آه! ما الذي دهاك؟ كنت فقط...ما بك صبري؟ كنت...إنني سعيد لأن الأمور سارت على ما يرام، هذا كلّ ما في الأمر! هل هناك مشكلة في أنْ أشعر بالسعادة؟

دفع صبري كومة الكتب إلى الجانب الخلفي من مكتبه. مدّ ذراعيه وراح يطقطق بأصابعه.

- ما الأسباب التي دفعتهم برأيك لاختيار فتاة من عائلة الحجّار لتنفيذ هذه العملية الانتحاريّة؟ إنهم يعرفون أن عائلة الحجّار تدين بالولاء للسلطة، لقادتنا الأفذاذ ممن صنعوا الأعاجيب. لماذا تعتقد أنّ الفصائل الإسلامية أقدمت على هذا الفعل؟

سؤال صبري ملغوم. توقف رشيد عن ذرع الغرفة ذهابا وإيابا. أدرك أنه لا يعرف الجواب. واصل قطع الغرفة جيئة وذهابا.

- حسنا، الفتيات لا يفتشن بدقة مثل الشباب. ربما تصوّر من كلفوها بالعملية أنّ هذا الأمر مفيد. كما أنها إنْ لم تكن محجبة ولا ينمّ مظهرها على تديّن مثل معظم الانتحاريين...

أسند رشيد ذقنه إلى يده، كأنه على وشك قول فكرة مفحمة. حاول إخفاء ما في حديثه من سخافة بتلك الحركة الاستعراضية، التي غالبا ما تصدر عن المثقفين. لم ينطل الأمر على صبري.

- سأقول لك رأيي لأنّ كلامك غير دقيق ولا صلة له بالموضوع: إنّ أجهزتهم الأمنية لا تستثني أحدا من التفتيش. سواء أكان رجلا، أو امرأة، أو بنتا، أو ولدا، أو دمية طفل، أو صبية محجبة أو ترتدي البكيني. إنهم يفتشون الجميع. أعتقد أنّ الفصائل الإسلامية تحاول استعراض مدى ما بلغته قوتها، إنها توجه لنا جميعا رسالة، فحواها يقول: انظروا إننا قادرون حتى على تجنيد فتيات من العوائل الأشد

ولاء لكم لتنفيذ ما نريد. إنها رسالة للداخل وليس للعدو الخارجي. يجب أنْ تتعلم تحديد الفرق بين الأمرين. أشار صبري إلى النافذة وتابع: ما شهدناه ليلة البارحة من قصف كان ردًّا مباشرا على الذريعة التي قدمتها بنت الحجار إلى العدو وبأداء مسرحي سخيف، كما أنه ثمرة تحرك سياسي خبيث يحرض على الفرقة والانشقاق من جانب الفصائل الإسلاميّة.

- لا أعتقد أن عائلتها ستنظر إلى الأمر على هذا النحو.

- ماذا؟ عائلتها؟ لا يهمني ما تفكر به عائلتها! لكن ثمة أمر إيجابي يمكن استشفافه من كل هذا. إن هذه التكتيكات الجديدة من جانب الفصائل الإسلاميّة لا تدلّ إلا على اليأس.

نظر صبري إلى رشيد كأنّ لا أمل لديه في أن شقيقه ينصت بتركيز لما يقوله.

- حسنا، خذ.

دفع الكتب باتجاه رشيد، وقال:

- حريٌّ بك البدء في قراءتها، ليس لديك سوى بضعة أسابيع قبل السفر.

خرج رشيد من غرفة صبري. شعر بعدم الارتياح وهو يحمل كتب أخيه. أفكاره كانت غاضبة، ذهنه عجز عن التقاطها والتعبير عنها. فجأة بدا باب غرفة أخيه شريرا وبشعا. ما زال الرجلان، السمين والنحيف، بسلاحهما، يراقبان بنايتهم. كان يريد استشارة صبري في أمرهما، أنْ يبلّغه بوجودهما فربما لم يلاحظهما. لكنه الآن لا يكترث بذلك، فليذهبا إلى الجحيم.

ترك شيئا من الضوء يتسلل إلى غرفته من أجل غلوريا، قصقص

وريقاتها الميتة بمقص الأظافر. تربتها رطبة، وريقاتها خضراء، كل ما فيها آسر، مغوٍ، معطاء. إنها هبة إلهية. غلوريا أعظم نبتة حشيش في غزة.

أجال النظر في غرفته، شريط عالق في فتحة جهاز الفيديو. حرر الشريط بمقص الأظافر، ثم رماهما في الدرج الذي يحتفظ فيه بأفلام الرعب. في الليالي التي تشبه ليلة الأمس، تهتز الأرض، تتصدع السماء، يتسمم الهواء بالمواد الكيماوية، ينزل عن السطح، يلجأ إلى عدته من أفلام الرعب. يقفل باب غرفته، يجلس في العتمة، ويتسمر أمام الشاشة. تطلّ عليه أرواح شريرة، مصاصو دماء، وكائنات خرافيّة. يتابع صرخاتهم برعب يمتزج بالحبور، غلوريا هي الوحيدة التي تمنحه القدرة على ذلك. تبث سحرها في دمائه، فيتركهم يمشون في غرفته. يسيطرون عليه وعلى وجوده، فيتبدد كل ما في الكون.

وحينها يتمكن من إطفائهم.

الآن لندن! قرأ من جديد رسالة القبول الإلكترونية، طبعها على ورقة، تتبع بإصبعه كل سطر فيها، ضمها إلى صدره.

كانت هناك أيضا رسالتان من ليزا، لم يقرأهما بعد. رسالة القبول وأنباؤها السارة شغلته عن أي شيء آخر. الرسالة الأولى موجهة له ولخليل. لا بد أنها خاصة بالعمل والمركز.

العزيزان رشيد وخليل،

أرجو أن تكونا بخير، فالأوضاع مقلقة في الوقت الراهن. أعتذر لكما عن عدم الكتابة لمدة من الوقت، لكننا نعمل حتى ساعات متأخرة. نحاول شقَّ طريقنا بصعوبة ولا نكاد نجد وقتا لمتابعة

الأخبار ومعرفة تفاصيل كل ما يجري في المكان الذي نواصل العمل لأجله ليل نهار. على أية حال، سامحاني لأنني أكرر على مسامعكما ما قلته مرارا من قبل. أكتب لكما هذه المرة حتى أخبركما بأننا تمكنا، وأخيرا، من إقناع الأطراف المختلفة بتنظيم لقاء مع أعضاء اللجنة البرلمانيّة. حسنا، أدري! أنا بطلة، أخجلتما تواضعي. بعيدا عن المزاح، بذلنا مجهودا كبيرا في الضغط على الشخصيات المعنية وآمل ألا يضيع تعبنا سدى. اتفقنا معهم على ضرورة أنْ تكون محاور الاجتماع وفق الموضوعات التالية:

أولا: تأثير الحصار.

مكتبة
t.me/t_pdf

ثانيا: تأثير القصف.

ثالثا: سياسة الاغتيالات.

رابعا: الوضع الميداني بصورة عامة.

سيعقد الاجتماع الخميس المقبل في السادسة مساء في مبنى ويستمنستر! في مقرّ البرلمان! قلت لهم إنه لا يمكنكما أنْ تصلا إلى هنا بحلول موعد الاجتماع، أصيبوا بشيء من خيبة الأمل، فأنتما من قلب الحدث وشهادتكما لها طعم مختلف. لكن لا تقلقا، ما زالوا راغبين بعقد الاجتماع والاستماع إلى ما نريد قوله. هل تستطيعان جمع بعض الإحصائيات والمعلومات قبل ذلك الموعد؟ من الأفضل أنْ تزودونا بأرقام ومعدلات ونسب، مثل معدلات ارتفاع سوء التغذية وإحصائيات انتشار البطالة وهكذا.

هل فاتتنا بعض عمليات الاغتيال؟ يراودوني شعور بأنَّ التقارير الإخبارية هنا لا تركز إلا على اغتيال الشخصيات المهمة. بلّغاني بأي عملية اغتيال لأي شخصية كانت.

على أي حال، أرسلا لنا كل ما يتوفر لكما.

سلامي الحار،

ليزا.

لقد أنجزت ما وعدت به، خليل لن يظهر سعادته بالأمر، لكنه دون شك سيكون مسرورا بينه وبين نفسه.

رسالة ليزا الثانية موجهة له، قرأها رشيد بتأن.

رشيد،

كانت مكالمتنا الأخيرة سيئة، أدري. أعرف أنّ الأمور لا تسير على ما يرام بالنسبة لك. لكن عليك أنْ تفكر ببدائل أخرى غير الخروج من هناك. إنّ ما تقوم به في المركز مع خليل مهم للغاية، إنه عمل مشرّف. أعرف أنك لا تحب العمل التطوعي...

إنه، كما شرح لها في مناسبات عدة، لا يحب الاعتماد على ما يجود به والده عليه من مصروف وهو في السابعة والعشرين من العمر.

لكننا نعتمد وبشكل أساسي على ما يزودنا به المركز من بيانات ومعلومات. أعلم أنك في حالة من السأم وتنظر إلى الوضع بتهكم، لكن عملك في المركز من شأنه أنْ يحدث فرقا في الأوضاع. إنها حرب.

حاول أنْ يشرح لها عبر الهاتف أنّ الوضع ليس بحرب. بل هو مثل مباراة ملاكمة داخل قفص، يتمتع الخصم بمؤهلات التفوق، يسدد لهم ضربات فنية قاتلة، أما هم فلا حول لهم ولا قوة. يخسرون التأهل لكثرة ما يبصقونه من دماء. يستمتع الجمهور باللعبة المسلية ويهتف طالبًا المزيد. لكن ليزا سئمت من هذا التشبيه.

إنه أمر ليس في وسعك الهروب منه، فهو جزء منك، جزء من عائلتك. يجب ألا تنسى ذلك.

أريدك أنْ تعرف بأني دائمة التفكير بك، ويعتريني القلق عليك. آمل أنْ تحصل على المنحة الدراسيّة إنْ كان هذا ما تريده حقا. بالطبع أحبّ أنْ تكون هنا، لكني أحترم جدا ما تقوم به هناك. وأعتقد أنك ستكون أكثر سعادة لو نظرت إلى الأمور على نحو مختلف.

مشتاقة لك

محبتي وقبلاتي

ليزا

مشتاقة لك، محبتي وقبلاتي، ظلت الكلمات تطن في رأسه.

على أيّ حال، لقد حصل على المنحة ولا يهمه أي شيء آخر، سيطير قريبا إلى هناك.

مشتاقة لك، محبتي وقبلاتي، ما زالت تتردد في مسامعه.

لندن!

ليزا!

سرير إيمان على حاله، لا يبدو أنها نامت فيه. ليست في المطبخ كذلك، أمه هي التي كانت هناك. لا يشعر بأنه جاهز لاطلاع أمه على أخباره الجديدة. لكن، على الأقل، أخته ليست هناك لتحاول تنظيف الصحون أو ما شابه. تصاب إيمان، بعد ليلة مثل ليلة الأمس، بتشوش وخلل في حركتها المعتادة. تفيض رغوة منظف الصحون من سطح المجلى، تسيل على الأرض، تتناثر شظايا ما كسّرته من آنية، تصطدم بكراسي لم تحرّك من مواضعها المألوفة.

أم صبري تقف بثبات في المطبخ قرب حلّة كبيرة، تقلي لحما وبصلا. ترتدي ذلك الثوب الفلاحي الذي خصصته للعمل داخل المنزل. لكنها خارج البيت تبدو امرأة مختلفة، فهي ترتدي جوارب لحميّة، تنانير ضيقة تصل حتى ركبتيها، قمصانًا بأكمام قصيرة، وكنزات صوفية صغيرة. حين تواجه العالم الخارجيّ، تصفف شعرها بمجفف الشعر الكهربائي على نحو جميل. أنفها، بخلاف أفراد عائلتها، دقيق منمنم. حاجباها، تحفّهما دوما بالخيط، ينعقدان قوسين أسودين فوق جبينها. تبدو الآن بالمنديل فوق رأسها وبثوبها الفضفاض أكبر سنا من عمرها، ولكنها أكثر انتعاشا وحيوية. لبشرتها صفاء شمعي غير طبيعي، لو جرى فوقها مبضع الجراح فربما لا تسيل منها دماء.

تركت أمه مهمة الطبخ لصبري. كان يقضي ساعات طويلة في فرم البقدونس لصنع التبولة، لفّ ورق العنب، أو تجربة خلطات مختلفة من البهارات لطبخ «السلطان إبراهيم» ملك السمك في غزة. أما هي فتكتفي بإعداد المخللات.

- لم كل هذا؟ هل تعدين العدة لمواجهة حصار؟

كان سطح المجلي مكتظا بمرطبانات زجاجية ضخمة، تمتلئ بالبيض والباذنجان والكوسا والزيتون. منظرها يثير الاشمئزاز في نفس رشيد. كأنها أجنة تطفو في سوائل طبيّة، قطع بشريّة في مواد حافظة، أطراف آدمية تسبح في محاليل ملونة. لم تنظر إليه، قالت:

- إننا في حالة حصار، أليس كذلك؟

راح يطقطق على أغطية المرطبانات بملعقة خشبية، صوت في رأسه يردد: مخللات، لندن، مخللات. اعترته حالة تشبه تلك التي انتابته ليلة أمس، عندما تقافز تحت المروحيات على السطح.

مزيج من الخوف والإثارة، إنها النشوة التي تطلقها غلوريا في دمائه. تجمدت يده في مكانها، رأى صورته في المرآة الصغيرة، إطارها زهري اللون، معلقة على الحائط المقابل. أدرك أنّ الحشيش فعل فعله، بياض عينيه لا يكاد يرى، يحتقن احمرارا وتغطيه كتل من الشعيرات الدمويّة. التقط نظارة شمسيّة من فوق فرن الـ مايكروويف، ثبتها فوق أذنيه.

تعالى صوت المذياع: ... وبحسب مصادر عسكرية، فإنّ الهجوم الجويّ ليلة أمس كان ردا مباشرا على التفجير الانتحاري الذي وقع في متنزه عصر الأمس، وأعلن حزب العدالة الإسلامي مسؤوليته عنه... لكن تلك المحطة الإخباريّة المحليّة لم تشأ الإفصاح عن اسم منفذة العملية.

سألته أمه:

- هل سمعت؟ إنها من عائلة الحجّار؟ يا لها من فتاة غبيّة! قدمت لهؤلاء الأوغاد ذريعة لقصف المستشفى.

- راقَبْتُهم وهم يقصفونه.

تحرك مبتعدا عن طريقها إلى المجلى.

ثبت النظارة الشمسية فوق رأسه، سطحاها مغطيان بالخدوش وبصمات الأصابع وزيوت القلي. شمرت والدته عن ساعدها، حركت اللحم والبصل في القدر، تصاعد هسيس البخار من قطعة لحم تشبه المخّ.

- صباح اليوم قطعوا الكهرباء لأكثر من خمس ساعات. فتحت الثلاجة، وجدت كل ما فيها قد ذاب عنه الثلج. اللحم المجمد كان منقوعا بالدمّ، سال منه على سطح الرفّ. لا بد لي من طهي

كل ما خزنته من لحم، سأضعه في الثلاجة مطبوخا. آمل ألا يقطعوا الكهرباء من جديد. لم أنته بعد، عليّ أنْ أطهو خمسة عشر كيلو من اللحم على الأقل.

فوق مشمع بلاستيكي مفروش على الأرض، اصطفت مكعبات من لحم البقر، قطع من كتف الخاروف.

استدارت نحوه، كأنها تذكرت شيئا ما، ثبّت رشيد النظارة فوق عينيه. بدت مرتبكة من وجوده في المطبخ، كأنه ليس من المفترض أنْ يكون هناك. بإمكان أمه أنْ تتصرف على هذا النحو، أنْ تنتقي ما تريد رؤيته، وأن تتجاهل ملاحظة ما لا تريد. تختار، مثلا، ألا ترى أنّ صبري مقعد على كرسيّ، وأنها تضطر في كل ليلة إلى دهن التقرحات على ردفيه بالمراهم الطبية، تفريغ كيس بوله عدة مرات في اليوم، حمله من السرير وإرجاعه إليه. إنها تتحدث عن صبري كما لو أنه ما زال ممشوق القامة، مفتول العضلات، مقاتلا لا يشق له غبار. ذات مرة، سمعها تقول بنبرة متحدية: إن صبري قادر على إنجاب الأطفال.

وماذا عن رحيل والدهم وتركه لهم؟ بالنسبة لها هذا أمر لم يحدث أيضا.

كان يودّ سؤالها عن سرّ انفصالهما، يرغمها على الجلوس هنا في المطبخ ويستنطقها. لماذا تركها والده فجأة ودون مقدمات، بسرعة غير مفهومة، وعجلة غير مبررة؟ ما إنْ وصل الخليج حتى استأنف علاقته الوديّة معهم! يحافظ على التزاماته المالية تجاههم! لماذا انهار الزواج وحلت في مكانه أواصر تقوم على كياسة ولباقة لا يشوبها حقد أو شتيمة؟

لن يستنطقها اليوم، ربما في يوم آخر. يكفيها ما يشغلها الآن من تدبر أمر اللحم.

ربما كان الوقت غير مناسب أيضا لاطلاعها على أخباره. كيف يفعل ذلك بعد القصف وقطع الكهرباء وكل ما حولها من مصائب؟ تركزت عيناه على الجرائد التي تجمعها، ترسم خطوطا تحت ما يثير اهتمامها من عناوين، تتكدس في كومة كبيرة، فوق طابور من قناني الماء المصفوفة على أرض المطبخ. يبدو أنها أنجزت مهمتها مع جريدة اليوم، دوائر بحبر أزرق، حول أخبار عن تصدير أسلحة بريطانية إلى السعودية، أحداث شغب في القاهرة بسبب أزمة الخبز، وموت زعيم ماركسيّ في كولومبيا. في الليلة الأخيرة من كل شهر، تذيل كل مقال أو تقرير بتاريخ نشره، تقصّه وتضعه في مغلف بني كبير. تقول له دائما:

- بإمكاني أنْ أجلب لك أي مقال تريد وقتما تريد، إنني أصنفها بحسب موضوعاتها.

حاول رشيد أن يشرح لها فكرة الشبكة العنكبوتية، استعرض لها مبادئ عمل محركات البحث الأساسية. لكن تركيزه كان منصبا على غلوريا، كانت آنذاك خلف شاشة حاسوبه.

فسألته أمه:

- وعندما يقطعون الكهرباء عنا ماذا تصنع؟

هذا كل ما اكترثت بالسؤال عنه.

تناهى إليه صوتها من تحت المجلى، تقول شيئا عن أبيه. لم يفهم تماما، صوتها اختلط بجلبة ما تحركه من زجاجات مواد التنظيف والمرطبانات الزجاجية في الخزانة السفلى.

سأل رشيد:

- ماذا تقولين؟ صحته؟

- صحته؟ هه! من يدري؟ عندما اتصل آخر مرة قال ربما عليك أنت وإيمان ترك البلد والسفر إلى مكان آخر. اقترح أن نقوم بزيارته.

- حقا؟

قالت ورأسها داخل خزانة المجلي:

- ربما سيغير رأيه في الغد. آه، ها هي!

سكنت أصوات قرقعة الزجاج، جثت على ركبتيها، أخرجت رأسها من الخزانة وهي تلهث.

- حصلت على المنحة الدراسية يا ماما.

ردّ فعلها لم يكن واضحا، أدخلت رأسها داخل الخزانة من جديد. كأنها قالت:

- كان ثملا على الأرجح.

- ماذا تقولين؟

- أبوك، على الأرجح كان ثملا، فالرجال عندما يتقدمون في العمر يسكرون، ينتابهم الندم على ما فعلوه في حياتهم وبعائلاتهم.

ناولت رشيد مرطبانا زجاجيا، نهضت مستعينة بحافة المجلي، تحمل في يدها خرقة صفراء. راق له المشهد، والده ثمل، عواطفه جياشة، يتصل في وقت متأخر من الليل. لعله أساء فهم الرجل في الماضي.

كرر على مسمعيها:

- حصلت على المنحة الدراسية يا ماما.

أيقن أنها سمعته في المرة الأولى، لكنها قالت وهي تنظر في عينيه:

- صبري ساعدك في إعداد الطلب، أليس كذلك؟

- لقد راجعه معي فقط.

- عليك ألا تغش أحدا قط.

- لم أغش أحدا، لقد أسدى لي شيئا من النصح.

- إذا بدأت بالغش واللف والدوران فإنك ستورط نفسك في فوضى لا أول لها ولا آخر.

أردفت تقول:

- ويا لها من فوضى!

- لم أغش في حياتي أبدا! صبري راجع الطلب فحسب. أثار بعض النقاط التي ناقشناها معًا.

راحت تحملق فيه بلا حراك. قبة ثوبها الفلاحيّ مهترئة، التطريزات على صدره مفككة. إنّه ثوب أمها الوحيد الذي كان في حوزتها، الأثر الأخير المتبقي منها، لكنها ترتديه وكأنه مجرد أسمال بالية. لا بدّ أنها تبصر نفسها في زرقة عدستي نظارته، وجهها منتفخ بحجم رأس من الباذنجان، أنفها متضخم، أسنانها ناتئة، فمها عريض.

- غبية بنت الحجّار تلك! يا للأذى الذي تسببت به! انقلبت على ولاءات عائلتها وساهمت في تأجيج الخلافات الفصائليّة التي ستزج بنا في عاصفة من المشاكل. ستعمي بصيرتنا عن إدراك ما سيحدث. متنزه! تفجير متنزه! ما الهدف المنشود من عملية كهذه؟ يا للتعاطف الذي سيحظى به العدو من وراء ذلك! علينا بالأهداف

العسكريّة فقط، يجب أنْ نقتصر على الأهداف العسكريّة. لم تقتل في عمليتها السخيفة هذه سوى نفسها.

بصقت والدته شيئا بشعا في المجلى وتمتمت:

- يا لها من غبية!

- إنها ميتة يا ماما.

راقبها وهي تعدّ صينية إفطار صبري، صفّت فوقها صحني زعتر وزيت، ألقمت إبريق الشاي نعنعا طازجا وسكرا، حركته بالملعقة.

- حمقاء! إنها تستحق الموت. هل رأيت ما فعلوه ليلة الأمس ردا على ما فعلته؟ الكلاب! قصفوا المستشفى.

نظرت إليه، فجفلت، رأته بلا نظارات.

- يجب أنْ آخذ طعام الإفطار إلى أخيك.

ربتت على كتف رشيد، انحنت، حملت الصينية، وخرجت من المطبخ.

الفصل السادس

بدا صبري كمشعوذ يتقن لعبة استحضار أطراف جسده التي لم تعد هناك ويتركها فريسة لنوبات وهمية من الحكّ. فكاحله الأيمن يتعرض دوما لهجمات البعوض، يُخمّن أن قرصاتها هناك منذ يومين. لكن جلد كاحله تشقق وتقشر وفي طريقه إلى الشفاء! لا بدّ أنها هناك منذ أسبوع أو أكثر إذًا! كان يشكو أيضا من حكة خلف ركبته اليسرى، تسيل من هناك حباتُ عرق وهمية، تتجمع في انثناء جلدي فوق رجله. أما الإصبع الكبير لقدمه تلك فيسبب له ألما وضيقا لا يتوقف، بسبب انغراز الظفر في اللحم.

لكن طيفها هو ما حضره في ذلك الصباح، لأنفاسها همس سحري في أذنه. مدّ يده وخدر النوم ما زال في عينيه ليطوق خصرها ويشدّها إلى صدره كما كان يفعل. اصطدمت قبضته بالحائط. لم تكن هناك.

طيلة الليل يعكف على رصد الهجوم وتسجيل تفاصيله. يحتفظ بدفتر، منظار مكبر، قلمين مبريين، فوق رفٍّ قرب النافذة، يوثّق كلّ ما يجري كشاهد عيان. يرصد توقيت الضربات الجوية، يستعين بساعة رقمية، ضبطها حسب إيقاع بيغ بن، تطنّ في غرفته عبر موجات هيئة

الإذاعة البريطانية. حصيلة الليلة الفائتة ثلاث صفحات، أما التي قبلها فورقة واحدة ليس إلا.

توثيق الدمار.

رصد زمني متسلسل للفوضى وجحيمها.

كلّ صاروخ، كلّ قذيفة مدفع، كل طلقة رشاش آليّ.

هذا ما يفعله، ما يحبّ أنْ يعتقد بأنه يجيد فعله.

جدران غرفته تعجّ برفوف الكتب، ترتفع إلى أعلى مما يستطيع الوصول إليه. كل رفّ يستند على ما تحته من كتب، أكثرها يصطف أفقيا، بعضها مائل. منظرها يبعث الهدوء في نفسه، كلما عبر إلى غرفته، كأنها تتجاذب أطراف الحديث، مثل شلة شُيّاب مسترخين فوق المقاعد، ينفثون دخان أراجيلهم في الهواء.

صورة زوجته، لانا، وابنهما ناجي، ليست في إطار يليق. تستند إلى بعض الكتب، حوافّها مثنية، مشققة. منظرها لا يوحي بأنها شيء نفيس، كأنها التقطت البارحة، وكثير مثلها سيلتقط في الغد. تسقط من مكانها، فتختلط بكومة الأوراق والوصفات الطبية فوق سطح مكتبه.

على مكتبه أيضا صورة لزعيمهم السابق، ممهورة بتوقيعه الخاص. قدمها له، وبحفاوة بالغة، وفد زاره في المستشفى بعد أنْ فقد ساقيه. لها غرض مهم، يرميها على الأرض من وقت لآخر، يذرعها جيئة وذهابا بعجلات كرسيّه المتحرك. وجه قائد المقاومة العظيم، أصبح جراء هذه المعاملة الخاصة، أشبه بوجه من فتح رسالة ملغّمة.

إنه مرهق، تلك هي المشكلة. ظل مستيقظا حتى انتهى سقوط

القنابل قبيل الفجر، ما إنْ غفا حتى داهمه ذلك الحلم، أو أيا ما كان، لم يستطع المكوث في السرير. يحتاج إلى قسط من النوم، هذا كل ما في الأمر. التعب في عينيه، مغناطيس يجذب جفنيه، ينطبقان على عينيه. ليل مرهق عصيب، وصباح شديد السطوع.

في مقدوره أنْ يشم رائحتها في هذا الصباح، إنه متأكد من ذلك. لم يكن هذا يجري معه دائما، حدث مرة من قبل. كان يقرأ في كتاب، رفع رأسه، التقط رائحتها، في اللحظة نفسها دخل رشيد، تلاشت واختفت. حاول من قبل أنْ يحتفظ برائحتها الفريدة تلك، مزيج من عطر فرنسي، قهوة عربية، سجائر، وعرق بدنها. بعد رحيلها، اشتمّها في جيب قميص لها، ارتدته في أول أمسية لهما معا في مقهى بالقدس. لفّه في كيس بلاستيكي سده بإحكام، حاصر رائحتها حتى لا تتبدد، خبأه في خزانته.

لقد أجهز على البحث الذي يعدّه، إنه متأكد من ذلك.

اعتاد على الكتابة بخطّ اليد، يرتّب النقاط التي تتطلب مزيدا من البحث، في قائمتين منفصلتين. واحدة للبحث في كتب، الأخرى للبحث على الإنترنت. أما البطاقات الكرتونية، فهي لكلّ ما يتطلب مراجعة أرشيفية، وخصوصا مكتب السجلات العامة بلندن. كتب نصّ البحث بخط يده قبل طباعته. يعكف الآن على تنقيحه. لم يكن يملك طابعة. ذهبت إيمان ببحثه الذي حفظته في شريحة إلكترونية بحجم الإصبع إلى مقهى للإنترنت، طبعته بالكامل.

مخطوطة بحثه، كم يطرب لوقع هذه الكلمة! لما عادت بها إيمان، كانت تعبق بروائح سجائر ومبيدات حشرية. تتربع الآن فوق سطح مكتبه، ترفرف من بين صفحاتها وريقات صفراء، مطرزة

بملاحظات خاصة. لا يبدي أي اهتمام خاص بها أمام أي أحد، لكنه في كل ليلة يحمل رزمة أوراقها، يطرق حوافها السفلى على سطح المكتب، يدفع حواف الأوراق النافرة لتصبح كتلة واحدة متطابقة الأطراف. يستمتع بصوت الطرقة التي تحدثها فوق خشب المكتب، بمنظر الخطوط الفاتحة والغامقة لصفحات المخطوطة عندما ينظر إليها من الجنب.

بعد أن ذهب مع أمه إلى الحمام لتغيير كيس بوله، جاءت إلى غرفته. جلست إلى الطرف المقابل من مكتبه، احتست شايًا ودخنت سيجارة. لم يتحدثا عن العملية الانتحارية، أو منحة رشيد، أو حتى سيارة أبي عمر. لم يكترثا بالصمت الذي طال بينهما حتى أوشك على التثاؤب.

سأل صبري:

- أين إيمان؟

- في اجتماع للجنة.

- حتى الآن؟

- قصفوا المستشفى وليس الجامعة.

نهضت من مكانها، التقطت منديلا ورقيا قرب السلة، مسحت سطح المذياع بكم ثوبها. أزاح صبري أوراقه جانبا، ووضع أوراقا فارغة، جهزها للكتابة. انفتح باب غرفة رشيد، تسللت إلى أسماعهما بعض الموسيقى، صوت تلك المغنية السوداء انساب حولهما حريريًّا دافئًا. انفتح باب الحمام على مصراعيه وتعالت حشرجات سخان الماء. برى صبري قلمه، صفّت أمّه كوبي الشاي فوق الصينية. انفتح باب الحمام ثم انصفق مرة أخرى، قلّده باب غرفة رشيد. أطفأ رشيد

الموسيقى قبل أنْ يخرج من غرفته، ترك خطواته في الممر وانصفاق باب البيت من خلفه يعلنان عن مغادرته للشقة. أصبحا الآن بمفردهما في البيت، آن أوان استئناف ما كانا قد وصلا إليه في السابق.

بدأت أمه حديثها بالإشارة إلى قائدها القديم الذي كان غاضبا جدا مما كانوا يقولونه.

- الدكتور.

- كان هذا في سنة ١٩٧١؟

- في حزيران، سنة ١٩٧٢.

عادت إلى كرسيها على الطرف المقابل من المكتب، جلست، شدت المنديل عن رأسها، طوته بشكل أنيق. لم يكن في نية صبري هذا الصباح أن يعكف على الفصل الخاص بأمه، يريد مواصلة الفصل المتعلّق بالانتفاضة الأولى. لكن ليس في وسعه أنْ يركن إلى أنها ستكون في المزاج الصحيح وفقا لما يحب ويشتهي. تحدثت لأكثر من ساعة وختمت حديثها بالقول: كلاب رأسماليون!

أدرك أنها انتهت مما تريد قوله. مررت ظفرها بين سنّيها الأماميين، رفعت يدها، رمت بخصلة من شعرها إلى الوراء.

دفع بكرسيه إلى الخلف، دلّك انتفاخا فوق إصبعه الوسطى، يبرز كلما قضى فترات طويلة في الكتابة. كان يعلم أنّ الحديث عن الماضي يفعل فعله في أمه فترق وتلين.

قال لها:

- سيذهب رشيد إلى لندن.

- أدري.

تريث، استجمع قوته، استقام في جلسته قبل أن يطلب ما يريد.

- أريده أن يذهب إلى مكتب السجلات العامة هناك.

رفعت يدها قليلا في إشارة لم يلتقطها.

- ستنشر الوثائق في مطلع العام الجديد، ستزيد من أهمية الكتاب لو كانت ملحقة به.

هزت كتفيها قليلا:

- أنت تعرفين أنني لو كنت على صلة بأي شخص آخر يمكنه الذهاب إلى هناك ما كنت لأطلب من رشيد. لكني لا أعرف أحدا في لندن.

كان يأمل ألا يلح عليها في الطلب، نهضت ونظرت عبر النافذة:

- اشترى سيارة.

- نعم، أدري.

تمهل قبل فتح الموضوع من جديد.

- من المحتمل أن تنشر في الصحافة، أود أن تكون في كتابي.

كان هذا أقصى حد من التوسل يمكنه اللجوء إليه.

- نعم.

لم تش نبرتها بالاقتناع، كانت تضغط بإبهامها على أصابع كفها الأخرى، كأنها تحاول فتح سدادة قنينة. لم يكن لديه ما يضيفه، لكنه متأكد مما رآه في ملامحها، كأنها ستتقيأ. قالت:

- ماشي.

ماشي ... إنه رد يمكنه أن يلمس فيه الإذن بفعل ما يريد. في عينيها جزع غير معهود، قرر ألا يكرر الطلب، يكفيه ما في ردها من التباس محمود. أصبحت منحة رشيد بالغة الأهمية الآن: بالعكس، تمتم في نفسه، حصوله عليها أمر رائع، توقيتها ممتاز.

نحّى القسم المتعلق بأمه، رتب المواد الخاصة بالانتفاضة الأولى من حوله. كان هذا تأريخا لانتفاضة عاشها بنفسه. بالنسبة له هي التاريخ بذاته. صلته العميقة بموضوع بحثه تثير فيه شيئًا من الاضطراب، فهو يعرف كثيرا من اللاعبين الأساسيين الذين يحاول الآن الكتابة عنهم. بعضهم كانوا أبطالا بالنسبة له، أما البعض الآخر فلا ينظر إليهم بغير الازدراء والاحتقار. فيما يخص شروط الموضوعية الأكاديمية، كانت مشكلة نظرته إليهم في الماضي أسهل عليه من المشكلة الأخرى، كيف أصبح ينظر إليهم الآن في ضوء ما أصبحوا عليه.

لانا في كلّ مكان، تحوم حوله هذا الصباح وتأبى أنْ تتركه وشأنه. أوقاتهما معا تداهمه في ومضات عشوائية للذاكرة، كأنها مقاطع من فيلم يؤدي فيه دور البطولة دون أنْ يدري. وقع بصره على أحد بيانات القيادة الموحدة للانتفاضة الأولى، انضغط مفتاح التشغيل في ذاكرته. راح يتابع مقطعا من ذلك الفيلم. كان من لقطة أو اثنتين في رام الله ليلا، بداية الانتفاضة الأولى أوائل عام ١٩٨٨. في ذلك الحين، وكما وصف في كتابه، بدأت معركة الإرادة لمواجهة المحتلين. كانوا يريدون تثبيت العصيان المدني بإبقاء المتاجر مغلقة، أما العدو فيحاول فتحها بأي وسيلة كانت. كانا، هو ولانا، ينحنيان فوق أقفال أبواب المتاجر، لانا تشتغل على قفل المتجر المجاور له. صندوق العدة بحوزته، كلما علا صوت ارتطام الأدوات بعضها ببعض، سرت قشعريرة في أوصالهما. سمعها تغمغم:

- عليهم اللعنة! خلعوا حتى حلقة القفل من الأرض. كلاب! سأحتاج إلى حفّار كهربائي لإصلاحها. ألقى نظرة خاطفة نحوها تحت نور الشارع وتمتم في نفسه:

- لا، ليست جميلة جدا.

هذا كل ما تضمنه ذاك المقطع الصغير الذي جادت به ذاكرته من حجرة المونتاج في دماغه. تمنى لو يتمكن من الضغط على مفتاح التسريع ليرى تتمة المقطع، حاول تنشيط ذاكرته بطرح الأسئلة المنطقية، تساءل ما إذا كانا تمكنا من إصلاح الأقفال، ما إذا كانت قالت أو فعلت شيئا آخر، ما إذا كانا ذهبا إلى متاجر أخرى في تلك الليلة. حاول أيضا الضغط على مفتاح التأخير ليرى ما يسبق المقطع من أحداث، تساءل كيف وصلا إلى حيثما كانا، هل مرت من أمامه أم كانت هناك لدى وصوله؟ لكن ذاكرته اللئيمة لم تسعفه بشيء. خلعوا حتى حلقة القفل من الأرض. كلاب! سأحتاج إلى حفّار كهربائيّ لإصلاحها. ترددت كلماتها في نفسه مرات ومرات، سأحتاج إلى حفّار كهربائيّ لإصلاحها.

كان قد بدأ كتابة الفقرة الخاصة بهذه الحقبة التاريخية التي ساهم في صنعها:

كانت الإضرابات وحملة المقاطعة التي نظمها الفلسطينيون في عام ١٩٨٨ تهدف إلى ضرب الاقتصاد الإسرائيلي وحرمانه سوقه الأهم المتمثل في الأراضي المحتلة. تواصلت المواجهات بين الطرفين، في رام الله، ولأكثر من أسبوعين، وتركزت حول المتاجر. كانت تلك المواجهاتُ صراعا لفرض الإرادات بين المحتل والمحتلين. فعندما طالبت القيادة الموحّدة للانتفاضة أصحاب المتاجر بفتحها ثلاث ساعات فقط في الفترة الصباحية وإغلاقها عصرا، طالبهم الجيش الإسرائيلي بالفتح والغلق في أوقات معاكسة. عمد الجنود الإسرائيليون إلى تحطيم أقفال المتاجر لمنع أصحابها من

إغلاقها. ردّا على ذلك، نظم حدادون ومتطوعون أنفسهم لإصلاح ما يحطمه الإسرائيليون ليلا من أقفال المتاجر المختلفة.

آنذاك، لم يكن يعرف من تكون، لم يكن مسموحا له بذلك، حتى يتسنى لهما عند الاستجواب أنْ يقول كل منهما أنه كان يعمل بمفرده. ليست جميلة جدا، هكذا ظنّ في نفسه، كان مخطئا، فهي رائعة الجمال. لكن حتى هذه الذكرى بدأت تخبو، كلّما فكر أكثر بوجهها بهتت ملامحه. أحيانا، يسارع إلى مداهمة ذكرى صغيرة قبل أنْ تفلت منه ليرى وجهها كما كان. للحظة، يلتقط وجهها، يتوقف قلبه عن الخفقان، تتسارع أنفاسه. ثم ينتبه، يرى يده تمسح سطح مكتبه، عيناه تحملقان في بقايا قهوة في قعر فنجانه، ويضطر إلى جرّ نفسه جرا من حيث تكون قد ذهبت بضربة على رأسه.

إنه لا يتذكر أنه كان بحوزتهما حفّارٌ كهربائيٌّ. كيف أصلحا القفل إذًا؟

في ذلك الوقت، كان يدرس في إحدى جامعات الضفة الغربية. رآها في المرة الثانية في مقهى الطلبة الجامعي، لم يتفطن أبدا إلى أنها الفتاة نفسها التي رآها في المرة الأولى. كانت تنتعل حذاء أحمر عالي الكعبين، أثار زوبعة من الضحك بين رفاقه. كانوا يعرفون أنها سليلة إحدى العائلات المقدسية المعروفة، وهذا بالطبع سبب كافٍ لإثارة النميمة المعهودة حول برجوازية أهل المدينة. لكنّ طقطقة حذائها الأنثوي، مشيتها التي خلت من تصنّع، بعثت فيه شيئا من النشوة.

لم ينتبه إلى الأمر إلا عندما تناهى إلى سمعه صوتها وهي تتحدث في الممر. حينها فقط أدرك أنها تلك الفتاة التي كانت تنحني

فوق قفل ذلك المتجر. اعترته الدهشة، أراد أنْ يسحبها من ذراعها، يتندر معها على ذلك الموقف. اندفع في اتجاهها، رفعت رأسها من بين رفاق شلتها، رمته بنظرة، قالت فيها ما تريد قوله، دون أنْ تنبس بكلمة واحدة، إياك! ثم إياك أنْ تفعل ما تودّ فعله! لكنه عرف، هي عرفت، هما معا عرفا، بأنّ الأخرين، ومن تلك اللحظة فصاعدا، قد عرفوا أيضا.

بعد تلك النظرة ترك العلاقة التي كانت تربطه بأخرى تتدهور. صاحبته لم تتقبل الأمر على الإطلاق، كان هناك بكاء وشجار، صار يتجنب الظهور في أماكن معينة حيث تكون، يتفادى الصدام معها. أصبح الوضع سخيفًا، كان ينبغي لها أنْ تدرك أنَّ قلبه بات في مكان آخر.

ولكن ما الذي حلّ به! ما الذي اعترى جسده! يجتاحه الهيام بها فيطير بعيدا عمن حوله. تتسارع ضربات قلبه كلما رآها، يصحو في الصباح بعضو منتصب حد الإيلام. بدا كأنه ينظر إلى جسده لأول مرة، يعيد اكتشافه من جديد. أفزعه الشعور بأنه لن يجذبها بما يملك، لا يمكنه التعويل على وجهه، شعره، كفتي يديه أو صوته. قصبة أنفه التي كسرت خلال شجار في المرحلة الثانوية جعلته يبدو أحول العينين. شعره خشن للغاية، بشرته داكنة، مهما غسلها، تظل شاحبة، كأنها وسخة. صوته يصاب بالارتباك في حضورها، نبرُه يصبح لاهثا مضطربا وكأنه بهلوان. عقله هو الآخر أصيب بمسّها، جملُ كلماته تتعثر، تتنافر، يبدو ما يحاول قوله فارغا أجوف.

عرف من المعلومات التي جمعها عنها بأنها تدرس التاريخ، أساتذتها يعدّونها مبرزة، لغتها الإنجليزية ممتازة، تعلمت في مدارس

خاصة، تتحدث الألمانية كذلك. تنتمي إلى عائلة مسيحية، لكنه لم ير مشكلة في ذلك. يحيطها دوما لفيف كبير من الأصدقاء، بحسب تقديره، ليس هناك من صاحب، مجرد ذكر تلك الكلمة يثير فيه شعورا بالخوف والمرض. لاحظ جملة من الأمور، هي من يتصدر، عادة، أي نقاش يثار. مهما كبر عدد من يجلسون معها، تعقب على حديث كل واحد منهم، يحثّها الآخرون دوما على إبداء رأيها. تحتفظ في حقيبتها المزخرفة بمنشورات، تعلقها بأناقة على لوحات الإعلانات في الممرات، وتُنحّي الإعلانات الأخرى. كلمات منشوراتها مطبوعة بآلة طابعة، تتضمن جملة واحدة:

- لا! إنهم ليسوا الحل.

قال له أحد أصدقائه إنها رشحت نفسها ضده في الانتخابات الطلابية. ذكر ذلك بصورة عفويّة، بنفس نبرة تعليق أصدقائه على حذائها. بعد أنْ ناقش الاثنان ما تقوله الأحزاب الدينية ومن رشحته قياداتُها للانتخابات، سأله صبري:

- باسم أي حزب ترشح نفسها؟

- «كمستقلة.» ثارت زوبعةٌ من الاستخفاف والضحك بين أصدقائه. «لا تقلق بشأنها، إنها ليست مصدر إزعاج لك.»

لكنها كانت كذلك بالنسبة له في ذلك الوقت. كان قد صار متيّمًا بها.

عندما دفع كرسيه نحو النافذة، لم يتمكن من رفع نفسه ليتمكن من رؤية المزيد من حديقة أبي عمر، يرى أطرافها البعيدة فقط. في زاوية من زواياها، وائل حفيد أبي عمر الأوسط، يشغل نفسه باللعب في هذا الوقت من النهار! حركات وائل كأنها تقول إنه يلعب، لكن

صبري لا يعتقد أنَّ ذلك ممكنٌ لصبي بهذا العمر. إنه متأكد من أنّ الصبيّ تعمد الذهاب إلى هناك حتى يمكّنه من رؤيته. كأنه يصنع مصيدة للفئران، ثنى سلكا قديما، علّق فيه قشور فاكهة، ركب بابا يشبه المقصلة. هز صبري رأسه استحسانًا وإعجابًا بهندسة المصيدة: شاطر! كان يشعر بالتشفّي لما تثيره شقاوة الصبي من سخط لعائلته. نظر الصبي إلى أعلى، رمى صبري بنظرة خاطفة، أشاح بوجهه إلى بعيد. تظاهر صبري بالكتابة على دفتر، أعدّه مسبقا لمثل هذه اللحظة، راقبه وهو يلوي أسلاك المصيدة، ترك النافذة وتوجه إلى مكتبه.

سحب صبري بيانا صادرا عن القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة، كان يهيب، وعلى نحو مؤثر، بالشعب بكافة فئاته وطبقاته الاجتماعية حتى يتقيد بالإضراب العام. ختم صبري الفقرة التي كتبها حول إضراب المتاجر في رام الله، تأملها وفي يده قلم رصاص جاهز لتحريرها:

في إطار سياسة المقاومة اللاعنفية التي انتهجها الفلسطينيون خلال الانتفاضة الأولى ضد الاحتلال، أمر الجيش الإسرائيلي أصحاب المتاجر بفتح متاجرهم، وتوعّد كلَّ من لا يلازم متجره بالاعتقال. لكن أصحاب المتاجر ظلوا على طاعتهم للقيادة الموحدة، يفتحون متاجرهم ويتركونها في تحد واضح لأوامر المحتل. أما البضائع المكشوفة للملأ فلم يُسرق منها شيء. استغرقت هذه المواجهة أسابيع عدة، لكن الفلسطينيين في نهاية الأمر كسبوا معركة التحكم بمتاجرهم.

لم يستطع أنْ يُقدِّر إنْ كانت تلك الفقرة موضوعية بدرجة كافية، إذ يجب ألا تبدو ذات نبرة دعائية. قرأها من جديد، فليذهبوا إلى

الجحيم! هذا ما جرى. لقد كان هناك في خضم الحدث، شاهده بأم عينه. سُحقًا لهم! كل التأويلات التاريخية تنطلق من الترويج لهذه الفكرة أو تلك. أنزل صبري قلمه الذي كان يحوم فوق الفقرة، قرر أنْ يتركها على حالها.

الفصل السابع

أظهر خليل إعجابا شديدا بالسندباد. لكن رشيد يعتقد أنه فعل ذلك لأنّ المقهى بعيد عن الضاحية التي يقطنها والداه. تبدو المدينة من هناك وكأنها انهارت فوق نفسها. تظاهر رشيد وقتها بأنه يستشعر سحر المكان رغم أنه كان يجده شعبيا إلى حد مأساوي. لم يمنعه ذلك من التندر مع خليل على اللوحة المذهبة فوق الحائط، يطل منها منتجع فوق جبال الألب، أو المزهريات الفضية البشعة، بورود بلاستيكية، وسيقان عارية، بلا أوراق، أو حبل أضواء الزينة الذي يلتف فوق مكيف الهواء.

رشيد يلتقي خليل عادة في مقهى السندباد، إنه في طريقه إلى هناك في هذا الصباح. يحمل في جيبه رسالة القبول ورسالة ليزا. رفض أنْ يأخذ ليزا إلى السندباد في زيارتها الأخيرة، خلال الصيف الماضي، رغم أنّ الأوضاع لم تكن قد تدهورت إلى هذا الحد. بدلا من ذلك، اصطحبها إلى مقهى ببير، كرهته للغاية. تبرمت وهي تتململ فوق كرسي حريري، تغطيه طبقة شفافة من البلاستيك.

- كأنني في فيينا وليس في غزة.

عكّر المكان مزاجها كثيرا، اضطر إلى الكذب عليها، أشار إلى

رجل على طاولة مجاورة، يتلذذ بأكل كعكة من الشوكولاتة، بالشوكة والسكين، قال لها: إنه كان فدائيا في السبعينات.

كانت تلك زيارتها الثانية إلى غزة، ومع أنه لم تمرّ عليها سوى بضعة شهور، شعر كأنّ دهورًا مضت. عندما جاءت في زيارتها الأولى، في أول مرة التقاها، دخلت إلى المركز، كانت ترتدي قميصا مكويًا وسروالا عسكريًا. تملّكه الذهول. ظنّ، ربما لما أحس به من قلق، أنها مهتمة بخليل وليس به. أرجع ذلك إلى الدور الأكبر الذي يقوم به خليل في المركز. عندما سألها لاحقا، وهما يتبادلان القبل على سطح بيته، طمأنته بأنّ علاقتها بخليل لا تتجاوز حدود العمل.

أحد أنابيب المياه على جانب الطريق أصيب في القصف. مياهٌ في كل مكان، أوحالٌ تغمر الحفر في الشوارع. الطرقاتُ ضيقةٌ، والمارة يتكدسون فوق بعضهم البعض، كأن كلا منهم يقتفي أثر الآخر بأنفه وليس بعينيه. فجأة توقف الجميع، لا مجال للتقدم، أصبحوا عالقين بين الجدران. أما السبب، فهو عجوز وحماره. حرن الحمار ورفض أنْ يتزحزح من مكانه، غطست رجليه في بركة ماء وسط الطريق. تعطلت حركة السير من خلف سيارة قديمة، توقفت هي الأخرى أمام الحمار. أحدهم يدفع بحقيبته فترتطم بكاحل رشيد الذي صاح في وجهه:

- هيه، انتبه!

لكن صاحب الحقيبة كان في عجلة من أمره، لا يكترث بما ينهال عليه من شتائم.

صبّ الجميع جام غضبهم على صاحب الحمار العجوز:

- من منكما الحمار بالضبط!

- جرّه إلى حافة الحفرة أيها الغبيّ!
- أعتقد أنه سيغرق.
كانوا جميعا عالقين في المكان. وصلت سيارة مرسيدس مضادة للرصاص، فتغير مزاج الحشد. السيارة تعني أنّ أحد مسؤوليهم فيها، راحوا يبصقون عليها:
- يا عيني شو هاد! اسم الله! اسم الله! بعتونا في المفاوضات عشان شقفة هالسيارة، مش هيك؟ كرمال تفحطوا عجلاتها فوق هالكيلومتر اللي حررتوه من غزة؟
- برافو! برافو!
أداروا ظهورهم للمسؤول المجهول، يقبع خلف الزجاج الأسود. أصبح صاحب الحمار العجوز الآن أخا لهم، نادوا عليه باحترام:
- يا حاج! يا حاج!
ساعدوه في مداهنة الحمار حتى يتزحزح من مكانه. قفز صبي هزيل من بين الجموع، في يده جزرة، اندفع الحمار في اتجاهها، خرج من الحفرة على الفور.
عطّلوا سيارة المرسيدس قدر ما استطاعوا، ساروا ببطء، ارتطموا بظهور بعضهم البعض. تمكنت السيارة أخيرا من العبور، تجاوزتهم بخلفيتها الكبيرة اللامعة، اهتزت فوق الحفر على الطريق.
تضاءل الحشد، صار تمييز المارة في الطريق ممكنا. صاحب الحقيبة، ذو عنق طويل، دفع بنفسه إلى الأمام، سحب حقيبته وراءه، كأنه يجرجر طفلا تائها. عرف رشيد من يسير أمامه، من رقبته وشعره المصبوغ. إنه أبو عمر. لم يكن جاره في بذلته الرياضية المعهودة. كان يلبس قميصا مكويا، أكمامه قصيرة، سرواله تقعّر خلف الركبتين.

اصطدمت تلك الحقيبة بساقي أبي عمر، فأطاحت به نحو حافة بركة من الماء. حاول أنْ يسند نفسه إلى عربة أمامه حتى لا يقع وسط بركة الماء. كانت تنتاب رشيد، وبسبب الرسائل الإلكترونية، نوايا حسنة تجاه البشرية جمعاء، فهبّ لمساعدته. ارتطمت يد أبي عمر بكيس إسمنت ممزق فوق العربة، فثارت زوبعة من غبار غطّت وجهه بالكامل. نفض ما على وجهه وملابسه، ومسّد شعره براحتيه. خاطبه رشيد بودٍّ:

- هل أنت بخير يا عم؟

وفي خاطره أن يُشعر الرجل بأنه متعاطفٌ معه، ليتبرأ من مشادات أمه المتكررة مع هذا المسكين. لكن أبا عمر ما إنْ لمح وجه رشيد حتى أشاح بوجهه ودفع نفسه وسط الزحام.

الفصل الثامن

أخذت العجوز، عمة رائد وتغريد، إيمان إلى بيت من غرفتين صغيرتين. كان الجثمانان مسجّيين هناك. عندما وصلتا، كانت الشمس قد تحركت في الأفق المغطى بالدخان وبلغت كبد السماء. وهما في الطريق كانت حرارة الجو خانقة. وصلتا البيت، فكان أكثر سخونة من خارجه. سارتا في أزقة وأحياء لم تدخلها إيمان من قبل. يتداخل المخيم بالمدينة على نحو لا يمكن تمييز أين يبدأ الأول وأين تنتهي الأخرى. لم تلاحظ أي امرأة حاسرة الشعر، مثلها، في محيط البيت الصغير.

كان الجثمانان الممددان في الغرفة لتغريد الصغيرة وابن عمها رائد. كلاهما غُطيّ بقماش قطني أبيض. ما لُفّت به تغريد أكبر بكثير من حجمها، طوي عدة مرات، فبدا جثمانها منتفخا. أما رائد فإن ما غطي به كان غير كاف. قدماه مكشوفتان، كأنه قرر على عجل أن يغطّ في قيلولة لا في سبات أبدي.

قالت العجوز عمة رائد لإيمان في أثناء سيرهم في الطريق:

كانت تغريد في زيارة ابن عمها عندما قصفوا المستشفى. أم

تغريد قالت إنّ ابنتها سترغب في وجودك، ذكرت ذات مرة أنها تحبك أكثر من أمها.

تنهدت وقالت:

- رائد أيضا كان يأتي على ذكرك، يسأل تغريد عنك دائما.

استأنفت بنبرة هامسة، كأنها تفشي لها سرا:

- كان يسأل عنك باهتمام، ولهذا جئت أبحث عنك.

الغرفة مشحونة بالحزن والذهول وطقوس العزاء. في الخارج، الشمس ساطعة، الصبية يلعبون، يتشاجرون في الأزقة، أصواتهم شقت طريقها إلى حيث تجلس.

حقيبة تغريد المدرسية مركونة في الممر. فوق جيبها الخارجي، أميرةٌ شقراء ترتدي فستانا زهريًّا، تبتسم لمن في الغرفة. إيمان رأت الحقيبة تتقافز في باحة المدرسة، تتراقص فوقها جدائل تغريد.

أم تغريد تمشي، تترنح، تلتمس السلوى في مجاملة معزياتها:

- الجثتان محترقتان، حاولنا تغطية تلك الأجزاء.

- في الأسبوع الماضي، كنت أحاول دسّ أطراف قميصها في سروالها، لكنّها كانت تصرخ وتنط، خدشت ظهرها دون قصد...

- أترغبين بفنجان قهوة؟

- رحمة الله عليهما.

- وجهاهما لم يتشوها كثيرا.

- أطال الله في أعماركم جميعا.

- طيلة النهار وأنا استشعر الألم الذي أحدثه ظفري في ظهرها...

- والله لقد عرفت! عندما سمعت الانفجار الرهيب، عرفت أنه اختطفهما.

- إن شاء الله صحة والدتك بخير؟

غُصّت الغرفة بالمعزيات، توارت حقيبة تغريد وقدما رائد، أصبح تبادل الحديث مع الأخريات أسهل قليلا على إيمان.

- كان قلبي منقبضا، سمعت صوت الانفجار، فداهمني ألم، عصرني عصرا، عرفت! والله عندما وقع الانفجار عرفت!

أشعر أنها ستأتي الآن من المدرسة، تصرخ عليّ، تناديني، تريني ما رسمته في المدرسة. دائما ترسم يا ست إيمان، خصوصا لك أنت.

- كيف حال إخوتك؟ إن شاء الله بخير؟

- ظننا أنهم لن يعثروا على الجثتين، ولكنهم وجدوهما. يا إلهي كم كانت الحرارة عالية! والدخان كثيفًا...

إيمان لم تر قدمي رائد من قبل، لكنها شعرت بهما على مقربة منها ذات مرة. قدمه التي ألصقها بها، ها هي عارية الآن، تتدلى من طرف الطاولة. كانت تتخيل جسده، تشتهيه، تتوجع، تتذكر ذلك الآن، تشعر بالخجل، لا تقوى على النظر إلى قدميه.

أشاحت بوجهها إلى الطرف الآخر من الغرفة، تتبعت عيناها حاشية تنورة إحداهن، فالتة من مكانها. كيف يمكن البكاء بفم مفتوح! تتردد في مسامعها تلك الضحكة، تخرج من أعماقه، صافية، نقية، تشيع السعادة والحبور، يستدير من حوله باتجاهه، تعلو وجوههم ابتسامات الفرح.

تجاذبت أطراف الحديث معه عن الشعر. ألقى عليها شيئا منه، ناداها بين الفينة والأخرى على نحو رقيق:

- يا معلمة.

تغوّل شعورها بالفجيعة، اعتصر الحزن قلبها، مزّق أضلاعها.

أخيلة المتشحات بالسواد، في حركتهن من وإلى الغرفة، تتراقص في عينيها. تبدد التشوش، تركزت بؤرة تفكيرها، على المكان الذي هي فيه، على القصف الهمجي، على الحروق البشعة فوق الجثتين. تراجع الشعور بالفجيعة، حل مكانه إدراك طاغ بما ستفعل، تلاحقت أنفاسها، تسارعت نبضاتها.

كانت منار في انتظارها في الزقاق المحاذي للبيت. لم تتفاجأ. ظهور منار هو الأمر الصواب، يجب أنْ تكون هناك. بدت منار كما تبدو في العادة، وإنْ بقدر أكبر من الاعتداد بالنفس. ألقت عليها التحية، كأنها تزفها إلى عريس. مدت يدها، أمسكت يد إيمان.

- هل عرفت دورك الآن يا إيمان؟

- أجل، لا بد من وضع حد لكل هذا، يجب أن نوقفه فورا وإلى الأبد.

- ستتعرفين عليه، أقصد الوسيط، لا تقلقي إنه يعرفك.

دلفت منار إلى زقاق بين البيوت. تركت إيمان خلفها. لا تدري أي طريق تسلك، أين تتجه. تجهل تماما هذا المكان. كانت في طريق رملي منحدر يغصّ بالأطفال. مشت باتجاه شيء فاتح تتطاير أطرافه فوق الرمل. إنه رأس قرنفلة زهرية اللون. قرنفل منثور على طول الطريق: تيجانه، سيقانه، أوراقه. بدا الشارع بلون ورق الحمّام، زهري اللون.

أبصرت مزارعا يحمل باقات منه، حوله صبية. جلس يصرخ على الأرض. تجمع حشد من الناس. شتم الإغلاق الذي يتسبب في موت محصوله من الزهور. سخر من أنْ يكون القرنفل خطرا أمنيا من الدرجة الأولى. بكى على انهيار مصدر رزقه. قال إنّه سيطعم

القرنفل لبقراته. غيّر رأيه. سيطلق النار عليها. ضحك من حوله. كلا، سيعطيها للفتيات. تراكض الصبية بالزهور. وجدت نفسها تحتضن باقة بين ذراعيها، كأنها طفل رضيع. تراقب كل ما يجري هنا. تعرف أنه يحدث على الطرف الآخر لجدار قذر، سميك، من صنف ما يجلس جنودهم خلفه. وقفت في الشارع دون حراك، لا تنتظر شيئا سوى تحطيم ذلك الجدار.

الفصل التاسع

بدا السندباد عن بعد وكأنه يكتظ بالرواد. لكن رشيد عندما دخل، لم يجد سوى طاولة واحدة حولها عدد من الزبائن. وسط المقهى طاولة طويلة، أعدت لمأدبة على ما يبدو، يجلس إليها مجموعة من المقاتلين. نصفهم بزيه العسكري والبقية في لباس مدني. كلهم ينهمكون في الأكل من صحون بلاستيكية مرصوصة فوق سطح الطاولة المفروش بالجرائد.

الرجلان المسلحان، النحيف والسمين، اللذان كانا أمام مرآب السيارات قبالة بيته في الصباح، يجلس كل منهما مقابل الآخر، على صدري الطاولة. السمين، شاربه ستالينيّ كثّ وجلده غليظ، أما النحيف فيرتدي زيًّا عسكريًّا أخضر، وجهه نحيل وجسمه ضامر. يجلس متسمرا في مكانه، دون أنْ يأتي بأي حركة. أثار في رشيد شعورًا بالشفقة.

خيّم الصمت فجأة لحظة دخول رشيد. توقّف بعضهم عن مسح الصحون بلُقيمات الخبز. تجمدت اللقيمات في يد آخرين وهي في طريقها إلى الفم. مشى بتعثر. شعر بما أحدثه وصوله من ارتباك في الحاضرين. وصل إلى طاولة. حملق في شاشة التلفاز. وقت الصلاة

أذن. لقطة لمسجد، خلفه سماء تظللها الغيوم. راقب حركة الغيوم والمسجد بفضول مصطنع. سلّم المقاتلون بأنّ هذا كل ما يهتم به.

لم يكن خليل قد وصل بعد. باب المقهى مرفوع حتى المنتصف. رشيد اضطر إلى الانحناء لدى دخوله. المكان معتم. بدت أطباق الطعام في الثلاجة تحت ضوء النيون كأنها بلاستيكية. ذبابة صغيرة ظلت تحط بعناد فوق وجهه. سيفسد السندباد لا محالة مزاجه الطيّب. كان يتمنى في سره، لو أنّ والد خليل هو من كان في المرسيدس، ألا يكون قد تعرّف عليه أو سمعه وهو يهتف مع الآخرين ضد القيادة. وهل هذا بالأمر المهم؟ والد خليل ليس على وفاق مع والده، ما من أحد يتكلم معه، حتى خليل نفسه، إلا لحاجة ماسة. ما العواقب المحتملة؟ إنه سيسافر على أيّ حال. هل يستطيع والد خليل أنْ يمنعه من الحصول على تأشيرة الخروج؟ هل يمكنه ذلك؟ هل يفعل ذلك؟ إنه يسرف في تدخين الحشيش. ينبغي له أنْ يترك غلوريا جانبا.

ليزا. لندن. ترنّم رشيد بوقع الكلمات في نفسه. حاول أنْ يتخيل ليزا في السندباد، لكن المشهد تشوش في مخيلته على الفور. أطلت عليه ساقاها، مسكوبتين، تتحركان برشاقة من تحت تنورتها، تزينهما زهور زاهية. سيغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها حتى يتمكن من اصطحابها إلى السندباد، هذا لو كان ممكنا في الأساس اصطحابها إلى مثل هذا المكان. شرح لها هذا مليون مرة. النساء لا يَرتَدْن هذا المقهى. حاول تغطية ما تخيله من جسدها بعباءة وهمية، لكنه ظل يرى ركبتيها المكشوفتين وطيف ذاك المثلث المدبب بين ساقيها.

عرق نفّاذ، فاح من المقاتلين وأشبع أجواء المقهى بروائح غرف تبديل الملابس. أما قرقعة بنادقهم فأضفت على المكان هيئة سوق

للسلاح. أدرك رشيد بأنه أخطأ في تقدير تسلسلهم القيادي. ظنّ أنّ السمين صاحب الشارب الكثّ هو الأعلى رتبة. بعد تمحيص، انتبه إلى أنّ الرجل النحيف صاحب السترة العسكرية الخضراء هو قائدهم. نظرة واحدة منه، يطبق جفنيه بهدوء على عينيه، فيخرس الجميع.

نهض رشيد وذهب ليقف بباب المقهى. كان الوقت عصرا، ومع أنّ الجو مشرق وجميل، إلا أنّ المشهد من أمامه بدا وكأنه موكبٌ من المصابين. أناس يركضون في كلّ الاتجاهات، قاماتهم محنية، يجرّون بجزع أطفالَهم الذي يرتدون لباسهم المدرسي. على قارعة الطريق، الصبي صاحب الجزرة، يعرض شرائح هواتف نقالة ويبيعها. بمحاذاة الصبي، امرأة حاسرة الرأس، في سروال من الجينز، تحمل باقات من الزهور، أدارت رأسها، حملقت في شيء ما في آخر الشارع. شعرها كثيف ومذهل، لكن لا بد أنها مخبولة! تخرج من بيتها وتستعرضه هكذا! توقّف بعض المارة. تأملوها. تحدث إليها رجل، استأنف السير، أدرك أنّ الحديث معها غير مجد. تساءل رشيد إنْ كان وجهها بجمال شعرها. جاءه الجواب سريعا. استدارت في اتجاهه. اكتشف أنّ الوجه الذي يحملق فيه هو وجه شقيقته التوأم.

دخول السندباد برفقة إيمان، وهي حاسرة الرأس، لم يكن أمرا هينا. كأنها تمشي وقد دست سهوا حاشية فستانها في ملابسها الداخلية. أثار وصولها ابتهاج المقاتلين. دقّ أحدهم الطاولة بإيقاع أغاني الدبكة. لم يتوقفوا إلا بإشارة صارمة من يد قائدهم.

حوّل القائد عينيه عن رجاله. نظر إلى إيمان. هزّ رأسه لها. أبصرته، كأنها جفلت في مشيها. اقتربت من شقيقها. تضرجت وجنتاها واغرورقت عيناها، كأنّ نحلة لسعتها.

- هل تعرفينه؟

سألها رشيد بعد أن جلسا إلى طاولة واستأنف المقاتلون جلستهم. صاحب المقهى جلب منديلا ورقيا كبيرا، مراده واضح، يريد من إيمان تغطية شعرها به.

- لا أعرفه، لا أعرفه على الإطلاق.

- بدا كما لو أنك...

ترك رشيد ما أراد قوله معلقا في الهواء. الوقت غير مناسب لتخمين ما يجول في ذهن إيمان. إذا قالت إنها لا تعرفه، فهي لا تعرفه. لا جدوى من الضغط عليها. أشار إلى الزهور:

- لماذا تحملينها؟ هل من مناسبة؟

هذا أقرب صيغة ممكنة للسؤال المُلحّ الذي يعتمل في خاطره:

- ماذا كنت تفعلين بحق السماء! تمشين كالمجنونة في هذه المنطقة بعد غيابك طيلة الليل عن البيت؟

- كنت في مسيرة.

وضعت إيمان الزهور على الطاولة. راحتا يديها اخضرّتا، تجعدتا، من سيقان الزهور المبللة.

- يريدك أنْ تضعيه فوق رأسك.

أومأ صاحب المقهى في اتجاه المنديل الورقي الذي ما زال يحمله في يده. لكنه أصغر من أنْ يغطي شعر إيمان. رجع صاحب المقهى بحلقة مطاطية، اعتذر لأنها وسخة قليلا. لم يبارح مكانه. تأكد أنّ كل خصلة من شعرها اختفت عن الأنظار، ربت على كتف رشيد قائلا:

- أنت مدين لي يا أخ.

رفعت إيمان الزهور إلى صاحب المقهى:

- خذ هذه، إنها لك.

- لا، لا يا آنسة، لا أستطيع قبولها. إنها تستهلك ماء كثيرا.

دفعت بها إليه:

- أرجوك خذها، لا أريدها، أرجوك.

أخذها. فردها على طاولة البيع. تفحّصها بارتياب.

تهامس المقاتلون واعتدلوا في جلستهم، فقد دخل رجلٌ قصير إلى المقهى. خيّم الصمتُ على المكان. جلس الوافد الجديد إلى طاولة، تجاور طاولة إيمان ورشيد. بحركة استعراضية، صبّ له صاحب المقهى في كأسه ماء عن علو ليس بالقليل.

حاول رشيد قتل ذبابة بقائمة الطعام. تحك ساقيها في بقع الماء التي سقطت من الزهور على الطاولة. تمكنت من الإفلات. طارت إلى الحائط. رجعت واستقرت على رأسه من جديد.

- ماذا كنت تفعلين في هذه المنطقة؟

- كنت في عزاء.

ردت وهي تراقب الرجل الجالس بقربهما. مشدود القامة، ملتح، يحملق في سطح الطاولة، كأنه يلعب الشطرنج. بدت شاردة الذهن، غافلة عن وجود رشيد. تبدد اهتمام المقاتلين بها، عدا قائدهم. حرك كرسيه بزاوية تمكنه من رؤيتها بوضوح. أنفه مثل أنف رشيد، قصبته تمتد باستقامة، من حاجبيه وحتى أرنبة أنفه الشبيه بأنوف الإغريق، أو كهنة أور في بلاد ما بين النهرين. يشبه رشيد أيضا في جسمه. ذراعاه طويلتان، تتدليان من الكرسي.

كان المقاتلون يراقبون الرجل الملتحي الجالس بقربهم. استغرق وقتا في تقليب قائمة الطعام، ثم طلب شايًا بلا سكر أو نعناع.

سألها رشيد عندما نظر الملتحي في اتجاهها:

- هل تعرفينه أيضا؟

- ابنته في مدرستي. إنه من عائلة سيف الدين.

تفحصت حذاء الرجل، بلا رباط، يحرك قدميه ببطء تحت الطاولة.

- إحدى أعضاء اللجنة، منار، قريبته. سمعت منها أنه فقد اثنين من أولاده خلال الأشهر الثلاثة الماضية. صوتها بالكاد يسمع.

قائد المقاتلين ما زال يحملق فيها. لم يحوّل بصره عنها، حتى عندما استدارت نحوه، حدجته بنظرة زاجرة.

تمتم رشيد في سرّه: كفّي عن ذلك! بالله عليك توقفي!

إنها أخته، يحقُّ له أنْ يسألها. سألها بحدة:

- أين كنت ليلة البارحة؟

- كنت في اجتماع للجنة النسائية.

- طيلة الليل؟

- أجل، طيلة الليل.

قال رشيد وهو يعاود النظر إلى الملتحي ابن عائلة سيف الدين:

- يبدو متدينا؟

- من منّا ليس كذلك؟

- أنا لست كذلك، هؤلاء على تلك الطاولة، خليل، أنت، ماما، بابا، صبري. كفي عن التصرف هكذا يا إيمان! ما الذي جرى لك؟

مدّ يده على الطاولة ليمسك يدها. سحبت يديها بعيدا، أنزلتهما تحت الطاولة. أراد أنْ يخبرها عن المنحة، أنْ يضمها بقوة، يطمئنها بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، لا لأنه حصل على المنحة، بل أيضا لأسباب أخرى. إنه متأكد من ذلك.

حلقات الدخان التي تلتف كأشرطة رقيقة من الشيفون فوق رؤوس المقاتلين تحولت إلى سحابة كثيفة ابتلعتهم داخلها. راح أحدهم يضغط على جهاز التحكم عن بعد، يتنقل بين المحطات الفضائية. ضغط على الزر. تكّ. مسابقة رقص لبناني. تكّ. مطرب خليجي في دشداشة بيضاء، يغني في مرج أخضر، لإمرأة في فستان حريري أسود، شفتاها مثقلتان بالأحمر. تكّ. مشاهد من موقع العملية الانتحارية، مقعد محطم في متنزّه، عربة أطفال مقلوبة. تكّ. الراقصات اللبنانيات مرة أخرى. تكّ. عربة الأطفال المقلوبة من جديد. رفع المقاتل صوت التلفاز لمنع رشيد من التنصت عليهم. لم يتمكن من التقاط نهاية نكتة طويلة رواها صاحب الشارب الستاليني للجميع. لم يسمع إلا كلمة طيز، محور النكتة. ثم سمع كلمة الحجّار، قالها بجدية مقاتل صوته أجش: آخ مما فعلته فتاة الحجّار تلك!

عندما وصل خليل إلى المقهى بدا وكأنه في المكان الخطأ. وعلى الرغم من عرقه وعبوسه إلاّ أنه ظهر إلى جانب المقاتلين بصلابتهم وخشونتهم ومظهرهم الرثّ وكأنه هبط من كوكب آخر. خليل حليق اللحية ناعم الوجه لا يوحي مظهره بالجديّة بل بالتفاهة والسطحيّة. راقبه رشيد لدى دخوله. أدرك ولأول مرة كم يبدو شعره الطويل الذي يعقده على هيئة ذيل الفرس سخيفا. عرف لماذا وُصِف خليل ذات مرة بأنه حلو.

سأل خليل مُتجنبًا طرح السؤال الأكثر إلحاحا حول وجود إيمان الشاذ في المقهى:

- ماذا يجري هنا؟ لم كل هذه الزهور؟

صاحب المقهى وضع زهور القرنفل في أباريق ماء. خصّ

طاولة المقاتلين باثنين منها، ووضع الأخرى على طاولتي رشيد وسيف الدين. همّ رشيد بالردّ، لكن ما إنْ جلس خليل حتى بدأت إيمان بالكلام:

- صديقك رائد قتل خلال قصف المستشفى ليلة أمس.

سأل خليل ورشيد في الوقت نفسه:

- رائد أبو وردة؟ الشيوعي؟

- أجل، قتل. وكذلك ابنة عمه تغريد، كانت إحدى تلميذاتي. هل تتذكرها يا رشيد؟ كنت تناديها: تغويد؛ لأنها تعجز عن نطق الراء. تلك التي رسمت صور دبابات وأبقار؟ بقرات يلتهمن دبابات ويجهزن عليها. ترسم أشياء من هذا القبيل، هل تذكرها؟

رشيد يتذكر بنتا صغيرة تتقافز بحماس لتعرض رسومها على إيمان: وهذه يا آنسة، هل هي أحسن من تلك؟ هل أرسم واحدة أخرى يا آنسة؟

- رائد أبو وردة شخص غير عادي، يستثير الإعجاب ويستحق الاحترام. طالما اعتقدت بأنه سيصبح يوما ما...

طأطأ خليل برأسه من شدة الحزن. حركته تلك شلّت كلَّ من في المقهى، جمّدتهم في أماكنهم، توقفوا عن متابعة التلفاز. فخليل بفعلته تلك، انتهك قاعدةً يتواطأ الجميع عليها، تقضي بمنع إشاعة اليأس أو إبداء أي علامة من علاماته على الملأ.

- يا لها من خسارة كبيرة! كم أشعر بالأسى على ابنة عمه أيضا يا إيمان. هل أنت بخير يا عزيزتي؟

حاول خليل أنْ يستنهض إيمان لترفع عينيها، تنظر إليه فيطمئن عليها. لكنها أبت ذلك.

- أنا بخير. ما الجديد في هذا؟ طالبة من طالباتي قتلت. ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة. هل هذا مهم على أية حال؟

- طبعا هذا أمر مهم! ينبغي أنْ يكون كذلك! وإلا فإنهم يكونون قد انتصروا علينا وانتهى الأمر. أردف بحماس أكبر:

- الطريقة الوحيدة للتغلب على هذا كله تكمن في مقدرتنا على الحفاظ على إنسانيتنا ومشاعر التعاطف والتراحم فيما بيننا. أنت تدركين هذا، أليس كذلك؟

رفعت إيمان بصرها بشكل خاطف للحظة. حرّك خليل يده كما لو كان هناك المزيد مما يمكن قوله بلغة أرقى. لكن حركته ظلت يتيمة دون كلام. كشّ رشيد الذبابة بعيدا عن وجه إيمان.

- سامحيني، ليس في نيتي إلقاءُ عظة عليك. لكن كيف حال عائلته؟ إنه الابن الأكبر، هل هم بخير؟ لم يكن خليل ليمدّ يده ويمسك يد إيمان في ذلك المقهى.

- كلا، إنهم ليسوا بخير. لا أعرف كيف حال والده، لم يكن في دار العزاء المخصصة للنساء بالطبع. ربما كان مشغولا بترتيب أمور الجنازة. أنت تعرف أنه ينتمي إلى الحركات الدينية.

- أكيد، إنه...أجل، لقد نسيت ذلك.

- أمه جسد بلا روح تتمتم بكليشيهات معهودة مثل: أجل، بالطبع، إنه في صالح الشعب ولخير الأمة، وخلافه. لكنها منهارة من الداخل. كان مشهدًا بشعًا. ثم لوّحت بقبضتها بغضب، وتابعت:

- إنه وضع لا ينبغي السكوت عليه. يجب وضع حد له.

رفعت بصرها. التقت عيناها بعيني الملتحي على الطاولة المجاورة، فلم يشح ببصره عنها. ران الصمت لبرهة من الوقت.

وقف خليل وأصلح هندامه. قميصه القطني مزرر بالكامل، حاشيته مدسوسة في سرواله من الأمام لكنها فالتة من الخلف. كان هناك بعضُ التراب على أحد كُمَّيه، مَزْقٌ خفيف في ياقة قميصه. أنزل حقيبته عن كتفه، ظهرت بقعتا العرق تحت إبطيه. دسّ ذيل قميصه في سروال الجينز. نفض الغبار عن ملابسه. لم يحدث هذا فرقًا كبيرًا في مظهره.

قال خليل وعاود الجلوس:

- كنت أظن أنّ هذا المكان لن يكون مفتوحا.

معظم المطاعم مغلقة والطوابير طويلة أمام الأفران في كل مكان. كانوا في انتظار أي ذريعة لفرض الإغلاق على القطاع وقصفه. بنت الحجّار ناولتهم إياها على طبق من فضة. إغلاق تام. ما من شيء يدخل، ما من شيء يخرج. ثمار الفراولة، محاصيل الزهور، الخضروات، كل شيء أصابه العطب على الحدود، شمالا وجنوبا.

- هل كنت في الجنوب؟

- حاولت الوصول إلى هناك في أسرع وقت ممكن صباح اليوم. بالطبع كنت أتوقع أنْ يغلقوا الطرقات. أردت أنْ أشهد بنفسي سوء الأوضاع هناك.

- كنت أظن ذلك مستحيلا.

- لقد كان أشبه بالمستحيل.

أخرج خليل خريطة. استدار بعض المقاتلين ليتابعوا ما يقول:

- أغلقوا الطريق الرئيسي وكل الطرق الحيوية المتفرعة عنه.

اقتفى خليل بإصبعه الطريق المرسوم على الخريطة. أظافره مقصوصة دوما بعناية بالغة، لكنها اليوم سوداء متسخة. حين لاحظها

وهو يشرح بيده فوق الخريطة، حاول تنظيفها بطرف ورقة لكن دون جدوى.

- لا يمكن الوصول لأي من مخيمات الجنوب؛ إنها معزولة تماما. يستحيل الوصول إلى أبعد من هذه القرية. أشار إلى الموقع على الخريطة.

- اللعنة؛

خبط رشيد الطاولة بحنق: اللعنة!

- لقد أحكموا حصارهم علينا. جرافاتهم تعمل على تدمير البيوت في ضواحي المخيم.

سأل رشيد:

- لماذا؟

- من يدري؟ إنهم لا يتحفوننا بذكر الأسباب.

طوى خليل خريطته واستدار نحو إيمان. سألها:

- لماذا رغبت العائلة بوجودك هناك؟ كنت في غنى عن مشاهدة الجثامين. إنني لا أستوعب الأمر. لماذا طلبوا منك الذهاب إلى هناك؟

- كنت بحاجة إلى رؤيتهم في الحالة التي كانوا عليها. هذا مهم. سيساعدني في ... إنني احتاج إلى معرفة ما يتوجب عليّ القيام به. هذا سيساعدني في اتخاذ القرار.

إيمان تسلط نظرها باتجاه الطاولة المحاذية. بدا وكأن ما في جعبة خليل من أخبار أكبر مما يرغب بقوله لهم. نفض بيده بعض الرماد عن الطاولة.

سأل خليل رشيد الذي بدا قلقا:

- ما بالك؟

- لا شيء. حسنا، الوقت غير مناسب ولكن لا بدّ أنْ أخبركما بأنني حصلت عليها. استلمت رسالة إلكترونية هذا الصباح تفيد بهذا الخصوص.

سأله خليل:

- حصلت على ماذا بالضبط؟

- المنحة!

رفع يديه وكأنه يقول:

- وهل هناك ما انتظره سواها؟

أردف:

- المنحة إلى لندن.

قال خليل:

- أحسنت! مبروك، مبروك.

قالت إيمان وهي تنظر إلى رشيد:

- مبروك.

تابعت:

- هل هو ذاك المقترح البحثيّ الذي كنت تشتغل عليه مع صبري؟

- هذا ما قالته أمك.

- ماذا تقصد بذلك؟

- لا يهم، دعينا من هذا. أعني أنني سأخرج من هنا. بعد بضعة أسابيع سأسافر لمدة سنة على الأقل. أودّ المكوث هناك لمدة أطول إنْ تمكنت من ذلك.

- تبقى هناك؟ إنهم سيطردونك مباشرة بعد انتهاء الدراسة. حتى تبقى هناك ستحتاج إلى إقامة، وأمثالي وأمثالك لا أمل لهم بالحصول

عليها. الطريقة الوحيدة هي الزواج من فتاة بريطانية. تمخّطت بقوة وخيّم الصمت على الجميع.

- أعتقد أنّ هذه ستثير اهتمامك أكثر.

فتح رسالة ليزا أمام خليل. تذكر رشيد المركز. انتفض، كأن أحدهم ركل كرسيه. غطى الرسالة بيده، أرغم خليل على رفع رأسه. سأله:

- هل نجا المركز من القصف؟

- لا أدري، لكني أعتقد ذلك. تكلمت مع جمال أمس ليلا، قال لي: إنّ الجيش لم يدخل المخيم ولكنه في محيطه. لم أتكلم معه منذ ذلك الحين. هاتفه مفصول ولا يمكن الوصول إليه. سأذهب إلى هناك حالما نغادر السندباد. كان عليّ في الصباح أنْ أتوجه أولا إلى الجنوب قبل إغلاق الطرق المؤدية إليه.

نظرت إيمان إلى رشيد ثم قالت:

- اطمئن، مم تخاف؟ المركز أكثر تحصينًا من ملاذ تابع لوكالة الاستخبارات الأميركية. أنا متأكدة إنه بخير.

- أجل، إنه كذلك.

أمّن رشيد على كلامها.

رفع خليل يد رشيد عن الرسالة، قرأها بعناية:

- آخ! عمليات قتل واغتيال الأشخاص العاديين؟

قرأها ثانية:

- في وسعنا أن نقدم لها ما تطلبه. سنذكر لها مقتل رائد بالطبع. كان لديه على ما أعتقد مرتبة مهمة في حزبه، أليس كذلك؟ حريّ بنا إذًا أن نبلغها بمقتله.

سأل رشيد:

- هل تتوفر لنا أعداد القتلى خلال ليلة الأمس؟

- سنحصل عليها. كلّفت بعض المساعدين الميدانيين بذلك.

بدأ خليل بتحريك يديه من جديد. صوته استعاد حيويته. تأمل رشيد قليلا:

- ما هذا؟

نفض شيئا من الرمل كان عالقا في شعر رشيد.

- من منهم؟ من بعثت من المساعدين الميدانيين؟

التركيز يصعب على رشيد. جارهم سيف الدين يبدي اهتماما بكل ما يقولونه. المقاتلون لا يتورعون عن الحملقة في طاولتهم. الحديث لا يجري أبدا على النحو الذي توقعه. إيمان تنخرط فيه ثم تنسحب منه. الملتحي الذي يفترض أنه متدين لا يكف عن تفحصها، وكذلك المقاتل في السترة الخضراء.

قال خليل:

- جمال بالطبع. حتى دون أنْ أطلب منه فإنه سيعمل على إحصاء أعداد القتلى.

قال رشيد:

- بالطبع، جمال.

كان إعجاب إيمان وخليل بجمال يثير الضيق في نفس رشيد. كانت إيمان تسأل عقب أي تطور سياسي: ما رأي جمال؟ جواب خليل جاهز على الدوام. وجهة نظر المخيم التي يمثلها جمال كانت تمنحهما المرجعية التي يحتاجونها، الرأي الذي يثقان به.

إيمان تدخن الآن. بدت غافلة تماما عن جلوسها في مكان عام. لو حاول تنبيهها سيزيد الطين بلّة. عليه أنْ يأخذها إلى البيت.

- أتوقع أن يكون جمال في المستشفى لجمع شهادات المصابين وأقاربهم. كلفت أحد المتطوعين الجدد بالبقاء في مخيمات الجنوب. الوضع مرعب للغاية هناك. هدموا بيتا، بل صفًّا من البيوت. لكن في هذا البيت انفجرت جرة غاز في المطبخ. دخلت أبحث عن دراجة لصبي ظل يصرخ في الخارج: دراجتي! دراجتي! أغلق خليل عينيه وهزّ رأسه:

- الدخان، الكبريت، المجاري، عفن وقذارة. ليس من كلمات تصف ما رأيت.

هزّ كتفيه.

علّق رشيد.

- لست بحاجة إلى الوصف، ما زالت الروائح عالقة بك.

كانت هناك دجاجات تتقافز في كل مكان. لحظة أنْ دخلت إلى ما تبقى من البيت، بدأ أفراد من العائلة بالصراخ طلبا لبطانيات وثلاجات وغيرها. حاولت أنْ أقول لهم بأني لست من عمال النقليات. كان مشهدا مثيرا للشفقة. إننا مثيرون للشفقة! جلبوا حمارا يحمل دلوا من الماء لإخماد الحريق. حمار!

قال رشيد:

- ربما لا يمكن لسيارات الإطفاء أنْ تصل في الوقت المناسب.

- رغم ذلك، بربك حمار! أيعقل هذا؟

بدا خليل محبطا. لكنه سرعان ما استعاد حيويته وقال:

- لكن كل ما يجري جيد لجهة عملنا في المركز.

- حقا؟

- جيد للشهادة المقبلة في البرلمان البريطاني، فهو يعزز مطالبنا

بضرورة تطبيق قانون حقوق الإنسان في المناطق التي تخضع للحصار. نستطيع استخدامه كدليل يبرهن على الإغلاق الشامل للقطاع. إنه يدعم ما نقوله بخصوص انتهاك مواثيق حقوق الإنسان.

قال الملتحي الذي يجاورهم:

- ها!

اعترف أخيرا باستراق السمع.

- أتظنون حقا أن هذا سيغير شيئا؟

اتسعت عينا خليل دهشة وكأنهما ستقفزان من محجريهما. فتطبيق القوانين الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، وقانون الإغاثة الإنسانية في المناطق الواقعة تحت الحصار، كان شغله الشاغل.

- سمعت ما قلته ولا شك في أنّ عملكم خيّر ونواياكم طيبة، لكن كل ما تفعلونه هو أنكم تلعبون لعبتهم. عملكم يوفر فرص عمل لبعض الأوروبيين المتعاطفين مع قضيتنا، ويساعدهم في الوقت نفسه على إراحة ضمائرهم قليلا. إذا أردتم حقا المساهمة في تغيير الوضع فعليكم أنْ تدركوا بأنكم تسيرون على الدرب الخاطئ.

انتبه خليل وإيمان وكل من في المقهى. شعر رشيد أنّ خليلاً أعجب بعبارة: توفير فرص عمل لبعض الأوروبيين المتعاطفين مع قضيتنا، فقد سمع خليل من قبل يقول شيئا من هذا القبيل.

أردف الرجل بالقول:

- لا يتوفر لنا قسط كافٍ من التأييد العالمي، كما أنه ليس لدينا متسع من الوقت.

رغم توجيهه الحديث إلى خليل بدا كأنه يتحدث فقط إلى إيمان. أطفأت سيجارتها. اعتدلت في جلستها، كأنها على أهبة تسجيل ملاحظات مهمة.

قال الرجل مسددا سبابته نحو خليل:

- أنت.

اخترت أنْ تسلك طريق القانون، وهو بالطبع طريق أخلاقي ومحمود. لكن ماذا ننتظر منه؟ أنْ يتحول اليهود عن ديانتهم ويصبحوا مثلنا؟ أنْ تطبق المواثيق الدولية؟ لو سعيت وراء تطبيق شرائع حمورابي ربما ستحقق نتيجة أفضل. ليس لتلك المواثيق من معنى إنْ لم تتحسن أوضاعنا. سيظل الموت يحصد زهراتنا ورجالنا البواسل قبل أنْ تطبق تلك القوانين الدولية. إننا لا نحاول هنا تأديب أطفال مدللين في إحدى المدارس الخاصة. ثم تقول لي إنها دولية، هل هي حقا كذلك؟ هل استشير مختار قرية جدك أو ممثلون عنه في الأمر؟ كلا! إنها يا صديقي قوانين لم توضع إلا لتبرير الحروب والأطماع الإمبريالية. إنها قوانين المحتل، هو من اخترعها وهو من ينتفع بها. حسبما يرغب ووقت ما يشاء.

حملق الرجل بشدة في إيمان. كانت كالصنم فوق كرسيها.

- من الضروري لنا...

استهل خليل رده. بلع ريقه. مال برأسه لكي يؤكد كل كلمة يقولها:

- لا بد لنا أنْ نؤمن بإمكانية تغيير الحكومات الغربية لموقفها من الصراع. ومن المهم جدا أنْ نتواصل معها ونطلعها على ظروفنا. يتحتم علينا توثيق انتهاكات المحتل. إنه...

لكن يبدو أنّ الرجل كان على دراية بتلك الحجج.

- إنْ كنت تريد فعلا تغيير الوضع فدعني أسألك هذا السؤال: ما الذي سيجبرك على تعديل موقفك من وضع تكون فيه صاحب

اليد العليا؟ هل لأنّ هناك ما يشعرك بتأنيب الضمير مثلا؟ أم لأنك صرت تتكبد خسارات مالية بسببه؟ أو أنك تخاف من احتمالات إصابة أحبائك بمكروه أو تعرضهم للموت؟ السببان الأخيران ليس إلا يا صديقي، هما كلّ ما في حوزتنا لكي نغير الوضع، لكي نوقفهم عند حدهم.

نظر إلى الجميع. حنى رأسه أمام إيمان ثم انصرف. خروجه ترك فراغا في المقهى.

دخل صبي الجزرة. يبدو أنه باع بضاعته.

تمتمت إيمان وهي تزيح المنديل عن رأسها:

- أنا رايحة.

خلافا لتوقعاته، لاحظ رشيد أن شقيقته تبدو في حال أسوأ مما كانت عليه عند وصولها.

سألها رشيد:

- إلى أين؟ تروحين إلى أين؟

- يتوجب عليّ القيام بأمر. لا بد لي من فعل شيء.

اندفعت إيمان إلى الخارج. شق صبي الجزرة طريقه إلى زاوية المقهى. توجه إلى صاحب المحل. طلبه فاق ما التهمه المقاتلون مجتمعين.

سأله صاحب المحل:

- أين حذاؤك؟

- هل أصبحت برجوازيا الآن؟ الطعام قبل الحذاء.

راق التعبير للمقاتلين، فراحوا يرددونه فيما بينهم. ساندوا الصبي، فأعلن صاحب المحل استسلامه. حشا الصبي فمه بالطعام

عدة مرات. رفع رأسه نحو الحضور المأخوذين بطريقة أكله. قال وفمه مليء بالخبز:

- إنهم يستعملون ذلك الغاز ثانية.

سأله المقاتل صاحب الشارب الستاليني.

- أي غاز تقصد؟

- ذلك الغاز الذي لا اسم له، رائحته زكية تشبه النعناع لكن عندما تستنشقه يجعلك هكذا.

حرك الصبي رجليه ويديه بتشنج عنيف. طرح رأسه جانبا. سقطت لقمة خبز من فمه. دفع بها إلى جوفه. استأنف التهام الطعام.

دبت الحياة من جديد في خليل:

- أين حصل هذا؟ كيف عرفت، متى، أين وكم؟

- ليلة أمس، على أطراف مخيم الشاطئ. يقال إنّ بعض عبوات الغاز سقطت أيضا فوق بئر السلطان.

أصبح فمه وشفتاه الآن مدهونين بالحمص. ذبابة رشيد تلبّست الصبي. حومت مرتين فوق خبزه. سحقها بضربة من يسراه وواصل الأكل بيمناه.

قال خليل:

- ضرب بالغاز، غير معقول!

هزّ رشيد كتفيه بلا مبالاة، قال:

- لقد فعلوها من قبل.

- هذا ما كان ينقصنا! هذا الأمر وذاك الحمساويّ يجعلانني أشعر وكأنني مجرد ربة منزل حادة المزاج، عاجزة عن التفكير

إلا فيما يمكنها السيطرة عليه. لا تستطيع منع زوجها من خيانتها، فتصرف طاقتها في إحكام سدادة أنبوب معجون الأسنان. ما نوع الرصاص الذي استخدم؟ كم طول الأسلاك الشائكة التي نصبوها؟ ما نوع الغاز المستخدم؟ فليذهب إلى الجحيم! هل هو على حق؟ ليس هناك من أي معنى لما نقوم به؟ هل الحمار ودلو الماء أعظم نفعا منا؟

شعر خليل بوطأة زلته تلك على رشيد. تفحصه واعتدل في جلسته ثم قال:

- يجب أن نذهب لتفقد المركز.

- طبعا، طبعا. لكن علينا أن نسلك طريق الشاطئ إذا كانت جميع الطرق الأخرى مغلقة.

قال الصبي متباهيا بخبرته ومعرفته:

- إنها غير مغلقة. إنها محفّرة ومجرّفة بالكامل. الجرافات تنتشر في كل مكان وصولا إلى الشاطئ.

راح يدندن بأغنية عن البحر. ذرات الزعتر الأخضر تتناثر من فمه في الهواء.

أعطى صاحب المقهى الفاتورة إلى رشيد. كانت تشمل ثمن كوب الشاي الذي احتساه الملتحي من آل سيف الدين. احتج رشيد:

- كلا، لم يكن برفقتنا!

- لكنه رجل متدين.

- هذا لا يعني أنّ عليّ تسديد ثمن ما شربه من شاي، أليس كذلك؟

حاول رشيد أن يجادل في الأمر. لم تكن النقود هي ما يهمه،

لكنه لم يرغب أنْ يراه الآخرون يسدد ثمن شاي سيف الدين، فيظنون به الظنون.

- حسنا سأدفع عنه ولكني سأدفع عن الصبي أيضا، وبهذا لا أكون قد أسديت معروفا خاصا بأحد أو أي شيء، اتفقنا؟

قال الصبي بفرنسية ركيكة:

- بون بيتيت.

مدّ رجله على الكرسي المقابل. واصل قضم رغيف خبز.

رشيد راقب الصبي باستغراب. كيف يمكن لمن كان في حجمه أنْ يأكل ما أكله، وبمثل تلك السرعة القياسية! فجأة لمح، عبر نافذة المقهى، أبا عمر للمرة الثالثة في ذلك النهار يهرول مسرعًا. هرولته تثير الدهشة خاصة لمن كان في مثل كسله. تتبع رشيد جارهم بالنظر. وقف المقاتلون في وقت واحد، فحجبوا النافذة. تدافعوا في خروجهم من الباب. لاحظ رشيد في تلك اللحظة فقط أنّ قائدهم، صاحب السترة الخضراء، كان قد غادر المقهى قبلهم.

الأمل، أجل إنه الأمل! أدرك رشيد عندما رحل المقاتلون بأن ما شعر به هو الأمل. هذا هو ما أثاره في نفسه ذلك القائد لحظة أن رآه لدى دخوله إلى المقهى. انتابه الخجل من أن يكون وقع في تلك المصيدة التقليدية، فكثيرا ما كان عقد الأمل على القادة وراء كثير من مصائبهم.

الفصل العاشر

في المقهى كانت وكأنها تقف في زقاق ضيق. تقابلها سيارة جيب وتسلط ضوء مصباحيها الأماميين في عينيها، دون أنْ تبارح المكان. عرفت من يكون ذلك الرجل من آل سيف. أدركت مغزى وجوده في السندباد. لكن الطنين في أذنيها لم ينبعث إلا عندما بدأ يحملق فيها. جرى الاتصال بها إذًا، وصدقت منار في كلامها.

كان الجو لا يحتمل في السندباد. سيف الدين من جهة، وذلك المقاتل من الجهة الأخرى، في نفس المكان والزمان. صادفته مرتين في ذلك النهار، المقاتل بسترته الخضراء، لا بد وأنه يتتبع أمرا ما. عندما تنحنح خليل للرد على سيف الدين كادت أنْ تركل رجله تحت الطاولة. تريده ألا يفعل، أنْ يظل صامتا. لكنها لم تأت بحركة، فعينا المقاتل كانتا لها بالمرصاد، تراقبانها دون انقطاع.

عندما تركت المقهى ظل يلازمها ولا يبارحها ذلك الطنين المزعج. لم يكن متواصلا، يحل في مكانه فراغ في أذنيها، يمتص كل ما يحيط بها من أصوات، ثم يطلقه دفعة واحدة في رأسها. لعل صخب المكان وازدحامه هما ما أثار انزعاجها: حملقة العيون فيها، ضجيج الكراسي على الأرض، الصدى، لغط المقاتلين، نبرة الخوف في صوت خليل، قدمه التي تهتزّ بعصبية تحت الطاولة، صرير الرمل

من تحتها، الدخان، عينا رشيد، بؤبؤاهما متضخمان، تسبح في بياضهما شعيرات مبقّعة بالدماء. لعله قلبها أيضا، انقبض مرة ثم ثانية ثم ثالثة. ظنت أنّ نوبة اضطرابه متعمدة. حاولت تهدئته، لكنه أبى. تضاعف قلقها. تعرف أنه إنْ واصل خفقانه بتلك السرعة الجنونية فإنه سيتوقف. رئتاها لم تكونا في حال أفضل، كأنها بلعت قطعة لبان، سدت حلقها، ولم يعد هناك ما يمكن أنْ تتنفس من خلاله.

خارج المقهى لم تشعر بتحسن. طنين أذنيها متواصل. وضعها مزرٍ وفي تدهور. رائحة الهواء عطنة. ازدحام آدمي كثيف، يفوح بروائح رعب ليلة القصف وهولها. ليس في وسعها أنْ تشعر بالهواء من فوقها، يسبقها من حولها إلى تنفسه بأسرع مما تستطيع. كم كان صعبا اللحاق بسيف الدين، ذلك الوسيط الذي أرسل للاتصال بها. رمت بنفسها بين الجموع. مناكب آدمية تحول بينها وبين وجهتها. عربات نقل صغيرة تصدم قصبتي ساقيها. عربات خضار تحدث رضوضا في رجليها. الشوارع مجرفة، محفرة، مغلقة، والأزقة تعجّ بأفواج من الناس.

صرخت امرأة صوب السماء حيث أشّر بعضهم نحو طائرة استطلاع بلا طيار:

- ماذا يريدون منا الآن؟ ألم يكتفوا بما فعلوه ليلة أمس؟ إنهم لا يشبعون أبدا، أبدا.

قرر البعض تغيير وجهتهم. أبصروا الطائرة الاستطلاعية، تسبقهم إلى الاتجاه نفسه الذي يقصدونه. استداروا. مشوا في الاتجاه الذي أتوا منه. خفّ الزحام قليلا. صار تتبّع سيف الدين أسهل. كان يمشي بهامة مرفوعة وسط رؤوس محنية.

إنّ هذا الفصيل يعمل بسرعة فائقة. منار قالت لها إنهم سيتصلون بها. بعد ساعات قليلة كان وسيطهم في انتظارها في السندباد، يخاطبها، يناقشها، ويقنعها بالحجج. ها هو الوسيط جاء. لقد قالت إنها جاهزة. أجل، إنها كذلك. ربما لم تكن كذلك فجر اليوم بعد الاجتماع. لكن هذا كان منذ وقت طويل، قبل أنْ ترى تغريد ورائد. تريد الاقتراب منه، إبلاغه بأنها جاهزة. هذا كل ما تريده.

ينبغي لخليل أنْ يعيد التفكير في قناعاته. ربما كان عمله هو ورشيد في المركز نافعا، لكنه لم يعد يناسبها. إنها الآن بحاجة للتحرك. هما لم يشاهدا جثتي تغريد ورائد محترقتين ومتفحمتين. قتل الأطفال يغيّر كل شيء. حركات المقاومة بدأت بمقتل الأطفال. ها هي الآن، لا يهمها انتماء حزبي أو فصائلي، لا تكترث لمواقف القادة وجماعاتهم من الاتفاقيات في الأعوام ١٩٧٣، ١٩٧٤، ١٩٩٤. هل هذا مهم؟ فليذهبوا إلى الجحيم. ما يهم هو الفعل لا القول، وهذا ما ستفعله. الجبهات الشعبية، الأجنحة العامة والقيادات الموحدة، اللعنة عليها أيضا. الصرع يحتاج إلى رد، إلى فعل. ليس من حل آخر.

لن تمكث في البيت وتضيع وقتها في صنع المخللات مثل أمها. رغم كثرة كلامها، ما الذي فعلته أمها حقا؟ تزوجت من والدها؟ والدها هو الآخر، رغم مجد أيامه السالفة، أين انتهى به الأمر؟ أليس إلى خارج هذا كله؟ يتملص منهم بإرسال حوالات مالية كل بضعة أشهر. استقر بعيدا عن هذا المكان، عن عائلته وعن السياسة، يعيش في الخليج. الخليج؟ أما رشيد فيعاني من عقدة نقص أمام الآخر، ينبطح أمام كل ما هو غربي. صبري حاول، لكن جهده الذي يصبه في إنجاز كتابه لن يأتيَ بطائل. العالم يعرف ما ارْتُكِب ويُرتَكَب

هنا. كما أن ما يفترضه رشيد من أهمية جمع الأدلة على الانتهاكات الجارية شيء بلا قيمة.

في نهاية المطاف، وكما قال سيف الدين، لا يمكن التعويل على الضمير أو على الشعور بالذنب. ضمير هؤلاء يموت وينعدم تجاه ما نعانيه من مآس. العنف يصبح مبررا عندما يعدّك الطرف الآخر بلا إنسانية، من الذي قالها؟ مانديلا أم بريخت؟ هذا كل ما في الأمر. لن يتوقعوا منها ما ستفعله، فهي تصرف وقتها في قراءة الشعر داخل حجرتها. لعلهم سيقولون إن عدم زواجها هو ما دفعها إلى ذلك. سيبحثون عن مبرر لإقدام فتاة غير متدينة على فعل ما ستفعله.

الكتلة البشرية المتراصة تدافعت نحو الميدان وانتشرت على أطرافه. سيف الدين أمامها، خطواته أكثر شبابا مما يوحي به عمره. بعدما خرجت من الزقاق، شعرت بأن ثمة من يتبعها، شخصًا ما يحاول ضبط سرعته، لتتوافق مع وتيرة مشيها في الزحام. لعله من جماعة سيف الدين. ليس لديها وقت لتتحقق من الأمر، وعليها مواصلة السير. كان واقفًا أمام تمثال طائر الفينيق، الذي نصبه القادة في الميدان، جسده الحجري لا يكاد يرى من كثرة التعليقات المكتوبة عليه بطلاء أحمر: عد إلى بيضتك التي جئت منها! اذهب وعانق الرماد!

كانت على وشك اللحاق به. هناك شخص خلفها. إنه يهرول الآن من ورائها. لو رفع سيف الدين نظره إليها في تلك اللحظة لرآها، لعرف أنها جاهزة. لماذا هناك من يتتبعها؟ كل ما تريده هو تحقيق الاتصال المبدئي، بعدها يمكنهما الحديث في مكان آخر. طائرات الاستطلاع اختفت الآن، لكن مروحية تقترب متجهة نحو الميدان. أشجار النخيل انحنت إلى أسفل، كأنها حزم من قصب،

أفسحت لها ممرا في السماء. رذاذ الماء تطاير من النافورة القذرة وسط الميدان. المشهد كأنه لقطة من أحد أفلام حرب فيتنام، غيمة من الغبار تتصاعد نحو السماء، تسرع في الهبوب على وجهها. المروحية أصبحت منخفضة، توشك على تمييز وجه أحدهم عبر النافذة الجانبية، بمحاذاة الريش المرسوم إلى جانب كلمة أباتشي. تمتمت بينها وبين نفسها: هل قدر لنا أن نحاصر فيما يشبه محميات الهنود الحمر، ثم نقتل بمروحيات تحمل اسم من قتلوا في تلك المحميات في أمريكا؟ السوق فَرَغ سريعا ممن فيه، هرولوا إلى الخلف نحو الأزقة، صوب الطرق الجانبية. لكن سيف الدين ظل يتقدم إلى الأمام، لا ينظر إلى أعلى، يسير بصورة متعرجة بين السيارات المركونة.

ثم وقعت الضربة خاطفة وعنيفة. وهج غطى صفحة الأفق. زوبعة من غبار ورماد، والأرض مادت تحت قدميها. صراخٌ طنّ في أذنيها، في عينيها وحلقها: قتلوه! مصطفى سيف الدين! أبو محمد! قتلوه! يدان فوق كتفيها وحول خصرها، سحبتاها إلى الخلف، جرتاها قبيل وقوع الضربة. اللهب كألسنة جهنم، حرارته لفحت وجهها. رائحة شعر محترق، تشبه الرائحة التي شمتها فجرا عندما أشعلت سيجارتها. عبير جسد زكيّ أيضا. توقف الطنين فجأة في أذنيها. هدير المحرك المزعج الذي يعاودها كلما فارقها منذ أنْ كانت في المقهى اختفى، تلاشى، وتبدد. حلّ في مكانه صوت منزلي مألوف، أزيز كهربائي ناعم يأتيها من مكان ما، من مكان بعيد، كما لو أنّ أحدهم ترك باب الثلاجة مفتوحا.

الفصل الحادي عشر

- اللعنة!

كال خليل ما في قريحته من شتائم للشاطئ المزدحم الذي ابتلع مفتاحه.

- لن نعثر عليه أبدا، يجب أن نعود إلى منزلي لجلب المفتاح الآخر.

راح يحك باطن حذائه بحافة الرصيف، يزيل ما تراكم عليه من كتل الرمل المبلول.

- أعتقد أنّ أمي ستكون هناك.

كانا يسلكان طريق الشاطئ وهما في طريقهما إلى المركز. الطريق يغصّ بجحافل عظيمة من الناس، كأن أهل المنطقة برمتها خرجوا من بيوتهم في آن واحد. سوادهم الأعظم يزحف شمالا. جموع غفيرة تندفع في الاتجاه المعاكس. اضطر هؤلاء إلى السير بمحاذاة البحر، أرجلهم تخوض في مائه، أطفالهم فوق أكتافهم، أكياس بلاستيكية ثقيلة تتدلى من أيديهم. أكتافهم تكاد تسقط من أماكنها، أصابع صغارهم تنزلق عن جباههم، تعمي عيونهم، يتعثرون ويشقون طريقهم بصعوبة. وسط الشاطئ المزدحم، حمير

تمشي وعربات تدفع. على طرفه، درجات هوائية، حملها أصحابها، جرجروها فوق الرمال.

إيمان كانت في حالة بالغة من التوتر في المقهى. رشيد لا يذكر آخر مرة رآها على تلك الحال. أراد اللحاق بها. كان ينوي أنْ يأخذها إلى البيت، لكن ما أنْ سدد ثمن الفاتورة، حتى كانت قد اختفت عن الأنظار. أحسْ أنها لا تريده بقربها. كان مصمما على قضاء مزيد من الوقت معها قبل سفره. ربما يتمكن في العشية من اصطحابها إلى سطح البيت، يتسامر معها لبعض الوقت. خليل يمكنه أنْ يتكلم معها، وهناك صبري طبعا. إيمان تقصد صبري طلبا للنصح، صبري يتجه بدوره لأمه، أما أمه فليست بحاجة أبدا إلى التماس مشورة أحد. لعلها خرجت من بطن أمها على هذه الشاكلة.

رائحة البحر، انبساط زرقته في المدى، ملوحة هوائه، أسراب نوارسه، تطير متكاتفة في سمائه. إحساسه بأنه جزء من هذه الحشود التي لم ينل القصف من تصميمها على الحياة، رفع من معنويات رشيد. صادف في طريقه إثنين من أصدقائه، لم يقابلهما منذ سنوات. ضحكا غير مصدقين، كم هو محظوظ! وغدٌ محظوظ! لحصوله على المنحة.

قال رشيد عندما انضما إلى الحشود المزدحمة في الطريق بعد خروجهما من السندباد:

- هناك شيء من الرومانسية في هذه الأجواء.

ردّ خليل دون أن يجازف ولو للحظة برفع عينيه عن موطئ قدميه:

- ليس هناك أيّ شيء من الرومانسية في أنْ تقصف، تجوع، تقهر، وتعيش كما لو كنت في العصور الوسطى.

لم يدم شعور رشيد برومانسية الشاطئ طويلا. اصطدمت رجله بقارب صيد مقلوب، انكشطت، طرفا سرواله ملتصقان برَبْلتي ساقيه، الجرح مكشوف. لسعه ملح البحر وما فيه من شظايا. حذاؤه يثقله الماء، أصابع قدميه تحتك بما يغطيها من رمل. خليل تعثر هو الآخر بكيس مدفون في الرمال. لم يكتشفا أنّ مفتاح المركز سقط من خليل أثناء عثرته إلا بعد أنْ وصلا إلى الرصيف.

- لا يمكن أنْ تعثر عليه هناك.

قال رشيد وهو ينظر إلى الحشود الزاحفة فوق الشاطئ، مستحيل.

المفتاح الآخر في بيت خليل. لم يكن أمامه من خيار غير الذهاب إلى هناك مع رفيقه. لا بدّ له من أنْ يجازف بأن تلتقي أمه برشيد. منذ قدومه إلى غزة للعيش فيها، لم يدع خليل رشيد إلى بيته إلا مرة واحدة. كان متأكدا حينها أنّ أمه في باريس ووالده في واشنطن. إنه لا يطيق سماع أحد يأتي على سيرة والديه، ناهيك عن مقابلتهما شخصيا. حاول خليل جهده أنْ ينأى بنفسه مكانيا وسياسيا عن عائلته.

حاول رشيد أنْ يخفف من قلق خليل:

- طبعا، طبعا، ما في مشكلة.

مشروع الإطلالة البحرية، حيث تسكن عائلة خليل، يشرف مباشرة على البحر. يتألف من بنايات رمادية فاتحة اللون تصطف على طول الشاطئ. خليل يعرف الكثير عن تمويل المشروع. ذات

مرة، وتحت تأثير الحشيش، باح بما يعرفه لرشيد. ندم على ذلك، لأنّ معظم ما قاله يورط والده في قضايا فساد من العيار الثقيل.

بدت بنايات الإطلالة البحرية وكأنها تحوم فوق الشاطئ. فكر في الانزلاق إلى عمق البحر والاضمحلال في أحشائه؛ إنها هادئة ونظيفة، مصاعدها غير معطلة، وفوق عتباتها مماسح أنيقة. تزين مداخلها أصص زهور ونباتات تلمع مثل المرايا. نظافة تدل على وجود خدم مستوردين.

لو أطلق رشيد لنفسه العنان، لشعر بالإهانة من تصميم خليل على إبقائه بعيدا عن عائلته. لم يكن بالغريب الذي لم يلتق أفراد الأسرة من قبل، بل كان يعرفهم. أواصر الصداقة جمعت عائلته وعائلة خليل أثناء وجودهما في بيروت وتونس وإسكندنافيا. لكن عندما بسطت القيادة الخارجية يدها بالسلام إلى عدوها، تفككت عرى الصداقة بين العائلتين، وأصبحت كل منهما عدوة للأخرى. دبّ الشقاق بين العائلتين في الوقت الذي انفصل فيه والداه وانهار زواجهما.

هرعت والدة خليل لكي تقبّل رشيدًا. فستانها حريري يتماوج من حولها، شعرها تعلوه خطوط من صبغ برتقالي اللون، حاجباها محددان بقلم الكحل، أسنانها الأمامية تلونت بشيء من أحمر شفاهها.

لم تلاحظ الحالة التي كان عليها خليل إلا بعد أنْ انتهت من الترحيب برشيد.

- انظر إلى هيئتك! ماذا جرى لقميصك؟ إنك وسخ للغاية، رائحتك لا تطاق. ما هذه الرائحة؟

- إنها رائحة الغاز. لقد ذهبت إلى الجنوب يا ماما.

- ذهبت إلى الجنوب؟ هل جننت؟ يوما ما ستعرض نفسك للهلاك. اذهب حالا واغتسل، لكن قبل أن تذهب، قف هنا. إنني لم أركما معا يا أولاد منذ زمن طويل..

جرّت الولدين إلى غرفة الجلوس، أوقفتهما جنبا إلى جنب. راحت تمتدح شكليهما، تقارنهما ببعضهما، تنفث دخان سيجارتها عاليا في الهواء، كأنها خياطة مستغرقة في عملها.

لمس رشيد شيئا من الهشاشة البالغة في أم خليل. بدت له وكأنها فقدت أعصابها للتو، تنشغل في صراع داخلي بينها وبين نفسها.

كانت امرأة تلقت أفضل تعليم مدرسي فرنسي. أعدت بعناية فائقة منذ نعومة أظفارها، لتحظى بالزواج من صفوة العائلات. تطهو، تحتفي بالضيوف على أكمل وجه، تعد حقائب السفر بشكل يحاكي ذوق البرجوازية الأوروبية، تتقن القيام بكلّ هذا إلى حدود الكمال. بذلت كل ما من شأنه أنْ يمهد طريق زوجها نحو النجاح. نظمت حفلات الاستقبال، تجملت وتأنقت، أنفقت وادخرت، كالت عبارات الإطراء والمجاملة. لكنها لم تجد من يعلمها كيف تواجه خيانات زوجها، كيف تتعامل مع ما يلحقها من إهانة جرّاء تكرر تلك الخيانات الدائم، كيف تتصرف مع ذيوع ذلك بين الناس. كان الجميع على علم بها، بدءا من النادلة الإسبانية في حمام المطعم، إلى الخادمة الإندونيسية التي تحرش بها في المطبخ وعلى مرأى منها. لم تتأقلم أبدا مع هذا الأمر. كل مغامرة من مغامراته كانت تصرعها، تطرحها أرضا.

قالت لدى وصولهما، عندما رأت رشيد:

- ما هذا! ما هذه القامة! لقد أصبحت فارع الطول!

لم يرها رشيد منذ عشر سنوات، وخليل لن يقدر على فعل شيء عند هجومها على صديقه.

- كم كنت عفريتا في صغرك! كنا نقول لأمك يكفيك يا جيهان أولاد، فهذا الصبي عن عشرة! أنت وسيم جدا. من أين لك كل هذه الوسامة؟ إنك أجمل من أمك وأبيك. منحة دراسية! حصلت على واحدة! لم تقل لي يا خليل، لماذا لم تخبرني؟ رائع! مبروك، يجب أن نشرب نخب ذلك.

أجلست رشيد إلى البار رغم اعتراضات خليل:

- ماما، إننا في طريقنا إلى المركز. لا يمكنه المرور من المخيم ورائحة الكحول تفوح منه.

خلفية زاوية المشرب في الغرفة تغطيها المرايا. تزينها زجاجات الويسكي، طواحين هواء خزفية، خنازير صغيرة من الكريستال. على الرف الأوسط تحفة من الصلصال على هيئة رجل يدخن غليونا.

- اذهب يا خليل، استحم وبدل ملابسك. سنحتسي كأسا وندردش.

انشغلت في مزج الكحول. أعدت كأسين من الكوكتيل، نادت الخادمة التي جلبت لها قطع الثلج وشرائح الليمون. قدمت الكأس لرشيد.

- أترى كم هي جميلة! إنها مدعاة للاحتفال، مبروك يا عزيزي. ماذا ستدرس أيها الولد الذكي؟

شربا كأسين ثم أتبعاهما بآخرين.

- والدك! آه لكثرة ما أعرف من قصص عن هذا الرجل. كنا

ذات مرة في باريس... كلا، كان هذا بعد عمليات الاغتيالات في روما قبل أنْ نغادر بيروت. أمك ليست من النوع الذي، أرجو ألا يخونني التعبير، يعرف الراحة والاسترخاء والتمتع بملاذ الحياة... سنوات ستوكهولم كانت الأجمل بالنسبة لنا. قل لي، هل ما زال عمك مع تلك المرأة؟

لم يكن هذا سوى توطئة لما كانت تريد قوله بالفعل. انتظرت إلى أنْ انتهى رشيد من كأسه الأول، أمسكت بذراعه على عجل.

- يجب أن تساعدني في إقناع خليل بأن يحذو حذوك. لا بد له من ترك هذا المكان، يقدم أوراقه ويحصل على منحة مثلك. إنه ولد ذكي، لكني أجهل ما يدور في رأسه. ذاك المركز؟ في المخيم؟ إنّ الأوضاع الآن تختلف عما كانت عليه. يمكن أنْ يتورط في المتاعب لأجل لا شيء، لا شيء.

- المركز يقوم بعمل مهم للغاية. الكثيرون، وبينهم صاحبتي ومنظمتها في لندن، يعوّلون على المعلومات والبيانات التي نوفرها لهم في الضغط على الحكومة البريطانية. إنها بالغة الأهمية بالنسبة لهم.

- أجل، أجل، ولكنك رأيت ما حدث ليلة أمس. سمعت ضربة أخرى قبل قليل. حقا ما الفائدة؟ هل تعتقد أنّ هؤلاء الناس يكترثون بنا؟ كلا. أرجوك قل لخليل إنه آن أوان الخروج من هنا. قل له أنْ يذهب معك إلى لندن. لديك صاحبة هناك؟ هذا رائع! أتفهم عليّ؟ في وسع خليل أنْ يجد صديقة هو الآخر، ثم تخرجون معا وتستمتعون بأوقاتكم. لا أدري ما الذي يريده من البقاء هنا، حقا لا أدري.

قال خليل بعد دخوله الغرفة:

- هيا لنذهب.

التقط حقيبته عن الطاولة المحاذية للنافذة. كانت الخادمة قد وضعتها هناك. لكن الكؤوس التي احتستها أمه شدّت من عزيمتها، فتشبثت بذراع ابنها بقوة.

- يجب أنْ تسافر مع صديقك، اخرج من هذا البلد.

عبر الشرفة المفتوحة، بدت بقعةٌ يتصاعد منها دخان، ليتبدد بعد ذلك فوق البحر.

- أجل يا ماما.

حملقت في وجهه. نسيم البحر يعبث بستائر الحرير الدمشقي الرقيقة، تهتز وتنتفخ.

- لا أعرف ما تريد، الاشتغال بالسياسة..

لوت حنكها وامتقع وجهها:

- سوف يجعلك تؤول إلى ما آل اليه والدك.

وقف خليل جامدا في مكانه. انتفخت الستارة من خلفه.

أمه تركت نفسها تتردى إلى درك سفلي. إنها تدرك ذلك.

آثر رشيد أن يتركهما لبعض الوقت. تشاغل في الحمام، تتبع بإصبعه أسماء المهدئات والمسكنات المرصوصة داخل خزانة صغيرة. لم يخرج إلا عندما قدّر بأنّ الأمور قد هدأت قليلا.

الفصل الثاني عشر

في السنة نفسها التي تعارفا فيها، تنافس صبري ولانا في الانتخابات الطلابية. ترشحت كمستقلة. مثلت، بصفتها هذه، صفوف المعارضة. عارضت حزب صبري، القيادة الخارجية، انطلاقا من محاربة الفساد. كما عارضت البديل الإسلامي لأنه يعمل على تعزيز التقاليد الاجتماعية المحافظة، ويتدخل في السلوك العام للأفراد. لم يتوقع أحد النجاح الذي أحرزته. تفوقت على حزب صبري بخمسة في المئة من تعداد الأصوات، وفازت على الإسلاميين بخمسة عشر في المئة. توقف أصدقاء صبري عن الضحك على حذائها. بدأوا يتفحصون المنشورات التي توزعها.

عندما حاول صبري إقناعها بالانضمام إلى حزبه، ألقت على مسامعه خطبة لاذعة، أثارت أعصابه وأفقدته رباطة جأشه. انتقدت بعنف استغلال القيادة الخارجية للسلطة والنفوذ، تلقيها تمويلات من الأنظمة الرجعية، تشويه الثوريين «الحقيقيين»، فشلها في فرض الانضباط بين صفوف مقاتليها. هاجمت المحسوبية بين صفوف الحزب ومحاباة الأقارب والأصدقاء. الفساد، ثم الفساد، ثم الفساد!

لم يعاود صبري المحاولة ثانية. حوّل جهوده في التقرب منها

وخطب ودّها نحو طريق أبسط. حاول الوصول إلى جسدها وغوايته، عن طريق إمتاع عقلها. رسم استراتيجيته حول هوسها بالتاريخ، ومحبتها للفولكلور. في تلك الأيام، لم يكن التنقل صعبا بين الأراضي الخاضعة لسيطرة العدو والأراضي التي كانت لهم ذات مرة. أخذها في رحلات لزيارة النوافير الإغريقية في الجولان المحتل، إلى الآثار الرومانية التي ما تزال تحت أنقاض القرى المدمرة، وإلى معابد الكنعانيين وبرك سليمان. في كل مكان يذهب إليه، يصطحبها إلى مقاهي الحكواتيين، يروون القصص الشعبية المتوارثة عبر الأجيال.

استراتيجيته تكللت بالنجاح.

وافقت لانا على الزواج من صبري بعد ليلة قضياها متلاصقين وسط حشد صغير، في الفناء الخلفي لمقهى في القدس. طيلة ساعات ثلاث، ظل الجميع ينصتون لحكواتي يقص عليهم سيرة الغول ذي العين الواحدة. كان المستمعون مسحورين بتفاصيل القصة، كأنهم في عالم آخر، يعلقون على كل جملة يقولها الحكواتي، يحتسون القهوة ويدخنون النارجيلة. تفحصها تحت الضوء الخافت وهي تنظر إلى الحشد الصغير، شعرها مصفف بالصورة التي يحبها. حلقات متموجة من الأمام، خصلات طويلة، تنسدل فوق ظهرها، حول تطريزات حمراء تعلو قبة قميصها. تفاجأ من خاطر ألمّ به. ربما يكون مجرد تأملها كافيا له، أنْ يراها على هذا الحال، من وقت لآخر. لكن، لا بد أنها شعرت بنظراته. استدارت نحوه، بدرت منها حركة، بدت مفتعلة وغير مقصودة في الوقت نفسه. دست قطعة بقلاوة بأصابعها في فمه، وكأنها فعلت ذلك مرات ومرات من قبل. عندها أدرك أنّ ما جال في خاطره، كان أغبى ما يمكن أنْ يكون قد فكّر فيه طوال حياته.

عارضت عائلتها زواجهما. تذرعت بمنبت صبري ودينه وانتمائه الحزبيّ. لم تجرؤ عائلتها على الجهر بعدم رضاها عن أصوله الفلاحية. يعرفون أنهم لو فعلوا، فإنها ستتمسك أكثر بمصاحبته والبقاء معه. لانا لم تكترث برفضهم.

تزوج صبري ولانا في فندق صغير في القدس. صورة وجهيهما، عكستها كاميرا فيديو على حائط تراقصت فوقه أشكال على هيئة قلوب حب. شعرُ لانا محشو بالدبابيس والورد الجوري، وجهها تكسوه طبقة سميكة من البودرة الناصعة مثل قناع الموت. همست في أذن صبري بعد أنْ زفّوها له. أجلسوها إلى جواره فوق الكوشة المخملية، يكاد لا يعثر عليها وسط ثوب العرس المنفوش. كل هذا عكس ما كانا يرغبان فيه. آنذاك، كانت حفلات الأعراس محظورة بسبب الانتفاضة. اقترحا حفلا بسيطا على الطريقة التقليدية: ثوب مطرز، حنّة، وفرقة دبكة لا أكثر. لم يريدا صالة أفراح، أو جرسونات بألسنة معسولة، ولا أغاني لبنانية ومصرية ساذجة تتغنى بحب ضائع وموت للقلوب. لكن عائلتيهما رفضتا رغبتهما المتواضعة أكثر من رفض الزواج نفسه. كانت معركة خاسرة.

قال صبري هامسا:

- أريدك أنْ تخلعيه، الآن.

أشارت إلى وجهها:

- ماذا تقصد؟ هذا؟ أردفت: أم هذا؟

جذبت صدر فستانها، فانكشف من نهديها ما أفقده صوابه.

بعد الحفل، انتقدت نسوة من عائلته ما ظهر على لانا من ارتياح خلال العرس. قلن إنه غير لائق؛ لأنه حريّ بالعروس أنْ تبدو عليها

إمارات الحياء والرهبة مما يحدث عادة في الليلة الأولى من الزواج. لانا لم تحفل بانزعاج أحد، كما أنها لم تبال بالصراخ على نسوة من عائلة صبري، تجمهرن تحت شباك غرفة نومهما لإطلاق الزغاريد.

سأل صبري إثر انسحاب النسوة:

- كنت أتصور أنك تحبين العادات والتقاليد، هه؟

أرنبة أنفه تلامس خدها، ركبته تستريح فوق باطن فخذها.

- أحبها كلها عدا تلك التي تقمع النساء وتحرمهن النوم.

استدارت ناحيته فتلامس أنفاهما.

همست: ومن لذات أخر.

ولد ناجي بعد تسعة أشهر. بدا متكدرا من كل ما يحيط به، كأنه ممتعض من الكون بأسره. مغصٌ شديد لازمه من لحظة ميلاده ولم يبارحه أبدا. تحولت حياة والديه من الانهماك بقضايا التحرر الوطني، إلى سعي دائب للعثور على شيء، أي شيء، ينهي أوجاعه. لم يهتديا إلى أطوار ثابتة لديه يكون فيها مرتاحا فيوفرا أجواءها له عندما يتعكر صفوه. في بعض الأيام، يهدأ ويستكين وهو يراقب أشعة الشمس تتسلل بين أوراق شجرة. في أيام أخر، يلمس بيده الرؤوس الحليقة للصبية من حوله، يكاغي فرحا وحبورا. حسب من عرفوه، كان طفلا متعبا وغريب الأطوار. والداه يقولان أحيانا إنّ ما ينقذه من نفاد صبرهم عليه، هو تلك النظرة التي يرميهم بها وهو يرضع، نظرة تشي بثقته المطلقة فيهم. يطبق بفمه على حلمة زجاجة الحليب ويناشدهما بعينيه لكي يتفهما صعوبة الأمر عليه. تتسع عيناه، يمسك الزجاجة بيد، يلتمس بالأخرى شيئا من الحنان. يدًا يمسكها ويلعب بها، أو جبينًا يمسده براحة يده.

مثل سائر الناس في غزة، كان صبري ولانا يعيشان الانتفاضة التي كانت في أوجها. اضطر صبري إلى الهروب والاختفاء في مناسبات عديدة. اختبأ في المخيمات لفترات طويلة. كان ذلك زمن تهريب الرسائل عبر الحدود في كبسولات يتم ابتلاعها وإخفاؤها مؤقتا في البطون. زمن مداهمات الجيش لإتلاف أجهزة الفاكس، نصب الرايات الوطنية المحظورة، الأناشيد والكتب المدرسية، صفوف مدرسية تنظم في بيوت خلف الستائر المغلقة، زرع الخضروات في الحدائق المنزلية تشجيعا للاكتفاء الذاتي، إتلاف المنتجات الإسرائيلية المقاطعة أمام الحشود المبتهجة. كانت الانتفاضة في ذروتها، في أيام عزها دون شك.

خلال تلك السنة الأولى من زواجهما، بادرت القيادة الخارجية، وبتأييد دولي، إلى إعلان الاستقلال. صبري، مثل كثيرين، كان واثقا من نجاح هذه الخطوة. موقفهم القانوني والأخلاقي، كما ظل يشدد على مسامع الآخرين، لا يمكن دحضه. كان صبري يطمئن نفسه: حتى لانا، كادت تعترف بأنها منسجمة مع موقف القيادة.

رد المحتل على إعلان الاستقلال كان متوقعًا وشديدًا. فرض حظرا شاملا للتجول وقطع كل خطوط الاتصال مع العالم الخارجي.

لكن صبري كان في حاجة إلى التواصل مع قادته لاطلاعهم على الأوضاع في الداخل. كان في أمسّ الحاجة إلى العثور على خط هاتفي غير مقطوع.

اقترحت عليه لانا:

- لم لا نجرب المستشفيات؟

- لن أستطيع عبور الطرق المغلقة، الجيش منتشر في كل مكان.

- أنا وناجي نذهب برفقتك، إنْ أوقفونا نقول لهم: إنّ ناجي مريض. أنا متأكدة أنّ الأطباء سيدعونك تجري المكالمة.

- ليس هذا ما يقلقني. كلا، لا أريدك أن تذهبي معي.

- ما الأمر؟ هل تريدنا أنْ نبقى في البيت؟ لعلك تريدني أنْ أبدأ بتعلم التطريز والخياطة أيضا؟

أخذ ناجي يبكي من صوتها العالي.

- الجيش متحفز جدا في هذه الأيام. لا أعتقد أنّ من الحكمة الإقدام على مجازفات لا داعي لها.

مد صبري إصبعه إلى فم ناجي ليتسلى الطفل بعضّه. سألته:

- أحقا تريد منا المكوث في البيت؟

- ليس هذا ما قصدته.

لم تنقض السنة الأولى على زواجهما، لكنه يشعر الآن بأنه بدأ يخفق في إخفاء حدة أعصابه عندما تستفزه لانا.

- هل لديك طريقة أخرى إذًا حتى تتمكن من الاتصال بهم؟ لا، لا توجد طريقة أخرى. كفّ عن المناكفة، سنذهب الليلة.

في الليلة الفائتة، نام ناجي ولم يصحُ طيلة الليل. قضيا وقتا لم يحظيا بمثله منذ وقت طويل. شعر طيلة النهار بنفسه في داخلها. أحاسيس الليل، ظلت تلفهما على مدار ساعات اليوم، أعادت شدهما إلى بعضهما البعض بقوة. لم يرد تبديد ذلك الإحساس. لا رغبة لديه في الاختلاف معها.

ظلت سيارة صبري مركونة خارج البيت زمنا طويلا. لم يكن متأكدا من أنه قادرٌ على تشغيل محركّها. اختيار ملابس ناجي استغرق وقتا طويلا. حاولا تخيل ما سيروق للجنود، على الحواجز العسكرية،

قرّ قرارهما على بذلة بحارة، جاءته هدية في يوم ميلاده. ظلا على تلك الحال من المناكفة لدى وصولهما إلى السيارة: هل هناك من إمكانية لتسخين زجاجات الحليب؟ أين الحفاظات النظيفة؟ هل يشعر ناجي بدفء كاف؟ أيهما أفضل، ناجي في كرسيه المثبت في المقعد الخلفي أم في حضن لانا في المقعد الأمامي؟ كانا يتهامسان، لأنّ ناجي نائم. قالت لانا إن من المقنع أكثر أنْ يكون الطفل في حجرها. وضع صبري ناجي في حضن أمه. رمى الحفاظات عند قدميها. أسند زجاجة الحليب إلى جانبها. وضع مصاصة ناجي، ملفوفة بورق بلاستيكي شفاف، في جيب السيارة. أغلق باب كرسي لانا. مشى أمام السيارة، ينتابه الضيق. رفع بصره فأبصر زوجته من الزجاج الأمامي، رأسها محني، تنظر في عيني ابنهما، شعرها ينسدل على كتفيها. هزه الفخر، إنهما له، زوجته وابنه، عائلته الصغيرة.

تبادلا نظرة أخيرة متسائلة: كل شيء على ما يرام؟ أدخل مفتاح التشغيل في مكانه، تعالى ضراط عظيم، صوت جريان فيضاني هائل. ناجي كان مصابًا بالإسهال. أيقظه ما جرى، أثار فيه حالة من السخط العارم. نظر صبري إلى ساعته. قالت لانا وهي تفتح باب السيارة: سأغير له حفاظته في البيت، أسهل من هنا. مالت بجانبها إلى الوراء لتتمكن من الخروج. توجهت مسرعةً نحو الباب، تحمل الصغير وبطّانيته بيد، وباليد الأخرى تبحث عن مفتاح البيت في جيبها الخلفي.

غابا لفترة بدت طويلة، سبع دقائق كاملة وصبري ينتظر. كان القمر بدرا في تلك الليلة، قرص برتقالي معلق بين البنايات مثل فانوس رمضان. صبري رأى نور غرفة نومه عند إشعاله. وصله

عويل ناجي من النافذة. ميز بصعوبة همهمات لانا، تحاول تهدئته. تواصل صوت البكاء عندما أطفئ النور. لم يتوقف البكاء إلا عندما وصلت لانا إلى السلم. رآهما صبري في مدخل البيت. لا بد أنه أدار مفتاح السيارة عندما أصبحا في الخارج، على عتبة البيت. لم يكن متأكدا أنه مجرد تخمين. لا يعرف ما جرى. لا قدرة له على التذكر. شيء أبيض قاطع، فصله عن الواقع، فلم يعودا هناك. الطبيب النفسي، الذي زار صبري في المستشفى، أعرب عن دهشته من تذكره لكل تلك التفاصيل. لكنه لم يكن واثقا من شيء. لو سأله أحدهم عن آخر ما يتذكره قبل الانفجار، لقال إنه كان مع لانا وناجي على السلم (في مقدوره أنْ يراهما بوضوح وهما ينزلان الدرج: ناجي يتدثر بملاءة عاجية اللون، فوق طرف منها أرنب مرسوم بالساتان يرتدي ربطة عنق، شعر الصغير ناعم متلبد، وبقعٌ من الصلع تكوّنت في قفا رأسه جراء النوم، وجهه تغطيه الدموع، عيناه مشدودتان إلى السيراميك الأزرق الذي يعلو بيت الجيران. أما لانا فشعرها الذي صففته بمجفف الشعر، مرفوع عن وجهها، مثبت وراء أذنيها، بقايا أحمر شفاه فوق شفتيها، يدها على ظهر ناجي.) لكنها، ورغم كل هذا الوضوح، صور متوهمة، من نسج خياله. يستحيل أنْ يكون قد رآهما على السلم، لأنه لم يكن برفقتهما، بل كان في السيارة.

فلتذهب الذاكرة إلى الجحيم! كانت تلعب معه لعبة قذرة. تنصب له الفخاخ، تقدم له سلة تفاح، فيمد يده باطمئنان. إنها مجرد سلة تفاح! يسحب تفاحة فيخرج في وجهه ثعبان!

الفصل الثالث عشر

بحركة خاطفة وقبيل لحظة على وقوع الضربة، شدّ المقاتل إيمان إلى الخلف فهوت على مؤخرتها. جذبها، أوقفها على ركبتيها، طوّق خاصرتها، جرها بعيدا عن أفواج من هرعوا نحو موقع الانفجار. بعيدا عن الأنظار، عبر بها إلى مبنى مهجور. كأنها تعرف المكان، أهي في مدخل فندق الأندلس القديم؟ ذاك الذي يعلو سطحه مطعم جميل؟ لكن كيف أصبح الفندق هنا؟ وما الذي يفعله المقاتل في هذا المكان؟ إنه يرتدي السترة الخضراء نفسها. كان يلبسها في الصباح. بندقيته ما زالت تتوسط صدره. لكن ملامحه مختلفة، حنق يعلو وجهه، شرر يتطاير من عينيه، ويبدو أنها هي السبب. لا أثر لما أبداه من كياسة في الصباح. غضب حلّ في مكانها. أحست به في الطريقة التي شدها بها، في الهيئة التي سحبها بها، في نظراته الممتلئة بالاحتقار. كم كرهت نفسها، عندما انتبهت إلى ما صدر منها في تلك اللحظة. لا شعوريا، ابتسمت له، حاولت امتصاص نقمته عليها. لكن ابتسامتها زادت من غضبه، إنه يكرهها يالتأكيد. سألها بحدة:

- من طلب منك أن تتبعيه؟ من؟ كيف وصلوا لك؟

قلبها ما زال يخفق بحدة، صوته يجلجل في رأسها، في صدرها

وحتى في أطراف أصابعها. رمل وغبار في فمها، خدوش أدمت يديها وركبتيها. لا أثر للباقته الرجولية في الصباح. ابتسمت له مثل حمقاء، تطلب منه الصفح والغفران. لسان حالها يقول: ما أنا إلا بنت مسكينة! لكن رده عليها كان قاطعا، واضحا وبلا لبس، حيلتها لم تنطل عليه. إنها ليست بنتا بل عاقلة راشدة، لم يخف كراهيته لها.

- يجب أن تقولي لي من الذي قال لك أنْ تتبعي ذلك الرجل؟

حاول الصراخ لكن صوته خانه: من الذي اتصل بك؟

ملامحه تشي بالقرف منها، شفتاه متيبستان، بدا غافلا عن أنْ يده ما زالت تقبض على ذراعها.

- ابعد يدك عني.

لا يبدو أنه سيستجيب، قرأت ذلك في هيئته. رغم رموشها المحترقة وطبقة الغبار الكثيف فوق وجهها، إلا أنها شعرت بأنها أفضل حالا منه. يتنفس بصعوبة، صدره يعلو ويهبط، كأنه مصاب بضيق في التنفس، يداه ترتعشان. دفعت بنفسها إلى الخلف. مضت بعيدا عنه. قبض على ذراعها من جديد. سحبها إلى داخل المبنى. شعرت بالزجاج المهشم تحت قدميها. كانا في مدخل الفندق، صدوع دائرية على الحيطان، زجاج باب الألمنيوم الملون لم يبق منه غير قطع تتعلق بإطار الباب المقفل بالسلاسل.

- أعرف ما كنت تحاولين القيام به. كنت تحاولين الاتصال بذلك الرجل، مصطفى سيف الدين.

صوته بالكاد يسمع وسط ضوضاء الذعر الضارب في الخارج.

- لم أكن أحاول فعل أي شيء.

استمدت القوة مما اشتمته فيه من ضعف.

- على كلّ حال، لا علاقة لك بما أقوم به.
سعل بسبب الغبار: بل لي علاقة بما تقومين به.
- اترك ذراعي، لن أحاول الفرار. يكفي.
سحبت نفسها بعيدا عنه. أفلت ذراعها. لم تتراجع إلى الخلف. لا تريد أنْ يراها أحد تقف هناك، مع رجل لا تعرفه، لا تربطها به صلة قرابة.

لا يعقل أنْ يكون على معرفة بتلك الفتاة، منار، ولا بما جرى بينهما من حديث. حتى لو كان في المقهى، يستحيل أنْ يكون قد رأى منار، لأنها لما تركتها، ذهبت في الاتجاه المعاكس من الطريق.

بدأ تنفسه يعود إلى طبيعته، لكن عينيه ظلتا متعبتين. رجع إلى زاوية المدخل، انسحقت علبة شراب معدنية تحت قدميه. رائحة البول طغت على ما سواها: على رائحة المطاط المحترق التي تفوح في الهواء، دخان الانفجار، روائح الأجسام المحتشدة في الخارج. ستة رجال يحملون حمّالة إسعاف برتقالية يركضون ويصرخون في الناس لإفساح الطريق. حاولت إيمان بصق ما في فمها من حبيبات رملية.

- إنهم يريدون تجنيدك...
كان أكثر هدوءًا الآن. حاول أنْ يتكلم بوضوح وبصوت مسموع:
- لأنك من العائلة التي تنتمين إليها ليس إلا. لا علاقة لشخصك أنت بالأمر، لا يهمهم إن كان ما ستفعلينه سيؤدي إلى تغيير في الوضع أم لا.
أرجعت إيمان كتفيها إلى الوراء:
- ما الذي تتكلم عنه؟

حقيبتها ما زالت هناك، حزامها مقطوع، ربما من سقوطها أرضا، أو من جرّه لها، التقطتها وضمتها إلى صدرها.

مدّ يده، وضعها على كتفها برفق، التمس منها النظر في عينيه:

- اسمعي.

حركته الرقيقة زادت خوفها منه.

- اصغي لي قليلا. أنا أعرف هؤلاء الناس وأعرف كيف يعملون. لقد اتصلوا بك. كنت أراقب ذلك الرجل الذي كنت تتبعينه، سيف الدين، وآخرين يعملون معه.

عصرت إيمان دماغها بحثا عن ردّ يدفعه عنها، يخلصها منه. شعرت أنه بدأ يحشرها في الزاوية.

- من أنت؟ أنا لم أرك من قبل. أما اليوم فصادفتك في كل مكان ذهبت إليه. إنك تتجسس على بيتي، تلاحقني في القهوة عندما كنت برفقة أخي، تتبعني في الشارع. قل لي من تكون؟

ناورت لكسب الجولة. بينما كانت تتكلم راحت تقنع نفسها بأنها بريئة تماما من أي شبهة. إنها مجرد فتاة تنشغل بأمورها، شخص ينبغي ألّا يكرهه أحد أو يوبخه. لكنه رفض أنْ يراها على هذا النحو.

أشار بيده نافيا:

- لست أنت من نراقبه قرب بيتك. هذا الأمر غير مهم الآن، ستعرفين فيما بعد ما أقوم به قرب بيتكم. أنا من السلطة من قوات الحرس الوطني. أؤكد لك أنّ هؤلاء الناس، جماعة سيف الدين، لا يحاولون تجنيدك في صفوفهم إلا لإضعافنا. يحاولون مهاجمتنا، لهذا، أجل، لي علاقة قوية بما تحاولين القيام به لأجلهم.

كان يتحدث على مهل، يزن كل كلمة قبل أن ينطقها.

- هذا شأن داخلي. إنهم يتصيدون أشخاصا مثلك، ينتمون إلى عائلات مثل عائلتك، معروفة بارتباطها التاريخي بحزبنا، لا لأنهم يعتقدون أنك فعلا قادرة على فعل شيء مهم، بل لأنهم يريدون استعراض قوتهم. وهذا يؤدي إلى الانقسام الداخلي.

تنهد وراجع ما قاله في عقله. كان يريد التأكد من أنها استوعبت ما يقول.

- هل رأيت كيف سوّغ العدو، العدو الذي يجب ألا تنسي من يكون، ما فعله ليلة البارحة بالهجوم الانتحاري الذي نفذته ابنةُ الحجّار؟ هل تريدين أنْ تكوني مثلها؟ مجرد بصقة تسمح لهم بفتح أبواب جهنم علينا؟

- بنت من؟

- ألم تسمعي الأخبار؟

- كلا، لم أسمع شيئا. كنت في اجتماع طيلة الليل، فقدت إحدى تلميذاتي الصغيرات وابن عمها الذي...

خطر في بالها تكتيك لئيم، قالت في نفسها: حسنا، تريد لعب لعبة المعاناة؟ سأسمعك قصص المعاناة إذًا.

- كان صديقا عزيزا، رأيت جثمانيهما المتفحمين. هذا ما رأيته وسمعته طيلة النهار، وليس الأخبار. جثتيهما ونحيب أقربائهم.

أرادت تسديد لطمة لهذا الرجل. ثمة شيء ما في طريقته التي جرها بها، ووقوفه أمامها مباعدا ما بين رجليه. إما أنه لا يهتم بها كامرأة، أو أنه عاشر ما يكفي من نساء ولم يعد يكترث إنْ كانت كذلك أم لا.

إنها لا تثق بأحد في السلطة، بل هي لا تثق بأحد على الإطلاق، لكنها مع ذلك وضعت ثقتها في منار.

نظراته طافحة بالاشمئزاز منها، سألها:

- من الذي أبلغك باللحاق بسيف الدين؟

كذّبت:

- لم يحاولوا تجنيدي.

حركت رأسها بحدة في اتجاهه، حاولت تبديد ما انتابها من شعور بأنه ضحك عليها، بأنها كانت مغفلة. شعور بدأ يسيطر عليها ويثير الألم في أحشائها.

هزّ كتفيه على نحو كأنه يقول: حسنا، ما تقولينه ليس صحيحا. كانت خيبة أمله واضحة، لكن الأمر، وعلى نحو ما، بدا شخصيًا كذلك.

- أحيانا يا آنسة إيمان تكتشفين أنّ الامتناع عن قول شيء، حين تكونين على علم به، أمر لا يقل في ضرره عن ارتكاب الخطأ نفسه.

لم تكن تود النظر إليه لكنها فعلت، لا تريده أنّ يظن بانها خائفة. أمسك بذراعها كما لو كان صديقا أو رفيقا، فشعرت بالخوف. قميصه مفتوح من الأعلى، صدره مشدود، مثل قضبان حديدية.

- كان يمكن أن تُقتَلي. لم ينته الأمر بالصورة التي كانوا يريدونها، لكنهم لن يعتبروا أنّ ما حدث هو نهاية مخططاتهم الخاصة بك.

لم يتوقع منها ردا. وحتى لو توقع، فإنه لم يبد اهتماما بالإنصات إلى ما كان يمكن أنْ تقوله.

هز رأسه قائلًا:

- عليك أنْ تخرجي من هنا.

- أخرج من أين؟ ماذا تقول؟

- لا بد أنْ تخرجي من غزة، تسافري لبضعة أشهر على الأقل.

انتبهت كيف أصبح يتحدث بسلاسة بعد أنْ استعاد هدوءه. عيناه بدتا أفضل حالا، لكنهما مع ذلك ساهمتان. كان لا يزال على حماسه لحملها على الفهم.

- اخرجي من هنا، أتفهمين؟ سيصبح الأمر بالنسبة لهم مسألة كرامة، سيسعون بكل ما يستطيعون حتى يصلوا إليك ويحملوك على فعل ما يشتهون. لا تفعلي هذا. إنها تضحية عقيمة وبلا فائدة. أي شيء تنفذينه لأجلهم لن يلحق ضررا بالعدو، العدو الحقيقي، بل سيحقق لحزبهم مزيدا من الشعبية.

مرّت سيارة إسعاف صغيرة، أرغمت إيمان على إراحة نفسها من عبء الرد. تردد صدى أصوات عالية تطلب من الحشود الانسحاب إلى الوراء. لم يعد في مقدورها أنْ تتذكر الأسباب التي حملتها على تتبع سيف الدين، تبددت كلها من ذهنها. كانت تود البكاء. لبرهة من الوقت بدا لها أن هناك غرضًا من وراء هذا كله وأنَّ لها دورًا تؤديه فيه. لم تستطع البكاء، وحتى لو استطاعت فلن تفعل في حضوره. ركزت إيمان على إعلان داخل إطار معدني معلق فوق الحائط. رجل ضخم الأنف يدخن النرجيلة أمام أطباق من المزة، على الطرف طيور طنانة تحمل زهورا في مناقيرها، تطير حول قائمة بأسماء أطباق الطعام.

- لماذا أثق بكل ما تقول؟ أنت لا تعني لي شيئا. إنني لا أعرف من تكون، سواء كنت من الحرس الوطني أم لا.

- أنا زياد.

أرخى الرجل ذراعيه إلى جنبيه. نبرة صوته يشوبها شيء من الحزن:

- زياد الأيوبي.

ردت على الفور وكأنه تحداها بالإفصاح عن اسمه:

- إيمان مجاهد.

- آنسة إيمان، أعرف من تكونين. أنا أطلب منك بعد كل ما شرحته لك الآن أن تغادري غزة. لكن إنْ لم تنصتي إلى ما قلت، وأخشى أنك لن تفعلي، فإني سأحملك على المغادرة شئت أم أبيت.

- تحملني على الخروج من هنا؟ لا تستطيع فعل ذلك. من تظن نفسك؟

كان يعاملها كما لو كان وجودها في غزة بلا لزوم، بل أسوأ من هذا، كما لو أنها شيء قابل للتصدير.

- والدك كان يعمل معنا، من السهل علينا الاتصال به لنطلب منه أنْ يخرجك من هنا.

- لن تجرؤ على فعل هذا! لا يحق لك التدخل في شؤون حياتي وكأنني طفلة صغيرة! لدي وظيفة هنا، هل تفهم؟ عائلتي تعيش هنا، أمي وشقيقاي.

لكنه الآن عاد الى التكلم بصفته الرسمية. فوجئت بالسرعة التي نحاها جانبا عنه.

- اذهبي مع شقيقك إلى إنجلترا، أو سافري عند والدك في الخليج. لا يهمني أين تذهبين. أتمنى أنْ تفعلي ذلك من تلقاء نفسك وألا تجبريني على الاتصال بوالدك. لكن يبدو أنك سترغمينني على ذلك.

لم يؤثر فيه الشرر الذي يتطاير من عينيها. حسم القرار ومشاعرها حياله لا تقدم ولا تؤخر في الأمر شيئا، لم يكن أمامه من خيار آخر، ولا هي كذلك.

قال وهو يمسك بذراعها:

- سأرافقك.

كانت تتهيأ للخروج، نبرته كانت حيادية، لكنها وشت أيضا بحرص على توفير حماية كان بودها أنْ تقبل بها. شعرت بأنه قادر وبذراع واحدة، على حملها بعيدا عن كل ما يدب من فوضى مأساوية في الخارج.

- لا لن تذهب معي.

كان عليها أنْ تقول ذلك، مع أنها لا تتمنى أنْ يترك لها حرية اختيار الوجهة التي ستمضي إليها. لا تريده أنْ يعتقد أنَّ في وسعه أنْ يملي عليها ذلك أيضا.

- نعم، سأذهب، ولكن لأمر لا يخصك. سأسير وستتبعينني إلى بيتك. لدي مهمة هناك وقد تأخرت. لهذا ستتبعينني، مفهوم؟

أخذ نفسا عميقا وخطا خطوة واحدة خارج الباب. في تلك اللحظة مر من أمامهما ثلاثة رجال يركضون، يحملون مصابة ما تزال على قيد الحياة. كانت تصرخ من منظر الدماء التي تلطخ يديها. حاسرة الرأس، حافية القدمين، فردتا صندلها تتدليان من أصابع قدميها. سارع زياد بالتراجع إلى الخلف، ارتطمت إيمان التي كانت وراءه بمقبضي الباب، تعثر، جاور عنقه وجهها، سقطت حبات من عرقه فوق جلدها.

صرخت به:

- ماذا دهاك؟

عندما استدار ليرى إنْ كانت بخير، كان عرقه يتصبب وأنفاسه متلاحقة. انعطف إلى زقاق صغير، بعيدا عن الحشود. سار بخطى واسعة، يتلفت بين الفينة والأخرى ليتأكد أنها ما تزال خلفه. لكنه أيضا لم يدع أي إشارة تفلت منه، تدلل على إنْ كان ذلك يهمه أم لا.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الرابع عشر

لا تبدو الأمور على ما يرام لرشيد. الطريق إلى مخيم اللاجئين، حيث يقع المركز، يغصّ بنذر الشؤم، لكن خليل يتصرف كأنه لا يراها.

ظل خليل يكرر محاولات الاتصال بجمال، لكنه لا يتلقى سوى تلك الرسالة الهاتفية التي تفيد بأنه غير موجود. جدران من الأسلاك الشائكة، لم تكن من قبل، تطوق المخيم. عند مدخله، رجل يجلس القرفصاء، ينظف أسنانه بطرف ظفره. إلى جانب الطريق، شاحنة محملة ببضائع حيوية، إسمنت أو طحين، حولها جمع صغير. معظم الدمار الذي يلفّ المكان حديث، الدخان يتصاعد من بنايتين، جدرانهما كأنها مصفاة مثقبة، وابل من الرصاص أطلق عليها. الأزقة تخلو من المارة على نحو غير طبيعي. ليس من بسط تعلو الجدران لنفضها مما عليها من غبار. اختفت حبال الغسيل التي ترسم على صفحة الأفق مثلثات طويلة. ليس هناك سوى الإسمنت، الشعارات المطلية على الجدران، والأرض الرملية.

مشى رشيد خلف خليل. حاول الالتصاق بالجدران ليتجنب مجارير المياه العادمة المكشوفة في وسط الطريق. حشائش برية تنبت

على الأطراف. رائحة حرق الفضلات تهبُّ بين الفينة والأخرى. كلّ البيوت متطابقة في هذا الشارع، غرفتان مع حمام ومطبخ. صناديق مربعة من الإسمنت، سقوفها من الصفيح، قطع من الطوب تثبتها في مكانها كي لا تطير، أرضياتها رملية، قليلٌ منها مبلط، أسلاك وكوابل، تتدلى على حيطانها. باب أحدها مشرع، حيطانه مطلية بتقليد واضح لمساجد غرناطة، فرشات رتبت على الأرض، تعلوها بسط فاتحة اللون. البلاط ممسوح، لم ينشف بعد، تعليقة نحاسية، نقوشها بدوية، ترتكز إلى حمالة خشبية. فتاة صغيرة تجلس فوق فرشة، ترسم، مدت لسانها لرشيد لدى مروره من أمام الباب.

بدأت أسئلة صعبة تنهب رأس رشيد من جديد، حول المكان والانتماء له ودوره فيه. راح يمشي ويفكر في جدوى مفاتحة خليل بالأمر. هل هو مدين حقا لوالدة خليل بإقناع ابنها بترك البلاد والسفر إلى الخارج؟ تخيل ما سينشب بينهما من شجار. لو طلب من خليل السفر، فسيقرأ صديقه في طلبه إما خيانة للقضية والوطن، أو مصلحة شخصية أنانية. أما بالنسبة له، فإنّ وجود خليل معه في لندن يحتمل وجهين. أولهما كم سيكون رائعا أنْ يكون برفقته صديق عزيز يخفف عنه غربته، وثانيهما أنه لا يريد حمل كل هذا معه إلى هناك. إذ إنّ الذهاب إلى لندن هو فرصته لتجديد نفسه. وهل هذا بالأمر السيء؟ أنْ يأخذ قسطا من الراحة من كل هذا لفترة من الوقت ثم يعود نشيطا متحمسا؟ فكر مرات ومرات في ردة فعل خليل، يبدو أنّ عليه أنْ يُقبِل أكثر على شرب الكوكتيلات الكحولية قبل زيارة المركز.

- خليل...

ما إنْ همّ رشيد بالحديث حتى نادى صديقه رجلًا يسير في اتجاههما. لم يكن منتبها لهما، ناداه خليل مرة أخرى.

توقف الرجل أخيرًا ومسّد لحيته بضع مرات. ثم قال:

- خليل الحلو، مرحبا. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- إننا في طريقنا لتفقد المركز.

قال بنبرة تنم عن صدمته بجهل خليل:

- ألم تصلك الأخبار؟

سأل خليل محاولا إخفاء ما ألمّ به من انزعاج وقلق:

- أي أخبار؟

أشاح الرجل بيديه قائلا:

- لا شيء، لا شيء. الله معك.

ردّ خليل ولكن الرجل مضى في حال سبيله.

- الله معك.

سأل رشيد آملا أنْ يجد في الجواب ما يمكنه من الطعن في صدقية الرجل واعتباره من مروجي الشائعات والأقاويل:

- من هذا؟

- أتعرف ذاك الصبي الذي يأتي إلى المركز المهووس بالحاسوب؟ الماهر بالقرصنة؟ هذا والده.

- متدين؟

- ومن ليس كذلك؟

تمتم رشيد:

- هذا ما تقوله إيمان.

جَمُدا في مكانهما ولم يتفوه أحدهما بكلمة. أصبحا أمام المركز ولم يعد ثمة ما يقال.

دمار يعمُّ كلَّ ما حوله؛ بنايات مهدمة، طلاء مرشوش في كل مكان، ثقوب الرصاص فوق الجدران. بوابة المركز نسفت

بالمتفجرات، بدا مدخله كباب مغارة تسده الأنقاض. قفزت قطة بشعرها المنفوش فوق السلم، ركضت خارج المبنى.

الوضع في الداخل أسوأ مما تخيلا. رائحة نتنة تزكم الأنوف والحرارة تفاقم من حدتها، التنفس كالأشغال الشاقة. اللوحة التي علقت عليها رسومات الأطفال، مرمية على الأرض وبراز آدمي فوقها. شاشات الحواسيب مهشمة، الأسلاك مقطعة، الأدراج أفرغت من الملفات، ألقيت أرضا. كلّ شيء في الغرفة رشّ بالطلاء، جرى التبوّل عليه، خربش فوقه. الوثائق كلها أخذت، أقراص الحواسيب اختفت. تفحص خليل الحواسيب من الخلف.

- أخذوا الأقراص الصلبة.

- جمال؟ اللعنة! لا بد وأنهم اعتقلوه. يجب أن نعرف إلى أين أخذوه، هذا ما يجب أنْ أفعله قبل أي شيء.

- لسنا متأكدين من ذلك. شعر رشيد بألم يعتصر صدره، لماذا يعتقلونه؟ إنه مجرد متطوع.

ركل خليل الحائط برجله.

- إنها غلطتي، كان عليّ أنْ أحمل المخاطر المحتملة محمل الجد. أنا متأكد من أنهم أخذوه، أشعر بذلك، إنها غلطتي. اللعنة! إنه مقبل على الزواج!

قرفص على الأرض، أسند ظهره إلى الحائط، ألقى برأسه بين ركبتيه. - اللعنة!

مشى رشيد صوب صديقه، شعره المربوط على هيئة ذيل الفرس لا يبدو سخيفا. ليس في خليل ما يمكن وصفه بالسخيف.

- دعنا نذهب إلى بيتي يا خليل، يجب أنْ نخبر صبري بالأمر. هو من سيدلنا على ما يمكننا القيام به لنهتدي إلى مكانه. هيا.

رفع خليل رأسه.

- رائد وجمال في نفس اليوم! الأول قتل والثاني اعتقل. والمركز؟ ثلاث سنوات من العمل، انظر إلى ما تبقى منه.

لكن شيئا لفت انتباه خليل، وقف، مشى إلى الطرف الآخر من الغرفة. ترك الجيش هناك رسالة قصيرة تقول: أتشعر باليأس الآن؟ مكتوبة بقلم أحمر غليظ فوق الحائط.

ضحك خليل عاليا من رسالة الجنود الذين دمروا المركز ثم قال:

- انظر، أتشعر باليأس الآن؟ عظيم، أليس كذلك؟

- عظيم! ماذا تقصد؟

توتر اجتاح رشيد، فالجنود قد يرجعون إلى المركز ويعتقلونه هو وخليل.

- عظيم يا صديقي لأنه إذا كان هذا المركز الصغير يزعجهم إلى هذه الدرجة، فهو إذًا يؤدي عملا مهما. يعني أنّ عملنا هنا يثير ضيقهم. وحتى لو كان عملنا مجرد عامل إزعاج لهم فهذا بحد ذاته أمر مهم. مجرد أنْ نثير أعصابهم، نوتّرهم، هذا...

خبط بكفه على الرسالة فوق الحائط.

- هذا انتصار.

تراجع إلى الخلف، ابتسم ثانية.

- سوف أضع إطارا حولها.

نظر سريعا إلى رشيد:

- أتعتقد أنْ في إمكان صبري حقا أنْ يساعدنا في العثور على جمال؟

كان يتكلم وهو يجول في الغرفة، يعيد تعليق ألواح على الحائط، يصف الكراسي. دخل إلى المطبخ وعاد بمكنسة.

- تريد البدء بالتنظيف الآن؟ ظننتك تريد الاهتداء إلى مكان جمال أولا؟ ألا تعتقد أنّ من الأنسب أن نغادر الآن؟

رائحة المكان التي لا تطاق بدأت تفعل فعلها في بطن رشيد.

- طبعا، بالتأكيد. إنّ ما أحدثوه من خراب هو خراب سطحي. يمكننا تنظيف وتوضيب المركز في وقت قصير. أما البيانات فإننا حفظنا نسخًا منها قبل شهر. طبعا سيصعب علينا تجهيز ما طلبته ليزا بسرعة. لكن الوضع ليس كارثيا. الحواسيب المكسرة سنستبدلها بأخرى من خلال المنح الخيرية. لا مدعاة للقلق، مجرد نكسة صغيرة، هذا كل ما في الأمر.

كنس خليل قطع الزجاج المحطم، جمعها في كومة صغيرة، في زاوية الغرفة. وضع رشيد يده على ظهر خليل وقال:

- هيا دعنا نذهب. اترك التنظيف الآن، إيمان ستأتي فيما بعد، سننظم فريقا من المتطوعين، نجلب قفازات ومواد تنظيف. أنت محق، الخراب سطحي، شيء من الطلاء ويعود كل شيء على ما كان عليه. لكن رائحة المكان لا تطاق الآن.

سعل رشيد.

- أدري، أدري يا رشيد.

ركل خليل علبة أقراص مدمجة كانت محطمة على الأرض.

- دعنا نذهب الآن ونسأل صبري كيف يمكننا مساعدة جمال.

غطى خليل النصف الأسفل من وجهه براحة يده، حاول سد أنفه حتى لا يشم الروائح المقززة. عيناه اللتان طالع بهما رشيد تشعان بمحبة لم يشعر رشيد بمثلها منذ زمن بعيد.

الفصل الخامس عشر

الخيمة الكبيرة في الخربة المحيطة ببيت مجاهد، برز من تحتها زوجان من الأقدام. قدما الرجل في حذاء مهترئ، يكاد يبكي مستجديا من فرط استخدامه، قدما المرأة عريضتان، يعلوهما جورب رجالي، يكشف عن لحم أبيض. تشابكت الأقدام، التفت من أسفل، عند الكاحل، في عناق.

هتف رشيد بينه وبين نفسه بلوعة، ذكّره بها مشهد الحب الذي يمارس تحت تلك الخيمة:

- ليزا!

سحب خليل رشيدًا إلى الوراء قبل أنْ يتعثر بوتد حديدي في الأرض:

- انتبه!

ثلة من المقاتلين تمشي صوب بوابة بيت رشيد. الرجل الطويل الذي كان في المقهى، ظنّ رشيد أنه يشبهه، قائدهم فيما يبدو، تجاوز المقاتل السمين، صاحب الشارب الغليظ، والوجه المغطى بالبثور، الذي روى معظم النكات في السندباد. يؤكد مظهرهم وهم يقتربون من بناية آل مجاهد على أنهم في مهمة، كأنهم سيدعون ملكية البناية.

قال رشيد، بينه وبين نفسه، بلا تحفظ: فليأخذوها، سأسافر، فليأخذوا البيت وماما وصبري.

حاول أنْ يقرر إنْ كان عليهم أنْ يأخذوا إيمان أم لا. لم يستطع أبدا أنْ يحدد في أيّ معسكر تقف.

قال خليل:

- انظر! إيمان معهم!

نظر رشيد نحو المقاتلين، رآها تمضي في أثرهم، تجرجر نفسها، لكن على مسافة واضحة منهم. لما اقترب منها، لاحظ قنوطًا في وجهها وارتعاشًا في جسدها. كأنها لم تر رشيد وخليل لدى وصولهما، وإنْ كانت رأتهما، لا يبدو أبدا أنها عرفتهما.

توجه مقاتلان إلى خلف البناية، طرق آخر باب جارهم أبي عمر. انتبه القائد إلى خليل ورشيد، أشار بيده:

- الزما الحائط!

التزم رشيد بالأمر لبرهة وجيزة ثم تقدم خطوات. فتح جارهم الباب، وجهه يجسّد الرعب، وجه رجل يراقب فيضانا يجتاح كل ما يملك. حنى أبو عمر كتفيه وظهره، لم يفتح فمه، ولم يستفسر عن أي شيء. جذبه المقاتل ذو الشارب الغليظ بقوة من عتبة بيته. لم يكن من داع فالرجل كان في طريقه للخروج على أية حال.

- أنت خالد مصطفى حية.

قرأ القائد الاسم الكامل لأبي عمر من ورقة ناوله أحدهم إياها.

- متهم بالتعاون مع العدو.

إيمان تقدمت، وقفت بقرب رشيد وخليل. فجأة شعر رشيد بها تتشبث بذراعه. سقط من يده كيس خضروات اشتراها وهو في طريقه إلى البيت. تدحرجت حبات الكوسا حول قدميه. فتح أبو عمر فمه،

لم يتكلم بشيء. ما زال في سرواله المكوي الذي كان يرتديه في الصباح. لكنه بلا قميص، قميصه الداخلي الأبيض، ممطوط، يعجز عن تغطية أسفل كرشه الذي تدلّى فوق حزامه.

ارتفعت البنادق، طوقت أبا عمر، انغرزت أظافر إيمان في لحم رشيد. وقف المقاتل ذو الشارب الغليظ قبالة أبي عمر، يكاد يلتصق به، لا بد أنهما يشمّان أنفاس بعضهما البعض. تقدم القائد وقال:

- ليس هنا، أحضروه معنا.

لكز المقاتل أبا عمر ثم أفسح المجال أمام الآخرين لشد وثاقه. علّقت على الباب ورقة الاتهام.

استدار القائد، واجه الحضور، قال:

- زياد الأيوبي من الحرس الوطني.

فتح باب بيت أبي عمر، اندفع طفل صغير. انتصبت البنادق في وجهه، صرخ: جدو! لكن أبا عمر لم يستدر ليواجه الصغير.

هرول رشيد أمام أبي عمر، دفع الصبي إلى عائلته التي يصطف أفرادها قرب الباب، مثل ملابس رخيصة فوق حبل غسيل. أغلق الباب عليهم.

سأل رشيد القائد:

- ما الذي اقترفه؟ ما الذي جناه يا سيد أيوبي؟

- أكثر مما تعتقد. لست مخولا بأنْ أقول أكثر من ذلك الآن، ولكن في حوزتنا أدلة...

قالت إيمان بحدة:

- أدلة!

- أدلة على أنه أدّى دورا مهما في الهجمات التي طالت أبناء المقاومة.

ألقى زياد نظرة متعالية خاطفة على إيمان.

- هجمات ضد المقاومة وضدنا.

حوّل بصره بعيدا نحو الخيام ثم رفعه في اتجاه الشقة العليا من البيت.

تساءل رشيد:

- ماذا عن عائلته؟ ماذا سيحلّ بها؟

- إذا كانت مرتبته عالية إلى حدّ كاف، وهو ما نظنه، فالأرجح أنهم سيستضيفون عائلته عندهم. أومأ برأسه باتجاه الحدود.

نظر رشيد إلى زياد ثم نحو السياج الحدودي:

- هم؟ أتقصد الإسرا... ، حقا؟

- أود أنْ أعتذر لكم عن أيّ إزعاج بدر من جانبنا. تشرفنا بمعرفتكم.

غمغم رشيد وخليل متفاجئين بنبرة الرجل الرسمية: تشرفنا.

ثم أشار زياد إلى رجاله ليتجهزوا.

- بالإذن.

انتظر إلى أنْ رفعت إيمان وجهها، أومأ برأسه لها قبل أنْ يحنيه متقدما رجاله وأبا عمر المعتقل.

لم يصدر من خلف باب شقة أبي عمر أيّ صوت. تخيلهم رشيد يقفون خلفه في صف واحد، كأنهم في انتظار التقاط صورة لهم، أو إطلاق النار عليهم. خلفهم فوق طاولة القهوة، رأى مناديل ورقية ترتعش بخفة من تيار الهواء الصادر عن مروحة في السقف، إلى جانب المناديل، أطباق كريستال، تمتلئ بحبات اللوز المغطاة بالسكر الملون.

الفصل السادس عشر

وأخيرا جاؤوا! شعر صبري بشيء من العزاء لما مرّ به في ذلك النهار. راقب المقاتلين وهم يقطعون الخربة في اتجاه بنايتهم. منذ بضعة أيام، وهو يدفع كرسيه عصرا نحو نافذة غرفة الجلوس وينتظر وصولهم. بيروقراطية! بيروقراطية! حتى في مثل هذه المسائل الخطيرة التي تمسّ الأمن الداخلي تتحرك السلطة ببطء. لا تغترّ بهيئة القائد زياد الأيوبي. قالوا لصبري عندما اتصل بهم البارحة حتى يسألهم لماذا لا يحركون ساكنًا، إنه أخطر مما يدلّ عليه مظهره. ها هو، زياد الأيوبي، ابنُ شهيدين من مثقفي الثورة، وأملُ الشعب، يسير الآن وسط الخربة ورجاله من خلفه، إيمان برفقتهم على ما يبدو. إيمان! لقد كانوا على حق. لا تظهر على هذا القائد هيبة تدلّ على صفته تلك. ثم من الجهة المقابلة، أتى رشيد برفقة صديقه خليل الحلو. كأنّ ما يجري عرض مدهش، دفع الجميع ثمن التذاكر ثم جاؤوا لحضوره. هيّا تجمعوا! حدّث صبري نفسه، تجمعوا لتشهدوا عملية القبض على العميل.

استبدّ به الحنق عندما غابوا جميعا عن نظره بوصولهم إلى أسفل البناية. ظلّ في مكانه مترقبا، ورغم أنه يدري أنّ العقاب لن ينفذ في

تلك اللحظة وفي هذا المكان، إلا أنه لم يتزحزح من قرب النافذة. أنصت بانتباه لكل ما يصله من أصوات، إنها صرخة؟ صرخة صبي. ليس الصبي الذي كان يأمل أنْ يكون، ليس وائل، الحفيد الأوسط. بقي منتظرا، منصتا، يتحرق لسماع دويّ طلق ناريّ.

- مسكناك يا مجرم! ها!

مرّ يومه على نحو سيّئ منذ الصباح. رائحة لانا عاودته، أثارت فيه حنينا إلى الماضي. خطر بباله قميصها، حفظه في كيس بلاستيكي، خبأه في خزانته. نبش كل شيء، أكوام من القمصان المكوية، انهالت فوق رأسه، عثر عليه. الكيس أصبح قديما جدا، مكتوب عليه اسم المحل ألعاب للتسلية، وقد أغلق أبوابه منذ سنوات. لم يكن الكيس محكم الإغلاق كما تركه آخر مرة. دفع كرسيه قليلا، اقترب من الحائط، أخرج القميص، حاول استنشاق ما فيه من عبيرها. لم تكن هناك سوى رائحة القطن والغبار. العثّ أجهز على بقعتين تعلوان صدره. وضعه في كيسه، نظر خارج النافذة، إلى بقايا الدخان في الأفق.

استشعر ما سيحلّ به الآن، ألمّ هذا به من قبل مرات ومرات.

سيفقد توازنه، سيترنح، وستطيح به الريح كما لو كان قاربًا شراعيًّا تحطمه أمواج عاتية.

اللعنة على شبح عبيرها الذي جاء ليفعل به ما يفعل.

أوراق بحثه تتوسط مكتبه. ينظر إليها، فتثير فيه حالة من السخط واللاجدوى. بات يرى الآن أنّ أطروحته خاطئة، وجهتها غير سديدة. كان أجدر به الكتابة عن «نحن» وليس «هم». لا كيف دمرونا، ولكن كيف تركنا أنفسنا نتدمر على أيديهم، كيف نوشك الآن على تدمير

أنفسنا بأنفسنا. وضع مثير للقرف والازدراء. لم يجرؤ أحد سواه على الإقرار بهذا، على الاعتراف به أو تقبله. هو، صبري مجاهد، يعرف الحقيقة. جيراننا تعاونوا معهم عندما اغتصبوا بلادنا في عام ١٩٤٨، نظامنا الإقطاعي الخسيس سمح بذلك. ثم أسهم أشقاؤنا العرب في ضياع ما تبقى من أرضنا في عام ١٩٦٧، رغم زعمهم بأنهم قاتلوا العدو. منذ ذلك الحين ونحن نضيّع فرصة تلو أخرى، نعاني من: دبلوماسية جبانة، قيادة فاسدة، عجز حتى عن القتال، انعدام الانضباط، حفنة رجال يتكالبون على قالب حلوى، كل منهم يريد شطرا منه، يتحرقون شوقا لارتداء بذلات رخيصة والجلوس إلى مكاتب تتوسطها لوحات تحمل أسماءهم.

ظل صبري أسير خواطره السوداء، حتى ألقي القبض على أبي عمر. عندما دخل عليه خليل ورشيد، كان مزاجه أفضل مما كان عليه طيلة النهار.

تردد خليل ورشيد قليلا لدى عبورهما الباب. صبري يجلس قبالتهما وطرفا ساقيه المبتورتين مشرعان في وجهيهما. اعترى الشابين لدى دخولهما الاضطراب، كأنهما دخلا عليه وهو عار من ملابسه. صبري يحب أنْ يراه الناس، حتى عائلته، جالسا خلف مكتب أو طاولة. يمدّ جسده إلى أسفل فوق كرسيه المتحرك فلا يظهر منه سوى ذراعيه. حينها يستطيع الجميع التظاهر بأنّ الكرسي غير موجود وأنّ رجليه في مكانهما. وزنه أيضا زاد قليلا خلال السنة الماضية. أسطح الطاولات والمكاتب تخفي عن الأعين ما بدأ يتراكم من لحم على بطنه. أشار لهما بالجلوس.

خليل لم يدخل إلى غرفته من قبل. راقبه صبري وهو يحوم

مرتبكا في المكان، ثم اتجه صوب مقعد مخملي. لم تكن قطع الأثاث في البيت تحمل ذكريات عزيزة على نفوس أصحابها. فالتعلق بالمقتنيات تُركَ للأشياء الصغيرة فقط. ما خفّ وزنه وسهل حمله. كأنَّ العائلة تحاول الإفلات من لصوص، أو الهرب من اجتياح أو حرب، من تصاعد سخونة أجواء سياسية، أو تزايد نشاط قتلة مأجورين.

الأشياء الصغيرة في الغرفة مجرد تذكارات. قرص خشبي محفور، فوق رقعته برج بيزا المائل. ساعة حائط يطلّ منها عصفور كل ساعة، يصيح كوكو... كوكو... اشترتها إيمان في جنيف، ادخرت مصروفها طيلة الصيف، وما زالت الساعة تعمل ولكن على هواها. مجسم حديدي لساعة بيغ بن يلتصق به باص أحمر، من مقتنيات رشيد. هناك أيضا وسائد مطرزة، صنعتها أم صبري، تعلوها صور من القرن الثامن عشر، فتيات فرنسيات يرتدين مشدات، تطلّ منها صدورهن العاجية. بقية الأثاث لعمة صبري، قطع غريبة الهوية عن المكان، صنعت في الشرق الأقصى، من خشب مضغوط وصمغ قوي.

تظاهر صبري باللامبالاة عندما أخبراه باعتقال أبي عمر. ثم بدأ يصغي لخليل صاحب البشرة المشربة بالاحمرار، ناعم! ناعم! يا لنعومة هذا الصبي! تمتم صبري بينه وبين نفسه. تحدث خليل، بنبرة مؤثرة، عما ينتابه ورشيد من خوف على مصير رفيقهما جمال بسيط. لو حصل هذا في أي يوم آخر، لتحرق صبري شوقا للحديث عن السجن، خاصة لمن لم يمض وقتا فيه. كان يحمل ذكريات عزيزة من المدة التي قضاها هناك، الصداقات الحميميّة بين أعضاء اللجان

التي شكلوها، المحاضرات التي ألقوها، حتى أنه كان يحبُّ شرح طرق التعذيب لمستمعيه إلى حدّ إثارة اشمئزازهم. لكنه ليس باليوم المناسب لسرد تلك الذكريات.

قال صبري:

- حاول كيفما تشاء.

- استعن بمحام إذا أردت، لكنهم إنْ قبضوا عليه فسيكون ذلك تحت طائلة الاعتقال الوقائي. هذا يعني أن المحامي سيكون عاجزا عن فعل أي شيء.

قال خليل وكأنه اكتشف أن صبري مغفل: أي شيء؟

ضحك بعصبية.

- أجل ليس في وسع المحامي فعل شيء، لأنهم تحت طائلة هذا الاعتقال ليسوا مضطرين إلى توجيه أي تهمة إلى صديقك. حينها ليس في وسع المحامي فعل أي شيء سوى القول: إنه لم يفعل شيئا. وربما يوافق القاضي فيقول: أجل، أنت محق. إنه لم يفعل شيئا. ما الذي يمكن فعله بعد ذلك؟ لا شيء.

دفع صبري كرسيه في مواجهة شاشة التلفاز التي تعلوها صور أجداد العائلة. جدّه لأمه يبتسم بزهو، يقف إلى جانب بيت عائلته في يافا، أما جده لأبيه فينظر بحدة إلى الكاميرا. استمر التلفاز في بث صور عربة الأطفال المقلوبة في المتنزه الإسرائيلي.

قال صبري:

- لا ذكر حتى الآن لقصف المستشفى. أمر مذهل.

قال خليل بنبرة فضحت ما يعتريه من نفاد صبر:

- حقا هو كذلك.

الطريقة الفاترة التي تحدث بها صبري إليه يعرف ما وراءها. إنه ابن رجل خائن ومنتفع ونذل من الدرجة الأولى. لا يراوده شك في أنّ صبري ينظر إليه على هذا النحو. لا يمكن أنْ يعامله الآخرون بصرف النظر عمن يكون والداه، بمن فيهم اليساريون. كلا، على الأخص هؤلاء اليساريون الملعونون. يؤكدون على المساواة بين البشر، لكنّ إلغاء الفوارق الطبقية عندهم يعني أنهم لا يهتمون بعوزك وفقرك، ولكن هل يشمل ذلك أيضا التغاضي عن أنْ يكون والدك نذلا سياسيا؟ أبدا، هؤلاء يؤمنون أنّ النذالة السياسية تورّث من جيل لآخر دون تبديل أو تحريف، كأنها كروموسوم إضافي.

سأل خليل بكبرياء:

- هل يمكن أنْ تكون علاقة جمال بالمركز سبب اعتقاله؟

ظهر على صبري الشعور بالملل:

- لا تكمن القضية هنا، إذ ليس مهمًّا إنْ كان قد فعل شيئا أم لا. إنه اعتقال وقائي يمكّنهم من الزعم أنه قد يفعل شيئا ما ذات يوم.

- وماذا لو حاولنا قضائيا نقض الأمر الصادر باعتقاله؟

- أمر الاعتقال قانوني بغض النظر عن تدني مرتبة الجهة التي أصدرته. عبء تقديم الأدلة يقع على كاهل صديقك ليبرهن على براءته.

- براءته من ماذا؟

رفع صبري راحتيه نحو سقف الغرفة:

- من يدري؟ هنا بيت القصيد. طالما أنّ قانون الاعتقال الوقائي لا يفرض على الجيش توجيه تهمة، فمن الصعب جدا إثبات براءته لأنّ أحدا لا يعرف براءته من ماذا.

ابتسم صبري بامتعاض. غبيّ! تمتم بينه وبين نفسه. يؤسس مركزا حقوقيا بكتيبات صقيلة وبطاقات تعريف مهنية ولا يعرف حتى آلية عمل الاعتقال الوقائي. سخيف!

لم يتكلم أحد لبرهة من الوقت. صبري يبتسم بشيء من التكلف وخليل يغلي من الغضب.

- كيف تسير أمور البحث معك؟

حاول رشيد أنْ يتجنب النظر إلى صبري، ليتفادى رؤية أطراف ساقيه المبتورتين. شكلهما الذي يشبه نهايات قطع النقانق كان يثير ارتباكه. أغلق النافذة فانطبقت بشدة. كان الهواء محملا بالغبار ورائحة روث الحيوانات، تنبعث من مزرعة مجاورة.

نظر صبري إلى خليل:

- على ما يرام. لكني عثرت على شيء مختلف يدفعني إلى تغيير مساره العام. قد يكون مهمًّا بالنسبة لك. إنه نص المحادثة التي جرت بين الجنود الذين أطلقوا النار على تلك الفتاة على مقربة من الحاجز العسكري في الأسبوع الماضي. النصّ الذي سرب ونشرته الصحافة.

قال خليل:

- أجل، أذكر..

بدا منشغلا بمحاولة هضم مفهوم الاعتقال الوقائي. سيستشير آخرين في الموضوع. لا يستطيع التصديق بأن الأمر اعتباطيّ إلى هذا الحد. تزعجه رغبة داخلية فيه، تلح عليه، يريد أن يحظى بالقبول من صبري.

- يقول الجنود المكلفون بالحراسة إنهم رأوا **شبحًا برجلين**

اثنتين على بعد مئة متر من النقطة الحدودية. فيرد الجنود المكلفون بالمراقبة بأنهم رأوا: بنتًا في العاشرة من العمر. لكن في تلك اللحظة كان المكلفون بالحراسة قد فتحوا نيران بنادقهم. الفتاة قتلت، إلى آخره، إلى آخره.

حرك صبري كرسيه مقابل رشيد الذي ما زال يقف عند النافذة. راح ينظر إليه من أعلى إلى أسفل.

قال رشيد:

- أتذكر هذه الحادثة؟ أنا متأكد أني سمعت بها من التلفاز أو من مصدر آخر.

- النقطة المثيرة للاهتمام هنا هي هذا التعبير «شبحٌ برجلين اثنتين» للتدليل على الإنسان. يبدو أنه تعبيرٌ متفقٌ عليه فيما بينهم، ذكرني بكلمة ألقاها رئيس وزرائهم، نعتنا فيها بالوحوش التي تمشي على رجلين. أظن أنّ في إمكاني أنْ أقدم أطروحة حول هذه الفكرة. إذا كان لك رجلان، فأنت إنسان. أفكر في أنْ أضيف إلى البحث بعدا يشبه ما طرحه الكاتب والفيلسوف «بريمو ليفي». أبني على فكرة الرجلين هذه لأثير سؤالا عاما حول من يكون الإنسان. أقصد ربطه بما قاله ليفي: هل هو إنسان ذاك الذي يكدح في الوحل؟ لا يعرف سلاما ويقاتل لأجل كسرة خبز؟ شيءٌ قريبٌ من هذا.

توقف، نظر إلى رشيد، ثم توجه صوب خليل مرة أخرى.

- ستنطلق أطروحتي من أنّ الاحتلال، وعبر سياساته من إغلاق وحصار، قطع سيقاننا، بتر أطرافنا وتركنا نزحف في الوحل. نحن كلنا في غزة بلا أرجل.

أرغم صبري رشيد على النظر في عينيه.

- هل تدركان ما أقول؟

هزّ الشابان رأسيهما بالإيجاب، لكن حركة رشيد لم تشِ بأي شعور بالحماس.

- ما رأيك؟

سأل صبري خليل بعد أن حدج رشيد بنظرة هازئة.

- حسنا، أعتقد أنها فكرة مهمة يا عمو. إنها فكرة مهمة...

تجنّب خليل النظر في عيني صبري، وكان يجد مشقة في الرد:

- أعني أن ليفي...

- في إمكانك أنْ تناولني الغطاء.

أشار صبري إلى غطاء على الكرسي،

- إنْ كان ذلك سيشعرك بالارتياح.

طنطنت رنات ساعة الحائط. اندفع عصفورها من كوخه، صاح مرتين كوكو، كوكو، رغم أنّ الوقت جاوز الخامسة مساء. خيّم الصمت على الجميع.

قال صبري:

- أوه! هلاّ فعلتما شيئا لأجلي؟ أرجوكما أنْ تجلبا لي التنويه الذي علقوه على باب أبي عمر. لقد علقوا ورقة هناك، أليس كذلك؟

- أجل، طبعا.

قفز خليل ورشيد من مطرحيهما، هبا نحو الباب، كأنهما طائران يسارعان إلى الهروب من قفص.

الجزء الثاني

في لندن

بعد شهرين

الفصل السابع عشر

ما يطلُّ عليه رشيد من نافذته مشهدٌ متعددُ القسمات. يكاد لا يترك شيئا من وجه المدينة: أشجار حور ضخمة تتراقص أشعة الشمس فوق أوراقها، أعمدة هواتف خشبية، بيوت فكتورية أكل الدهر عليها وشرب، مزاريب رمادية، بناية سكنية عالية تملكها البلدية لدعم رقيقي الحال، خطوط سكة الحديد تتلوى كأمعاء مكشوفة.

قلّب رشيد لقمة الخبز الإنجليزي المحمّص في فمه. لسانه سعى بلهفة إلى مصّ المربّى الغارق بين ثقوب الخبز الإسفنجية. بلعها وتلذذ بمذاقها السكريّ.

شاي ليزا بلا طعم، ماء آسن، تغير طعمه ولونه ورائحته.

استيقظ قبلها بقليل. عندما يرقد بلا تأثير من حشيش أو كحول يصحو عند بزوغ الفجر. لكنه حلّ هنا مبكرا، اقتطع قسطا من الليل. تغفو ليزا إلى جانبه في قميص نومها، تحتضن نهديها مقطّبةَ الجبين، وكأنها تحاول استعادتهما من قبضتي يديه.

ما إنْ استيقظت حتى فزّت من سريرها، هرعت إلى الحمام، استحمّت وارتدت ملابسها، توجهت إلى المطبخ المشترك في الممر، أحضرت له شايًا وخبزا إنجليزيا محمصا. كانت تهتم برعايته

وتدليله منذ زيارة بيت أهلها وما داهمه هناك من حلم مزعج يحاول نسيانه.

حاول جذب ليزا إلى السرير ليتحسس جسدها قبل أنْ تتركه وتخرج. شيء حاد في شعرها وخز طرف عينه. أصابعه علقت في أطراف أسلاك صدريتها. أظفر قدمه خدش جوربها اللحميّ. دفعته عنها. أعادت تهذيب شعرها، مشطته ومشطته، كأنها تؤدي طقسا عسكريا، سحبته داخل ربطة مطاطية مرتين، علا ثم هوى جذلا على هيئة ذيل فرس. ارتدت معطفها القصير، المنتفخ والمزين بأشكال ماسيّة. خرجت بعد أنْ تحزّمت وأعدت نفسها لمواجهة مهمات كبيرة. تمنطقت بحاسوب نقال يقبع هو الآخر داخل سترة واقية من الرصاص.

كان بيت ليزا دافئا ومريحا. ساعات الحائط تزين جدرانه، كلّ واحدة منها تصدر نغمًا مختلفًا، حركات والديها تنضبط على وقعها، كأنها تدور في معزل تام عن العالم الخارجي. ينطبق باب المدخل الخشبي أوتوماتيكيا، كليك! ثم يحكم إغلاقه يدويا بسلسلة حديدية جميلة المنظر. ظلَّ الباب على هذا الحال منذ وصول رشيد وليزا وحتى بعد مغادرتهما.

لم يقرع أبدا جرس الباب، ولم يرنّ الهاتف!

بقرب أهلها، لم تَبْدُ ليزا على طبيعتها. كانت كأنها سكرانة أو كمن تناول جرعاتٍ كبيرةً من الكافيين. تتكلم بعصبيّة، تتفوه بعبارات مصطنعة، تفتعل مشادّات كلاميّة لا تصل إلى نهاياتها، بل سرعان ما تتحول إلى ابتسامات متكلّفة، ضمّات اشتياق لوالدها في غرفة الجلوس، وعناق ودود لأمها في المطبخ.

- هل ستبدلين ثيابك لأجل تناول طعام الغذاء؟

سألتها أمها.

كانتا تقفان في ممر البيت، لحظة من التردد اعترتهما. بأي وجه ستتبادلان التحية؟ وهل يتوجب عليهما فعل ذلك أصلا؟ ليزا اختارت قبل المجيء إلى بيت أهلها أحد قمصان رشيد القطنية، ارتدته مع سروال من الجينز. زيّنت عنقها بكوفيّة مخططة بالأبيض والأسود، اشترياها معا من غزة.

- كلا، هل أنا مضطرة لذلك؟

- طبعا لا يا عزيزتي إنْ كنت غير راغبة بذلك. كنت أتساءل فحسب.

تركتهما أم ليزا وتوجهت إلى المطبخ، ظلا بصحبة والدها. وهو إذ يتكلمُ يميلُ إلى الإمام. يرتكز بجسمه على أطراف أصابعه، كأنّ ما سيقوله بالغ الأهمية.

- أترغب باحتساء شيء؟ كأس من الـ «جين وتونيك أو شيري»؟ ليزا لم تقل لي إنْ كنت، أعني... إلا إذا كنت بالطبع تريد مشروبا غير كحولي، أقصد في حال كنت ملتزما بالدين.

بعد هذه الإشارة، شبك والد ليزا أصابعه. ارتسم قلق على وجهه. خاف من رد فعل فظيع.

- أوه! كلا. إنه يحتسي أي مشروب.

لم يكن رشيد قد تكلم بعد. كان يتمنى بصمت لو أنه ارتدى شيئا آخر. لكنه لا يملك سوى سروال واحد للمناسبات الخاصة، مشكلته أنه فاقع اللون. ليزا ضحكت من السترة التي أهدتها له أم

خليل بمناسبة ذهابه إلى لندن. قالت له: «لا يمكنك أن ترتدي هذه الثياب. حقا يا رشيد! إنك تبدو كموظف في زيّ العمل الرسمي.» انتهى به الأمر إلى لبس ثياب مطابقة لما تلبسه ليزا. لكنه لم يكن مرتاحا. أما ليزا فبدت راضية كل الرضا عن مظهره في بيت والديها. كأنها جلبت إلى بيتها قطعة مجوهرات مبهرجة، التقطتها من محل لبيع الأشياء المستعملة، ثم اكتشفت في محيط بيتها الأنيق أنّ القطعة ازدادت جمالا، فراحت ترمقها بإعجاب شديد. عندما ترك والداها الغرفة، مالت عليه، قبلته، مصّت شفتيه، عيناها مفتوحتان، غائمتان بشهوة محمومة. أحسّ كأنها تقلّد نجمة شهيرة.

دارت كؤوس الخمر والـ«جين مع تونيك» في رأس رشيد. والد ليزا يهزّ رأسه رضا كلما تقبّل عرضه باحتساء كأس آخر. إلا أنّ رشيد في تلك اللحظة كان يرغب في الطعام أكثر من الكحول. لكن الطعام كان محروسًا، وبغيرة شديدة، من قبل سكين طويل شحذ مرات عدة فوق الطاولة، وشوكة تشبه الأظافر المعقوفة لساحرة شريرة. ظلت الشوكة والسكين تحولان كالسد المنيع بينه وبين اللحم والخضروات التي تتوسط المائدة. لم يشتَهِ الطعام لأنه لذيذ. على العكس كان بلا طعم كأنه وضع تحت صنبور ماء بارد. لكنه اشتهاه لأنه جائع. حصته التي قدمت له لا تسمن ولا تغني من جوع. كما أنّ ما احتساه من شراب زاده جوعًا.

- كيف ستؤثر الهجمات الأخيرة على أوضاعكم؟

سأل والد ليزا السؤال كأنه يأتي في سياق نقاش مطول عن الموضوع لا على نحو فجائي ودون أي مقدمات. عندما يتكلم والد ليزا يركز على شجرة صفصاف في نهاية الحديقة. أما عندما يستمع

فإنه يميل برأسه إلى كتفه مثل حارس يتلقى تعليمات من سماعة مثبتة في أذنه.

أجاب رشيد:

- كارثة! في البداية حظينا بقدر من التعاطف جراء ما حصل، لكن الآن لا يبدو أنّ أحدا يهتم بما يجري هناك. يحاولون ربطنا بهؤلاء المتطرفين وإقناع الجميع بأنّه لا فرق بيننا وبينهم مع أنه لا شأن لنا البتة بهم. لا يكترث أحد بمعرفة ما يحدث لنا. إنها كارثة.

أزاح والد ليزا إلى حافة طبقه كتلةً كثيفةً من الدهن كانت تلتف حول قطعة اللحم. لما نحّاها بطرف شوكته، احتضنت من الخلف كتلةً دهنيةً شبيهةً بها. تذكر رشيد تلك الوضعية في ممارسة الحب، مثلما تحتضن ملعقةٌ ما في داخلها، شرحتها له ليزا.

قال والد ليزا وهو يحملق في قطرات المطر التي تسقط على أغصان شجرة الصفصاف خارج الشباك الفرنسي:

- لاحظت هذا الأمر، أعرف كيف تسير الأمور على هذا النحو.

- حقا إنها كذلك.

بهذا التعليق ختم رشيد ووالد ليزا كلامهما في الموضوع. تحول الحديث إلى موضوعات متشعبة، سباق الزوارق المائية، عادات شقيقة ليزا السيئة في القيادة، تسويف العمال الذين يصلحون تدفئة البيت المركزية، الفأر في مرآب السيارة، العلاقة الغرامية لجارهم.

قالت ليزا وهي تحتضن ذراع رشيد بينما كانا يتمشيان فوق العشب بعد الغذاء:

- تغيّر والدي.. أمي تعتقد أن السبب هو خسارته المقبلة للبيت.

البلدية هي صاحبة الملكية وعندما يتقاعد والدي ينتقل للعيش هنا طبيب القرية الجديد. أمر مأساوي!

توقفت قرب كرسي خشبي رطب ينتصب أمامه سياج نباتي قصّ وشذب بعناية على هيئة إسفنجة عملاقة.

قالت وهي تقف إلى جانب رشيد كما لو كان طفلا يعلن عن حاجته للتبوّل:

- في إمكانك أن تدخن الآن..

نظر رشيد نحو البيت، بدا وكأنه يراقبهما بنوافذه اللامعة:

- لم أجلب سجائري معي.

قطبت ليزا حاجبيها وقالت:

- أتدري؟ لقد ولدت هنا. والدي أشرف بنفسه على ولادتي أنا وأختي.

جلسا يتأملان عشب الحديقة الذي جزّ بخطوط متعامدة، وظهر تحت الأشعة المتلصصة من وراء الغيوم والأشجار كرقعة شطرنج، مربعاتها داكنة لونها أخضر فاتح. بدا البيت مثل رجل يرتدي ملابس امرأة، القشُّ يعلو سطحه المدبب، يميل فوقه كقبعة نسائية، شجيرات الورد الجوري تتعربش فوق جدرانه، ترسم ثغرا مصبوغا بالأحمر.

- دعني أرِك شيئا.

قالت ليزا.

اقتادته إلى ممر في نهاية الحديقة، ماشيين تحت الصفصافة. سقطت حبات من المطر عن أغصانها فوق رقبة رشيد. خلف الصفصافة، فوق قطع من الطوب، تتربع قاطرة، تحيطها شجيرات من الصنوبر. القاطرة من الداخل أكبر مما توقع، يلفها جو من الدفء

وكأنها ملجأ تحت الأرض. أسرار المراهقتين مخبأة في أرجائها، تحت الوسائد وفي الجوارير الصغيرة. رائحة الخشب الرطب ذكرته بأيامه التي عاشها مع عائلته في إسكندنافيا. كان سعيدا حينها. هناك موقد مستدير ومسودّ في زاوية من الزوايا.

سأل ليزا أكثر من مرة بينما انحنت لإشعال الموقد، وكان شعرها ينسدل على كتفيها من تحت الكوفية:

- هل أنت متأكدة أنه ما زال يعمل؟

أعطته علبة سجائر من علب أختها. جلسا يراقبان نار الموقد بينما أشعل سيجارته. أراد أنْ يفعل معها أمورا يشتهيها، لكنه وجد نفسه مخدرا بدفء عناقها. فجأة كأنما دفعه شيء إلى الوراء، سقط في خندق وغاب في سبات عميق.

حتى هناك، في تلك القاطرة الخشبية في حديقة ليزا عَثَرَ عليه. طار عبر الفيافي والقفار، قطع البر والبحر، مثل مصاص دماء، وجد طريقه إليه، إلى أعلى رجله، فوق صدره، ضرب ضربته في وسط رأسه. بعد الخبطة المدوية، انفجرت الشبابيك أولا، تطايرت شظايا الزجاج كالصواريخ في أرجاء الغرفة. أبصر إيمان وأمه تَطِيحان أرضا، صبري يحاول رمي نفسه عن كرسيه، الزجاج يتهشم مصطدما بالجدران، ألسنة النيران تطبق على ما في الغرفة.

انتفض وصاح على أخته: إيمان! يده ارتطمت بوجه ليزا. انتبه من غفوته، يتصبب عرقا، يسعل، يبكي على حافة الكرسي. ليزا تضمه بشدة كما لو أنها تحميه من السقوط على الأرض.

مضت برهة من الوقت قبل أن يتمكن من جمع شتات نفسه ويدرك أنه مع ليزا في القاطرة.

يا لهذا الخبز الإنجليزي! كم هو متيبس ومتكلس! مثل بلع قطعة مضغوطة من حشرات ميتة. فتح رشيد النافذة وألقى بالفتات، استقر فوق حافة النافذة السفلى.

قرع «إيان» باب غرفة رشيد برفق. تجاهل تثاقله في الرد، دفع الباب وعبر. سترته بالكاد تستقر على كتفيه، سرواله يتوعد بالإفلات من عظم وركيه والسقوط على الأرض.

- هل بحوزتك شيء من الحشيش؟

تمدد «إيان» فوق السرير إلى جانب كومة من الملابس القذرة. سروال رشيد الداخلي رمادي اللون، لا يمتلك غيره، الكتابة على طرفه المطاطي لا تتغير أبدا، مكوم في الناحية التي كانت ليزا تضطجع عليها. رشيد ما يزال يرى بياض فخذها عندما جسّه بيده ليلة أمس، تماما حيث يستلقي «إيان» الآن.

يدمن «إيان» على عادة ولا يغيرها، يحاضر في رشيد عن السياسة ويحشره في الزاوية. بلا مواربة، يقذف في وجهه حقائق مجردة لا لبس فيها حيال أين كانت فلسطين وكيف ستظل دون اهتمام ما لم يضعوها في السياق الصحيح؟ ونقطة البدء هنا هي الخلل الراهن في السياسة البريطانية. يسهب إيان في الحديث عن: تآكل الحس الأخلاقي الوطني البريطاني، فساد الغرب، أعداد نواب حزب العمال الذين هم أصلا على يمين الحزب ولكنهم يتظاهرون بأنهم على يساره، موت الحزب الشيوعي، صدقية حزب العمال الثوريين، قصر نظر برنامج عمل حزب الخضر، القيود التي تحد من عمل اللجان البرلمانية المكلفة بمراقبة أداء الحكومة، عدد وزراء حزب العمال الذين يدرس أولادهم في مدارس خاصة. يجلس رشيد مستسلما لوابل ما يمطره إيان به. يبدو أنّ هناك المزيد.

- لقد ذهبت إذًا، فتاتك ليزا؟

كان ظفر سبابته مصفرا من فرط ما تعرض لنيران ولاعته. فرد بحرص كمية ضئيلة من الحشيش جلبها معه إلى غرفة رشيد.

- وظيفتها جيدة.

حدق رشيد إلى أسفل، راقب عصفورين يتعاركان على الفتات الذي رماه فاستقر على حافة النافذة السفلية. واصل إيان حديثه:

- أنا شخصيا أتحفظ على العمل مع المنظمة التي تعمل معها، لأن فيها شخصيات بيروقراطية حتى النخاع، يستحيل بوجودها إنجاز أي عمل حقيقي له معنى. لكن من جهة أخرى، توفر هذه المنظمة فرصة عظيمة لبناء شبكة علاقات عامة مهمة.

تعجب رشيد في نفسه من كاحلي إيان. كأنهما لجثة هامدة. شحوب لونهما والشعر النابت فوقهما لا يبدو طبيعيا بالمرة. كيف يستطيعان حمل حذائه الضخم! يتأرجحان منهما وكأنهما أثقال حديدية! إنه لا يفهم كذلك كيف لا تضيع نتف الحشيش داخل أظافره وتختفي إلى الأبد مع أكوام الأوساخ المعمرة هناك لسنوات طويلة!

قفز إيان، مثل من يضرب عصفورين بحجر واحد، غطى بيد جهاز الإنذار ضد الحريق بغشاء تغليف بلاستيكي، وفتح بالأخرى درفة الشباك على مصراعيها. حينها فقط أشعل سيجارة الحشيش. قال إيان بابتسامة عريضة:

- تتمتع بقوام جميل، صاحبتك، ليزا، صحيحة الجسم، أليس كذلك؟

لم يفهم رشيد ما علاقة إيان بصحة ليزا! أخذ نفسا عميقا، كتمه

في صدره، احمرّ وجهه، كأنه يختنق بغاز. مد سيجارة الحشيش وقال بصوت مخنوق:

- هل ترغب؟

يحب التباهي بتحدي العوائق القانونية والجسدية والموضوعية لتعاطي المخدرات.

- كلا، شكرا. يجب أنْ أراجع بعض الأمور قبل أنْ أخرج.

أومأ باتجاه الحاسوب.

- راجعها إذًا، لا تعطل نفسك. زفر إيان دخانًا رماديًّا في الهواء خارج النافذة، كأنّ الهواء ردّ عليه ببث ضجيج زحمة السير في الغرفة.

صبري، صبري. تمتم رشيد في رأسه حينما ضغط بإصبعه على الرسالة وجال ببصره سريعا فيها. كانت أطول رسالة يتلقاها من أخيه على الإطلاق.

إيان ما يزال يتكلم:

- ماذا قلت ليلة الأمس عن طرابلس؟ خلال حرب لبنان. لقد قلت إنك تعتقد لو أنّ الفصيل الآخر انتصر لكانت القيادة الفلسطينية مختلفة. هل تؤمن حقا بهذا؟ إنني لا أتصور أنه يمكن الحكم على قيادة سيئة بمعزل عمن تقودهم.

صار يتكلم بطلاقة الآن بعد أنْ شحن نفسه بما بدأ يسري في دمه من حشيش.

لا وقت لقراءة رسالة صبري الآن. طبعها، طواها ووضعها في جيب معطفه. جال ببصره في الأوراق التي تعلو مكتبه، رتبها في كومة صغيرة، أطروحة البحث في الأسفل، بعض الكتب في الأعلى.

- ألا توافقني الرأي؟

- نعم، بالطبع.

سيجارة الحشيش جعلته سلطانا، عيناه تتوهجان ببريق انتشاء اجتاح كيانه.

- لا يمكنك مجرد الاكتفاء بالقول: ذاك المستبد الصغير تسلم زمام الأمور، فحطم كل شيء فوق رؤوسنا ودمر نضالنا. عليك أنْ تقول أيضا، حسنا، كيف استطاع هذا الرجل أن يفعل كل ذلك؟ كيف تركناه يفعل ذلك؟ يجب أنْ تتحمل المسؤولية يا أخي. لا بد أن هناك ثقافة، ليس بالمعنى الجامد للكلمة، هل تفهمني؟ أسهمت في دعم هذا الرجل، فهو لم يأت من المريخ أو مدينة «بلاكبول». إنه واحد منكم.

الابتسامات العريضة التي ترافق لحظة النشوة، أمر يتلذذ به رشيد عندما يدخن الحشيش، لكنه يكره رؤيته بشدة فوق وجوه الآخرين، وخاصة وجه إيان. عندما يواجه الأسئلة السياسية التي ينصبها إيان له كالفخاخ، لا يعرف رشيد من أين يبدأ بالرد. هل يتحدث بشكل عام عن الحركات الثورية، أم عن سياسة الاغتيالات التي استهدفت الشخصيات السياسية المعتدلة أو الكتاب والمفكرين على وجه الخصوص؟ بوسعه أيضا، فيما يعتقد، الدفاع عن نجاحات القيادة الخارجية وتكوينها الديموقراطي عندما بلغت أوج نشاطها. هل يتقمص دور الضحية أم يتحول إلى مجرد بوق دعائي؟ دائما ما يرغمه إيان على تقمص أحد الدورين.

- على أية حال، أبوك وشقيقك كانا ينتميان إلى حزب الأغلبية الساحقة، حزب الزعيم. لماذا كانا يؤيدان ذلك الرجل؟

همّ رشيد بالردّ، توقف، كلا لن يردّ بشيء، سحقا للرد! لقد أعطى نفسه إجازة من كل هذا.

- يجب أنْ أذهب يا إيان، لدي موعد مع الأستاذ المشرف على بحثي.

- أوه، طبعا، أحب الطريقة التي تلفظ بها اسمي أيون، تترنم بها على طريقة غناء الـ «راستا».

هزّ إيان السيجارة برفق، سقطت جمرتها، ضغط أطرافها بحافة سلة، ووضع العقب داخل علبة كبريت.

- هل يسمح لك وقتك بأنْ تحضر لي كمية قليلة من الحشيش لاحقا؟ إنّ النوعية التي تجلبها أفضل بكثير مما أجلبه أنا.

حقيبة رشيد جاهزة، لكنه يحاول التأكد من أنه لم ينس شيئا. ليس في نيته الذهاب إلى هناك مرة أخرى. عقد العزم بينه وبين نفسه. لا حانة مغربية، ولا شراء حشيش. ليس من غزة بعد الآن، خرج منها، ولهذا لا داعي للحشيش.

- أجل، حسنا، لكن ليس الليلة، عندي ارتباط. لكن عندما أذهب في المرة المقبلة، ربما في الغد.

- حسنا، إلى اللقاء.

خرج إيان، سار على مهل، جرجر حذاءه الذي يتدلى من قدميه الضخمتين.

الفصل الثامن عشر

في نهاية قاطرة مترو الأنفاق عثر رشيد على مقعدين فارغين. في المقعد المقابل، امرأة محنية الظهر، تنتعل شبشب زنوبة وتجلس بمفردها. قميصها قطني، زهري اللون، طويل يصل حتى ركبتيها. منظر ساقيها غريب، لفت واحدة على أخرى، مرةً تلوَ المرة. أخرج رشيد رسالة صبري الإلكترونية. غضّنت أنفها باشمئزاز. تشممت الهواء مرتين، كأنها تقفو أثر طريدة. نظرت يمينا ثم شمالا. لا بد أنّ ما يثير انزعاجها هو أنها تجد نفسها محاطة بـ «الآخرين» الأجانب الوافدين من أماكن أخرى. كلهم، وهو معهم، كأنما بشرتهم الداكنة هي السبب الذي دفع بهم إلى المجيء هنا. راح يتكلم مع نفسه: إذا كان هذا المكان يجمع كل هؤلاء الأجانب الذين وفدوا من أماكن أخرى ويجعلهم من هنا، إذًا وعلى المنوال نفسه في وسعي أنا أيضا أنْ أصبح من هنا. لكن ماذا عن واجبات هؤلاء الوطنية تجاه الأماكن التي جاؤوا منها؟ ماذا عن واجبه هو؟ ذلك الواجب الوطني يجره خارج أي بلد يوفر له الراحة، يدفعه نحو أرض يسودها الصراع حيث لا يجد لنفسه مكانا. ها هي رسالة صبري تذكره هي الأخرى بأنّ الاسترخاء ترف لا يتوفر أبدا لأمثاله، وأنه ليس في وسعه أنْ يكون

جزءا من أيّ شيء، من أي مكان، لأنه جزء من ذلك الصراع. لكنها رسالة استثنائية في طولها، حتى ولو كانت حول ذلك الموضوع، بعثت فيه الفضول.

أخي رشيد،

مسرور جدا بسماع أخبارك، وكلي ثقة بأنك تدرس بجد واجتهاد. أرجو أنْ تكون الملاحظات التي أرسلتها لك حول سياسات طرد الأهالي من أراضيهم في عام ١٩٤٨ مفيدة لبحثك. إنك محظوظ بإشراف الأستاذ «مايرز» على دراستك. كنت سأسر جدا لو حظيت بلقائه شخصيا، فطالما قرأت كتبه ومقالاته المنشورة. لا شك لدي في أنه سيكون مهتما بخلاصات البحث الذي أعكف عليه.

أشكرك على إرسال المقالات وقائمة المواقع الإلكترونية الخاصة بالقرى المهجّرة والمذابح التي جرت في عام ١٩٤٨، تلك التي أعطاك إياها الأستاذ «مايرز». كما تعلم، إنّ من شأنها أنْ تدعم بحثي في الموضوع. أعتقد أنه مع مرور الوقت وظهور مزيد من الوثائق حول تلك الانتهاكات إلى العلن، فإنّ أبناء عمومتنا على الطرف الآخر من الحدود سيرغمون على الاعتراف بتاريخهم وعلاقاتهم معنا، وحينها يمكننا جميعا إحراز تقدم ما. ليس في وسعهم أنْ يواصلوا التظاهر بأننا بدو رحل وفدنا من خارج البلاد وهرعنا للإجهاز على الدولة اليهودية الناشئة. إنه ادعاء مناف للواقع ولا أساس له من الصحة. سيتضح هذا الأمر مع مرور الوقت ونشر مزيد من الأبحاث الدقيقة. إنّ كل هذا سيسهم في جعل مستقبل شعبينا ممكنا.

بحلول العام الجديد ونشر الوثائق القديمة، أريد منك إجراء

بحث إضافي بالنيابة عني. إنّ هذا البحث مهم جدا، لا لكتابي فحسب، بل لأنه سيضيف إلى معرفتك وفهمك لتاريخنا وشعبنا وسجل عائلتنا على وجه الخصوص. أنا وأمك متفقان على أنه آن الأوان لأن يكون هناك معرفة أكبر بظروفنا وجذور انقسامنا.

قرأ رشيد هذه الفقرة مرات عديدة، استغرب من الخط في أسفلها، فصبري لا يحب هذا الأسلوب في الكتابة أبدا. ما مغزاها؟ ماذا أراد أنْ يقول؟ استغلق الأمر عليه. إنها مثل تلك المنشورات السياسية التي كان يختبره صبري في التقاط المعاني المبطنة فيها: لم برأيك يا رشيد اختار من صاغ هذا المنشور القول لجان الشعب وليس اللجان الشعبية؟ هل في وسعك أنْ تحزر هذه النقطة على الأقل؟ انتبه رشيد إلى أنّ القطار مرّ عن المحطة التي سينزل فيها، اضطر إلى النزول وانتظار قطار آخر يعود به إلى وجهته.

داهمتنا انشغالات كثيرة، ولم تسنح لي أي فرصة لشرح وضعنا في البيت. والدتك وأنا بصحة جيدة، لكن الأوضاع تغيرت في البيت.

عائلة أبي عمر تركت بيتها بعد سفرك أنت وإيمان. تبين لاحقا أنّ مرتبة أبي عمر عالية جدا، إذا كان في الإمكان القول إنّ ثمة مراتب للمتعاونين مع العدو، وأنه قدم معلومات مفيدة جدا للأعداء تتعلق بقيادات مهمة للمقاومة...

لماذا وضع صبري خطا هنا؟ هل يلمّح إلى أنهم في البيت يعرفون هؤلاء القادة؟ إنه شخصيا لا يعرف أي قائد للمقاومة. زياد

الأيوبي، شبيهه الذي ألقى القبض على أبي عمر، قائد. هل يمكن أنْ يكون أبو عمر قد استهدفه في الماضي؟ هل يرتبط اعتقال أبي عمر بهذا الأمر؟ هل كان اعتقالا ثأريا؟ عادة صبري في التورية تثير حنقه إلى أبعد الحدود.

عائلته نقلت من غزة إلى مخيم في إسرائيل مخصص لعوائل المتعاونين المهمين. قالت زوجته، أم عمر، لأمي إنه ظل يعمل في خدمة أعدائنا لأكثر من خمس عشرة سنة. إنك تعرف كيف تبدأ هذه الأمور، طلبوا منه في البداية معلومات تافهة حول الانتخابات الطلابية مقابل تصريح يتيح له أخذ والدته المريضة إلى مشفى في القدس. يزعم الرجل أنّ شقيقه المقيم في أميركا توسّل له لكي يقدم تلك المعلومات للأعداء لأجل أمه المريضة. طبعا، بعد تقديم تلك المعلومات لم يكن هناك مجال للتراجع، فالرجل وضع مصلحة عائلته قبل مصلحة شعبه، لهذا فإنه الآن يدفع الثمن.

زارتنا أم عمر قبل أنْ تغادر وأعطت ماما مفتاح شقتهم، إذ لا أقارب لهم في غزة. طلبت منها المحافظة عليها في غيابها بالانتقال للعيش فيها. قلب هذه المرأة في غاية الطيبة، الله وحده يعلم ما تخبئ الأقدار لها ولعائلتها هناك. لا يجوز أنْ تدفع هي وعائلتها ثمن خطيئة أبي عمر، لكن لا مجال للهروب، فعائلة أم عمر انتفعت ماديا إلى حدّ كبير خلال السنين الماضية. إنه أمر ينبغي لنا أنْ نتذكره قبل الشعور بقدر كبير من الإشفاق على مصيرهم.

قررت مع والدتك أنّه من الأفضل لنا الانتقال إلى الدور الأرضي. نقلنا أغراضنا ونحن نعيش الآن هناك. بالطبع ماما في

سرّها أسعد بكثير مما تبديه في العلن. لقد حرثت الحديقة وزرعتها بندورة، بطاطا، نعناعًا وزعترًا.

رحلت عائلة أبي عمر لكن أحد أفرادها رفض أنْ يذهب معها، إنه الحفيد الأوسط، وائل. قال إنّ هذه الأرض بلاده وإنه لن يطأ أرض الأعداء. لذلك قررنا أنْ نضم الصبي تحت جناحنا ونعامله كما لو كان أحد أفراد عائلتنا.

أليس وائل ذاك المراهق الطويل الذي له أنف ضخم وفم يعلوه خط واه من الزغب؟ هل صبري يبلغه بقرارهم تبني ذلك الصبي الأفّاق؟ وهل اختار ذلك الحثالة بلده مفضّلًا إياه على نفسه وعلى عائلته؟

على كل حال، لا يمكننا ترك شقتنا في الطابق العلوي فارغة. لذلك اتفقت وأمك على فتحها أمام جيراننا الذين يعيشون في الخيام حتى يتناوبوا على المكوث فيها. ليس في وسعنا توفير ملجأ لهم جميعا في وقت واحد، لذلك رتبنا أنْ تمكث كلّ عائلة منهم في غرفة لأسبوعين. شكلنا أيضا لجنة مراقبة للإشراف على ذلك. الأمور تسير على ما يرام حتى الآن، لكني أخشى من قدوم الشتاء. أتمنى ألا تثور المشاكل في ذلك الفصل البارد عند الطلب من المقيمين في غرف الشقة مغادرتها لدى انتهاء مدة نزولهم فيها.

سياسيا، لا بد أنك تتابع الأخبار. الأمور ليست سيئة للغاية، ولكن الإشارات غير مطمئنة.

أتمنى لك كل التوفيق يا رشيد. كلي ثقة أنّ هذه السنة ستساعدك في الاهتداء إلى الدور الذي يمكنك أنْ تؤديه في نضالنا لنيل العدالة.

أخوك،

صبري جبريل مجاهد

الفصل التاسع عشر

يفتح الأستاذ «مايرز» كتابا، فينفتح فمه بشكل تلقائي. يمد طرف لسانه فوق شفته السفلى، ثم يرفعه، يلمس شفته العليا لحظة عثوره على النقطة المنشودة.

- أجل، هنا، هذا السطر.

يربت «مايرز» على الكتاب ككلب وفيّ لا يضنّ على صاحبه بما يشتهيه. شقته تفوح برائحة عطنة مثل رائحة كلب رطب. حتى القهوة كانت تحمل رائحة كلب رطب. كذلك أبحاث رشيد، التي يتسلمها من مشرفه، تعود إليه فتزكم أنفه. اقترب رشيد من مزهرية فيها أزهار إبرة الراعي، ماؤها نشف وأوراقها جفت. لكن رائحتها ذكرته بحديقة أحد أقربائه عندما كان صغيرا: أهي في عمان؟ أم في دمشق؟ ربما حديقة عمته في الإسكندرية؟ تساءل في خاطره.

- أجل، أجل، هذا المقطع. حاول أنْ تستشهد هنا بأمثلة على شعور بعض أوائل المهاجرين اليهود إلى فلسطين بالصدمة البالغة. فبعد هروب هؤلاء من جحيم ألمانيا النازية وبلدان أوروبية أخرى، وصلوا إلى فلسطين: الأرض المقدسة، بلاد البدايات الجديدة. لكنهم وجدوا أنفسهم أمام الممارسات نفسها التي هربوا منها.

والأدهى أنّ أبناء جلدتهم من اليهود هم من يستخدمونها ضد العرب الفلسطينيين. كانت تلك الممارسات تجري أمام أعينهم بعد مرور ثلاث سنوات فحسب من تعرضهم لها على أيدي الآخرين. ثلاث سنوات ليست بالزمن الطويل في حياة البالغين. ترك هؤلاء ألمانيا أواخر عام ١٩٤٥ وبحلول عام ١٩٤٨ طلب منهم الانضمام إلى صفوف القوات اليهودية التي كانت تنشط في القبض على رجال، تغطي عيونهم بالعصابات، تكدسهم في شاحنات وتلقي بهم إلى خارج الحدود. هذه الشواهد مهمة للغاية. أجل ليس هناك الكثير منها، ولكنها أهم من الشواهد الأخرى حول شكوى اليهود من معاملة البريطانيين لهم. ما يثير اهتمامي حقا هو، كيف نظر هؤلاء إلى الطريقة التي كانوا يعاملون بها الآخر العربي؟

فتح الأستاذ مايرز فمه من جديد، لسانه تدلى فوق شفته السفلى محاولا العثور على نقطة أخرى. فشلت المحاولة. عاد لسانه ليستقر داخل فمه. رفع حاجبيه ونظر إلى رشيد.

- التمييز والمعاملة السيئة تصرفات بالغة القبح. تغير من نفوس أصحابها وتحولهم أحيانا إلى وحوش شرسة، أليس كذلك؟ أعني ذلك القول المأثور حول المستبدّ بهم بالأمس وكيف يصبحون المستبدين الجدد في الغد.

دار في خلد رشيد ما تستخدمه السلطة من طرق التعذيب الإسرائيلية ضد أبناء شعبها.

- ممارسات الاستبداد جعلتنا نحن أيضا قبيحين.

يقر رشيد بسهولة أمام أستاذه بالأخطاء الوطنية، لكنه لا يحسن ذلك بصحبة إيان.

- أجل، أجل، لكن يمكن تغيير كل شيء. لست قبيحا بالمرة أيها الشاب الوسيم. أترغب ببعض القهوة؟

علّم «مايرز» الكتاب بقصاصة يغطيها نص نقش بالرصاص. وضع الكتاب وسط كومة كتب أخرى كان قد جهزها لرشيد.

سأل رشيد:

- هل انصبّ عملك دائما على فلسطين؟

خطر في باله ماذا كان سيعمل لو أنّ فلسطين لم تكن موجودة في حياته. تمتم في سره: أشتغل بالسينما أو الموسيقى. المرة الوحيدة التي سمع فيها كلمة موهوب تستخدم في وصفه كانت خلال تلقيه دروسا في البيانو. لم يكن حينها قد تجاوز الحادية عشرة من العمر. كان ذلك في بيروت، ثم اضطروا إلى تركها للعيش في باريس. وهناك لم يتسن له استئناف الدروس لأن باريس كانت محطة مؤقتة. كل الأماكن الأخرى كانت مؤقتة لكن باريس، ولسبب ما، كان يشار إليها كذلك منذ اليوم الأول الذي وصلوا فيه إليها. طيلة السنتين اللاحقتين لم يفتحوا سوى صندوقين من متاعهم، دلالة على حالهم كعابرين لا مقيمين. وعندما قرروا فتح بقية الصناديق جرى اغتيال أحد ممثلي المنظمة وطلب من أبيه أنْ يحلّ مكانه. هذا، بالطبع، اضطرهم إلى الرحيل من جديد. وقتها لم تكن دروس البيانو بأهمية ما استجد من أمور عاجلة. علاوة على أنه حتى ذلك الحين لم يكن قد تلقى أي درس في البيانو، لسنتين على الأقل، فلم العجلة؟ لم يكن الأمر ملحًّا أبدًا.

تنهّد مايرز:

- دائما فلسطين.. لكني أعتقد أحيانا أنه كان في إمكاني أنْ أتناول موضوعها على نحو مختلف.

كان يتحدث من المطبخ فوقف رشيد بقرب الباب الضيق ليستمع له.

- حقا؟

بدا مايرز في واد آخر عندما أفلت من يده غطاء علبة القهوة وسقط على الأرض. بحلق فيه وكأنه سقط في قاع بئر عميق. التقطه رشيد عن الأرض وأعطاه له. لم يقابل فعل رشيد بالشكر أو بإيماءة من الرأس، بل عاود الانحناء فوق إبريق الماء الساخن. كل تركيزه ينصب على إيصال حبيبات القهوة المرتعشة بسلام إلى فنجانين، نصف نظيفين وتعلوهما أشكال بيضاوية بنية اللون.

لامس لسان مايرز شفته السفلى، ثم قال وهو يرفع ملعقة صغيرة:

- خذ الأكراد على سبيل المثال.

تساءل رشيد الذي كان في تلك اللحظة قد نسي ما كان أستاذه يتكلم عنه في الأصل:

- الأكراد؟

- أسأل نفسي أحيانا، لماذا اخترت من بين الشعوب المنسية والمحرومة شعبا بعينه؟

لم يرق لرشيد أنْ ينظر إليه على أنه من المنسيين والمحرومين لكنه لم يرغب بمقاطعة أستاذه.

- كان الحال سيكون مختلفا جدا لو أنني اخترت الأكراد مثلا.

- لماذا اخترتنا إذًا؟

- فكرت في هذا الأمر مرارا وتكرارا. شعرت في نهاية المطاف أنه لم يكن لي من حيلة في الأمر. حقا، إنه أمر لا يخلو من طرافة. أحيانا لا يكون لك يد في اختيار قرارات تخصك بل تكون جاهزة

في انتظارك. تنتبه فتجد نفسك متورطا في معضلة من العيار الثقيل وليس من مخرج. يشبه الأمر قول بعضهم إنهم من مجرد النظرة الأولى إلى امرأة يدركون أنها قدرهم من دون نساء الأرض. انتبه! لا أعني أنّ هذا ما حدث معي، كلا، أبدا. ولكن فيما يخص فلسطين كان الأمر على هذا النحو.

تساءل رشيد إنْ كانت ليزا قدره أم لا. عندما وقعت عيناه عليها أول مرة عند مجيئها إلى المركز في غزة، هام بها حتى إنّ ساقيه بالكاد منعتاه من السقوط أرضا. ثم تلك الطريقة التي عاملته بها، غمرته بعينين فياضتين بالحماس، رغم تلعثمه بالكلام وقصور معرفته، الأمران يتضخمان في حضورها. كانت تنظر إليه كما لو أنها ترى فيه مكانا وغرضا لا تراهما في أيّ شخص آخر. مع ذلك، لا يرقى كل هذا إلى وصفه بالقدر. لا تقل: ASS قالت له ليلة البارحة وهي تشير إلى كلمة المؤخرة بالإنجليزية، إنها كلمة أمريكية خالصة.

قدم له مايرز فنجان القهوة. لم تكن ساخنة بدرجة كافية، فقاعات صغيرة من دسم الحليب تعلو السائل البني.

حثّ رشيد مايرز على الحديث:

- أخبرني شقيقي أنك كنت في فلسطين خلال الحرب.

- أوه، أجل! أُرسلت إلى هناك عندما كنت شابا يافعا وكلفت بالعمل في الشرطة كضابط برتبة صغيرة. آنذاك، لم تكن حرية الاختيار متاحة لنا، فعائلتنا كبيرة والصبيان فيها كثر: الأول أرسل إلى الجامعة، الثاني إلى سلك الرهبنة، الثالث إلى التعليم، الرابع إلى الجيش، أما أنا فبعثوني لأخدم في المستعمرات البريطانية. لم أشارك في الحرب لأني كنت صغيرا، لكنني فقدت فيها إثنين من إخوتي.

عندما وصلت إلى فلسطين لم أكن قد بلغت العشرين. كنت مراهقا في السابعة عشرة من العمر، مجرد ولد طائش يصرف وقته في البكاء لأنه بلا صاحبة.

عاد رشيد للتفكير في ليزا. لا يمكنه أبدا أنْ يناديها بصاحبته، لا في حضورها ولا أمام الآخرين، لأنه يخاف أن تفزع من ذلك. لكن ماذا تكون له سوى صاحبة؟ لقد مارسا الحب، أليس كذلك؟ عندما قال لها إنه يحبها، قرأ في وجهها أمرين كلاهما سيّئ: أحدهما تسامح والآخر نفور. لم يستطع أنْ يفسر ما رآه في وجهها سوى النفور.

- لكن الأمور باتت تتضح شيئا فشيئا حتى لشاب مثلي، رغم جهله الكبير بالأوضاع، فقد أصبح جليًا أنّ الأمور تأخذ منحىً سيئا. لم يكن تعاملنا مع الطرفين عادلا أبدا.

بدا مايرز وكأنه يخاطب لجنة تحقيق خفية.

- السكر هناك إنْ كنت ترغب بشيء منه.

- ما هي تلك الأمور؟

حاول أنْ يعثر في وجه مايرز على ملامحه القديمة في شبابه، هل كان أنفه بارزا أم كان أقرب إلى أنوف الأشخاص البلهاء؟ أحيانا، تتشابه وجوه بعض كبار السن مع وجوه الرضّع إلى درجة يصعب معها تخيّلُ ما كانت عليه أو ما ستؤول إليه. لكن يبدو بوضوح أنّ الرجل كان طويلا وبشكل مذهل، فحتى الآن ورغم انحناء قامته إلا أنه يفوقه طولا.

- بصفتي عضوًا في شرطة قوات الانتداب، كان مطلوبا مني الذهاب إلى القرى العربية للتفتيش عن الأسلحة. كان هذا في عام ١٩٤٧ وعندما كان التوتر في أوجه. قضت الأوامر الصادرة إلينا

بالذهاب إلى القرى وتفتيش بيوت أولئك الفلاحين. نذهب إلى هناك خلال ساعات الفجر، نوقظ نساءهم، نمزق فِراشهم، نسكب جرار الزيت على الأرض، نشقق أكياس الطحين ونبعثر ما فيها. لأجل ماذا؟ كنا نادرا ما نعثر على رصاصة، أما في المرات القليلة التي نصطاد فيها مسدسا فكنا نكتشف أنّ الدهر أكل عليه وشرب، وأنه يعود إلى العهد العثماني. وعندما يحدث ونجد شيئا، نقتاد الرجال إلى مركز الشرطة مصفّدين في الأغلال، تاركين نساءَهم يبكين وينتحبن.

لم يكن الأستاذ مايرز قد جلس منذ وصول رشيد، لكنه جلس الآن فوق كرسي بثلاث أرجل.

- شنقنا رجلا ذات مرة بعد أنْ عثرنا على مسدس ألماني صدئ وبعض الرصاص المخبّأ أسفل حافة بئر الماء في بيته. قال لنا إنه باع نصف ما يملكه من ماشية لشرائه. شنقناه لأجل هذا! كانت قوانين الطوارئ لصاحب الجلالة البريطاني مفروضة في فلسطين خلال ذلك الوقت، وكان كلّ ما نعمله هناك مسوّغًا بحسبها. إنها القوانين نفسها التي تستخدم اليوم لفرض الحصار والإغلاق وحظر التجول وتجريف البيوت وكل شيء. كلّ تلك القوانين بريطانية.

لوّح مايرز بيديه في إشارة ذات معنى. تساءل رشيد بينه وبين نفسه عن معنى تلك الإشارة: الاعتراف بالخطيئة؟ تحمّل المسؤولية؟ الشعور بالذنب؟

- علقناه من رقبته في القرية مثل الذبيحة. كان مهيبا ضخم الجثة. لم يكن مختارَ القرية، ولكنه من وجهائها. شاربه كبير وسيجارته لها مبسم. لسبب ما، انطبعت صورة المبسم في ذهني ولم

أتمكن من إبعادها عن عقلي. رجل جليل ظل حتى آخر لحظة يتحلّى بأدب جمّ ورُقيٍّ في التعامل. يا للخزي! أعتقد أنّ مبسم السيجارة هو ما حدد مصيري. لم يكن مهمًّا لتلك الدرجة بالطبع، أقصد لو توقف الأمر عند المبسم فحسب لما غيّر ذلك شيئا بالنسبة لي. كنت سأجد لنفسي مخرجا لتبرير ما حدث بتعليقه على مشجب الضرورات التي لا بد منها لحماية الإمبراطورية... الخ. لكن التباين الصارخ في المعاملة هو ما ضايقني آنذاك، حتى وأنا مجرد شاب غرّ. فبينما كنا ندرب المهاجرين اليهود على السلاح ونزودهم به، نصبنا المشانق للعرب لأنهم يخبئون بضع رصاصات أكلها الصدأ! ثم قرر اليهود أنّ ما نقوم به تجاههم غير كاف، وبدأوا يشنون هجمات ضدنا أيضا. حسنا، بالطبع تعرف بقية الحكاية. حرب عام ١٩٤٨ كانت نزهة بالنسبة لهم. كان المستوطنون اليهود في نشوة عارمة، لم يحتاجوا حتى إلى خوض قتال حقيقي.

فتح مايرز النافذة. هبّ نسيم الخريف الذي حاول تحدي رائحة الكلب الرطبة، لكنه خسر التحدي. ابتلعته رائحة الكلب تماما.

- إنّ ما فعلناه مدعاة للعار، مخزٍ قولا وفعلا.

تساءل رشيد:

- وماذا عن الأكراد؟

- أوه! لا أعرف الكثير عنهم. لكني لو اخترتهم لكانت الأمور أسهل عليّ بكثير. كان يمكن أنْ أختار الأرمن، لم لا؟ سحقا لما لكل هؤلاء من تاريخ مأساوي! أنا متأكد أنّ أوضاعي كانت ستكون أفضل مما هي عليه الآن: إمكانيات نشر أبحاثي وكتبي، الحصول على وظيفة تدريسية في الجامعة، تثبيتي فيها، إيصال صوتي إلى

مسامع الآخرين، بدل أنْ استلم كل تلك الرسائل الإلكترونية التي تتهجم علي، لا...

ثم جال مايرز ببصره في أنحاء بيته المتهالك.

- حسنا، كانوا سيعطونني مثلا مكتبا خاصًّا بي في الجامعة. عوض ذلك، أصبحت شخصًا غير مرغوب فيه. حطّوا من شأني ومرتبتي. كلّ شيء كان سيكون مختلفا لو أنني لم أختر الفلسطينيين، أو لو أنّ فلسطين لم تخترني.

اعترى مايرز الارتياح من البوح بما كان يعتمل في صدره. كأنّ هذا شحذ من عزيمته وتصميمه. مشى بوقار وفخامة إلى غرفة الجلوس، يتوقع ممن وراءه أنْ يمضي في أثره، حتى في بيته المتواضع، خاصة في بيته المتواضع.

- والآن أيها الشاب، ماذا جلبت لي في هذا الصباح الجميل؟ ما الذي بين أيدينا؟

قلمه الرصاصي يخطّ برشاقة على هامش مسودة أطروحة بحث رشيد. لسانه بدأ بالاستعداد.

- جيد، جيد. يسعدني أنك التقطت هذه النقطة. كنت أعتقد أنك ستفعل ذلك.

حدث رشيد نفسه عندما لاحظ بعض علامات التصحيح على هامش البحث: صبري! صبري! ينبغي أنْ تكون أنت هنا الآن وليس أنا. ارتسمت إلى جانب الفقرة التي نسخها رشيد من رسالة صبري الإلكترونية علامتا سؤال وإشارة خطأ كبيرة. أسفل منها، إشارات تصليح الفقرة التالية. كتبها رشيد دون مراجعة أي مصدر في الموضوع. ترك نفسه على سجيتها في التعبير عن الأفكار التي

تضطرم في رأسه. إلى جانب هذه الفقرة كانت هناك إشارة صحّ كبيرة وكلمة تتبعها علامة تعجب. اقترب رشيد أكثر من الأستاذ الذي تفوح منه رائحة تشبه الشمع القديم وملابس رطبة مكثت في الأدراج لوقت طويل. مال ليتبيّن تلك الكلمة. رآها، حروفُها تنتصب بعظمة وخيلاء، رسمتها يد أستاذ ضليع:

أحسنت!

كانت واضحة مرئية دونما أي لبس.

الفصل العشرون

تلك المنطقة التي يقع فيها المطعم ليست جديدة عليه. مرّ بها ليلةَ وصوله إلى لندن. هذه الأمسية تشبه تلك، جو صحو بعد نوبات من المطر، أرصفة سوداء لامعة ترتسم فوقها خطى المارة. أجواء من العجلة تعمّ الشارع الذي هيأ نفسه للاحتفاء بحلول المساء. يعجبه اختلاف البنايات في الشارع الرئيسي. تتباين في طولها وواجهاتها ونمط بنائها، لكنها تصطف معا بتناغم كأنها أعضاء في فرقة موسيقى جاز كوبية. الأضواء منيرة، أكثرها من النيون، هناك أخرى معلقة بحبال، تتدلى فوق سماء الشارع من الأشجار المحيطة وحتى أسطح البنايات. شبابيك كبيرة ناتئة من بعض البنايات، كأنها أقفاص طيور. كراسٍ وطاولات تصطف في مربعات ومستطيلات، تحتمي من المطر بمظلات مقلمة.

ليلة وصوله رأى في الشارع ما ينتظره من مستقبل واعد في لندن. تلك الحانات والمقاهي طال انتظارها له. سيكون فيها معروفا، يدلف إليها فيستقبل بالتحية والهتاف، يتهافت أصدقاؤه على سماع نقاشاته، ونكاته، وربما يرجونه للعزف على آلة موسيقية يكون قد اكتشف موهبته الفذة في عزفها. سيكون معروفا، محبوبا، وحرًّا.

ليزا عجزت عن التقاط ما يراه في تلك الأماكن. عددت له أسماء مطاعم ذات أسعار مقبولة. ضحكت من اقتراحاته: «لا أعتقد أنّ في إمكانك تسديد فاتورة الطعام في هذه المحال يا رشيد.» ثم صنفت البقية على أنها إمّا قديمة عطنة، أو تقتصر على العزاب، أو أنها مملة. بعد مدة قصيرة، تعلم أنْ ينظر إلى الشارع، بل إلى كل نواحي لندن، بنفس طريقة ليزا.

يافطة المطعم الذي اختارته ليزا مضاءة بمصابيح تعلوها مظلات نحاسية. نافذته مغطاة بسجادة للزينة، على حافته جرة فخارية تخرج منها أغصان بنية متشابكة تتعربش في الهواء. ليزا كانت أول الواصلين، تقف هناك قرب الباب وتعضّ بأسنانها على تذكرة القطار البلاستيكية. قال لها رشيد:

- ما كلّ هذا الجمال!

انحنى ليطبع قبلة على ثغرها. جفلت، فخاف أنْ يكون العربي الشبق ابن الحارات فيه قد أفلت من قبضته. يبدو أنْ قرينه المتوحش ذاك بات يفلت من سيطرته أكثر فأكثر عندما تكون ليزا بقربه. كان عاجزا عن لجمه وتقييده. يريد أنْ يضمها إليه، أنْ يقول لها ما يبدد انزعاجها، لكنه لم يقو على الكلام. خاف أنْ يقول ما قد يزيد الطين بلّة. ربما هناك طريقة لتقبيلها يمكن أن تذهب عنها ما يلمّ بها، أو لعلها ستكره ذلك أيضا. بوغت بصاحب المطعم يخاطب ليزا: «أيتها الجميلة، تفضلي، تمتعي بجمال سجادة الزينة، سأمنحك خصما خاصا.» ارتبك وعجز عن التصرف.

قالت وهي ما تزال تعض على حافة تذكرة القطار البلاستيكية:

- أختي ستكون برفقتنا.

قرر رشيد ألا يرد، فأي شيء يقوله عن عائلتها عادة ما تعدّه مجافيًا للصواب. عندما يراودك الشك، هكذا علمه صبري، حاول جمع أكبر قدر من المعلومات. صبري قصد حينها حرب العصابات، لكن رشيد قرر اتباع هذا التكتيك الآن.

- لماذا؟ كنت أظن ألّا وفاق بينكما؟

لم يستطع كبح جماح نفسه. خرجت الكلمات رغما عنه.

- أجل، هذا صحيح. لكنها ستأتي فقط لأجل «تشارلي». «آنا» و»تشارلي» درسا في الجامعة معًا، طلبت منها أنْ تعرفني إليه. لكني لما قلت لها إنها لن تنسجم أبدا مع الحضور لأنّ شخصيتها مختلفة تماما عنهم تضايقت وانزعجت.

- من يكون تشارلي؟

- حقا يا رشيد! قلت لك من قبل! «تشارلز دنهام» الذي يعمل في وزارة الخارجية. نظمت هذا اللقاء حتى نتعرف إليه، إذ إنه نقل مؤخرا إلى قسم الشرق الأوسط. أخبرتك بهذا من قبل. من المهم جدا أنْ تتحدث إليه عما يجري هناك. من الضروري أنْ يعرف عن غزة والمركز.

- أكيد، أكيد. «تشارلي»، حسنا.

تذكر رشيد الآن أنها حدثته عن هذا الرجل. إنه «تشارلز دنهام»، يرتدي قبعة مستديرة سوداء، ويدخن غليونا ينفضه دائمًا بخنصره.

تذكرتا الحفلة الغنائية تدغدغان أنامله في جيبه. رجل وامرأة توقفا قرب ليزا، أمعنا النظر في قائمة الطعام داخل إطارها النحاسي. المرأة تجسّ بيدها فخذ الرجل، كأنها تحاول إشعال الرغبة فيها. كانا أسودين. من أصول إفريقية كاريبية يا رشيد. تخيلها تقول له مصححة، ليسا أسودين. جاملتهما ليزا بابتسامة. أطفأ رشيد عقب سيجارته في

جرة فخارية تطلع منها شجيرة شذبت على هيئة مصاصات الحلوى المستديرة. مضى الرجل والمرأة في حال سبيلهما. أخرج رشيد تذكرتي الحفلة الغنائية من جيبه، رفعهما في وجه ليزا.

- ما هذا؟

- السبت، قاعة ألبرت، إيريك كلابتون بشحمه ولحمه، تذكرتان.

- رشيد! لا بد أنهما كلفتاك الكثير. كيف وفرت ثمنهما؟ كان عليك أنْ تستشيرني أولا. أنا مشغولة هذا السبت، هناك عشاء خيري. وربما سأكون مضطرة إلى حضوره.

لم يخطر بباله أنها ستكون مشغولة، بل تخيل أنها ستطير من الفرح عندما يعطيها التذكرتين. ربما تعانقه أو تطبع على شفتيه قبلة طويلة. قد تسأله فقط كيف تمكن من الحصول عليهما، فيخبرها بما كابده من مشقة. لكنها الآن لا تبدو متأكدة حتى من سبب عدم مرافقته إلى تلك الحفلة.

- «أجل، أنا متأكدة من أنني لا أستطيع.» قالت وهي تعيد التذكرتين له، «كان عليك أنْ تسألني أولا قبل شرائهما. آه، كل تلك النقود! ربما لن تتمكن حتى من إرجاعهما واسترداد ثمنهما.»

نبرة صوتها كانت غاضبة، لكنها عندما نظرت إليه حاولت أنْ تبدي شيئا من العذوبة. ثنت جبينها، اقتربت منه وقالت: آسفة.

فتاة ذات حضور كانت تتهادى وهي تقترب منهما. تقرع الأرض بكعب حذائها العالي. ابتعدت ليزا عن رشيد وتركت يده عندما أبصرت أختها بقدّها الممشوق.

- إنها «آنا». أعتقد أنّ من الأفضل لنا جميعا ألا يدري أحد بعلاقتنا خلال هذا الاجتماع.

لن يأخذ «إيان» معه إلى الحفل الغنائي، سيذهب وحده ويبدد ثمن التذكرة الثانية. لو كان خليل موجودا لأحبّ الذهاب إلى الحفل، لكنه لن يأتي إلى لندن قريبا. لم يكن هناك أي شخص آخر يمكن أن يرافقه.

- آنا، رشيد.

مد يده وصافح نسخة أكثر أناقة ورشاقة من ليزا. حاجبان مزججان بعناية، حبتا لؤلؤ في الأذنين، غرّة مقصوصة حديثا. كانت هيئة آنا تؤهلها للظهور في إعلانات شركات الهاتف أو المحاماة.

- هاي! رشيد؟ رشييد؟ هل هذا صحيح؟ عظيم. أنت...صديق ليزا، أليس كذلك؟ ذهبت إلى بيتنا وسلمت على والدينا، ألم تفعل ذلك؟ وصلتني أخبار الزيارة بالكامل، لكني لا أتذكر أنت من أين؟

هذا السؤال من جديد! يفترض أنْ يكون مجرد مربع يتطلب وضع إشارة صح فيه لا أكثر، لكنه يتطلب في حالته مرافعة طويلة للإجابة عليه.

قال رشيد رافعا حاجبيه متوقعا عدم استيعاب إجابته:

- غزة؟

- بالطبع، بالطبع. يا إلهي! يا لتلك الأماكن التي تذهب إليها ليزا! أختي، كيف الحال؟

هزت الفتاتان رأسيهما في تحية لم تمتد فيها أيديهما للمصافحة.

- إذًا أنت تحب الحياة هنا يا رشيد! رشيد؟ ألفظها بالطريقة الصحيحة، أليس كذلك؟ رشييد؟ من سيأتي أيضا يا ليزا؟ عدا عن تشارلي؟

- نحن وتشارلي فقط. ثم علي، إنه كردي. هناك أيضا ستيفي التي بدأت بالعمل معنا مؤخرا لأجل الحصول على خبرة عملية.

- «ستيفي»؟
- اختصارا للاسم «ستيفاني» يا آنا.
- حسنا، دعونا نذهب ونجلس في الداخل. أنا في أمسّ الحاجة إلى كأس من النبيذ بعد هذا اليوم المضني. قطار الأنفاق! ... حي المال والأعمال بلندن أحيانا... آه، أمر يثير الضيق! ومديري... آه يا ليزا! أنا لم أخبرك عن مديري السابق؟

كانوا يتجهون صوب باب المطعم. تمكن رشيد من التقاط مقاطع مبعثرة من حديثهما:

- ... أجرت عملية تكبير للصدر ثم التهبت الجروح. على أية حال لقد تركت العمل، حلّ محلها الآن مدير حقير حقا. مثليّ الجنس، أنا متأكدة من ذلك. لا يتركني في حالي، كابوس، كابوس مزعج!
- هل هو حقير لأنه مثليّ الجنس؟

أشارت ليزا إلى الكراسي، رشيد إلى جانب «آنا»، أما هي فجلست إلى الطاولة المواجهة لهما.

- كلا بالطبع! أوه، ليزا دعيني وشأني، أرجوك! «تشارلي»، نحن هنا.

رجل بقميص عملي مريح اتجه نحو طاولتهم. حوّل رشيد بصره عن الشاب ذي الشعر الأشقر وصوّبه نحو آخر من خلفه، ذاك الذي يعتمر قبعة مستديرة سوداء. يبدو أنّ التعليم الغالي الذي حظي به هذا الرجل منحه القدرة على ضبط ملامح وجهه لتكون مستعدة لأي احتمال. كما أنّ عراقة نسبه تؤهله وراثيا للترفّع عما يكسو وجهه من نمش. صافح رشيد بقبضة ثابتة، تمهل وأنصت إلى تعليمات ليزا،

ثم جلس في مقابل رشيد. وضع المنديل الورقي إلى جانب صحنه، حرك شوكته وسكينه قليلا، أفسح مكانا ليديه.

- أرجو أنْ يكون المكان قد نال إعجابك.

كلمات ليزا خرجت من فمها تقطر لياقة وتهذيبا وأدبا. دماغ رشيد أوشك على الانفجار، مرت صور حلمتيها التوتيتين وشعر عانتها في خياله.

بدا علي لرشيد مثل نشّال. وصل إلى المطعم فتوجه مباشرة صوب ليزا، وضع يده على خاصرتها، طبع ثلاث قبلات على صفحتي خديها. كردي أم غير كردي، إنه في نهاية المطاف تركي، ومن لا يدري أنّ الأتراك على استعداد للنوم حتى مع الشيطان لنيل ولو شيء من القبول خارج بلادهم؟ أيضًا تلك الطريقة التي أمسك بها يد تشارلي بين يديه. سلّم عليه وكأنه يصافح زعيمه المنفي بعد غياب طويل! أما هو، رشيد، فخصه بمجرد إيماءة كما لو أنه عامل في محطة بنزين فرغ للتو من تنظيف سيارته. تحرك علي صوب الكرسي المحاذي لليزا.

- «يمكنني الجلوس في مكان آخر إنْ كنتما تودان الجلوس معا.» أومأت آنا باتجاه علي ورشيد، «لا مانع لديّ».

قال علي ورشيد وليزا في وقت واحد:

- كلا!

أردفت ليزا:

- ارتاحي واجلسي في مكانك.

ردت آنا وهي تنظر نظرة ذات مغزى لتشارلز:

- بالطبع. شاب، فتاة، شاب، فتاة وتحلو الجلسة.

كان رشيد قد أنهى كأسه الثانية من البيرة لدى وصول «ستيفي». دخلت متأخرة فلم تحظ باهتمام كبير. حبات العرق كأنها قروح صغيرة فوق أنفها، حبيبات أخرى بللت زغبا فوق شفتها العليا.

ساد جو من الترقب، كأنهم يقفون في ملعب طيني بأفضل حلّة، الكرة مرمية تحت أقدامهم، تنتظر من يركلها، لكن أحدا لا يفعل. بدأ علي برواية قصة هروبه من تركيا:

- كل أوراقي المهمة كانت في كيس بلاستيكي، عضضت عليه بأسناني، هكذا.

مغط فمه فانتفخ منخراه، أكمل قصته:

مكتبة
t.me/t_pdf

- رحت يسبح، ويسبح.

صححت له ليزا صيغة الفعل بالإنجليزية:

- أسبح.

- أسبح، يسبح، كنت على وشك الغرق فأنا لا أجيد السباحة. ثم صادفت سفينة فأنقذني أصحابها وحملوني معهم إلى إيطاليا.

كانت ليزا تصغي إليه، لكنها تنظر بين الفينة والأخرى إلى «تشارلز»، تشعره بأنها تصغي إليه أيضا. أما «آنا» فبدا عليها الارتباك، تبذل جهدا ملحوظا لتبدو مهتمة بالجلسة.

- «يا له من وضع مخيف!» هكذا علقت «آنا» عندما انتهى علي من قصته التي استعرض فيها مثوله مرات عديدة أمام مجلس استئناف الهجرة، آخرها كان ليلة أمس وقد تكلل بالنجاح.

كررت القول:

- يا له من وضع مُرعب!

استغل تشارلز الفرصة ليتفحص رشيد. لم يكن رشيد كما ظنّ

تشارلز. إنه يشبه صنفا من الأولاد أيام المدرسة، يعرفهم جيدا، طالما كان حذرا منهم، يدخنون في مرآب الدراجات الهوائية بعيدا عن أعين المدرسين. كلما دخنوا أكثر، زاد تعاليهم على من حولهم. معتدون بأنفسهم حد الغرور، حتى مع الفتيات، يتصرفون وكأنّ لا مفرّ لأي فتاة من الوقوع في حبائلهم. إنه يلحظ الآن بأمّ عينه ما يحظى به هذا الرجل من إطراء آنا وليزا. حدود جاذبيته لا تتوقف عند طول قامته فحسب، بل لديه أيضا أنف مستقيم، إغريقي، حاجبان غليظان، ومسحة من الملل تعلو وجهه. لم ولن يحظى هو بكل هذا أبدا، يعرف ذلك جيدا منذ سنوات مدرسته الابتدائية. أصبحت الأمور أسهل خلال سنواته الجامعية، لأنّ الفتيات يبدأن بالتمييز بين صنوف الرجال، يبحثن عمن يعاملهن معاملة أفضل. مع ذلك، وحتى الآن، يذكّره هؤلاء الرجال على شاكلة رشيد بأنّ مرحلة من حياته ضاعت سدى. مرحلة طالما ارتبطت عنده، ولسبب ما، بالحفلات الليلية على شطآن غوا الهندية.

مع ذلك، لاحظ «تشارلز» أن طريقة رشيد في الأكل لا تندرج تحت مواصفات هؤلاء الرجال الذين في باله. وضع رشيد بعناية حصته من الحمص والـ «تاراماسالاتا» وغيرها من غموس في جانب طبقه. فرم قرون فلفل حار، طلب إرجاع الفلفل الحلو إلى المطبخ، اقترح أنْ يتكلم مع الطباخ قبل أنْ يجلبوا له ما يرضيه من فلفل حار. ثم عصر على قطعته من اللحم ليمونا، طلب أنْ يجلب من المطبخ مقطّعا إلى أرباع. كل لقمة لحم يلفّها في قطعة خبز ثم يغمسها في الفلفل الحار وما في صحنه من غموس. أتى بأمر لا يدري تشارلز إنْ كان فعله عن قصد أم لا. خلط فلفلا حارا بعصير ليمون في صحن

صغير، وضعه في منتصف الطاولة ليكون متاحا للجميع. جرب تشارلز شيئا منه، لكن حلقه اشتعل نيرانا، عيناه اضطرمتا احمرارا، اضطر إلى التمخّط عدة مرات قبل أنْ يستعيد القدرة على الكلام.

- إذًا، كيف هي الأوضاع في غزة هذه الأيام؟

نبرة «تشارلز» ذكرت رشيد بأسلوب الطبيب في طرح أسئلة على شاكلة: كم سيجارة تدخن في اليوم؟ سددت ليزا نظرة إلى رشيد. استقام في جلسته، نحّى كأس البيرة جانبا، لم تلائمه بالمرة. خيّم جو من الترقب، كما لو كان السؤال صافرة الانطلاق في الملعب. راح رشيد يجيب على السؤال. اعتمد على الرسائل الإلكترونية الأخيرة بينه وبين خليل وصبري، بعض المدونات لأشخاص من جنوب غزة، وآخر ما تتبعه في نشرات الأخبار. تشارلز هز رأسه بوقار وكأنّ الأمور كانت بحسب توقعاته.

طرح تشارلز على رشيد اسم رجل من غزة وطلب رأيه فيه. شخص ترى فيه وزارة الخارجية شريكا محتملا في مبادرة سلام جديدة تنوي تدشينها. ضحك رشيد، لم يستطع كبح جماح نفسه عند سماعه ذلك الاسم.

- هذا الرجل! حسنا، أجل، إنه يتحدث الإنجليزية بصورة سليمة ولكنه لا يحظى باعتبار كبير.

- لماذا؟ هل من سبب؟

- ذهبت ذات مرة إلى إحدى حفلاته التي أقامها خلال عملية اجتياح بري تعرض فيها جنوب غزة لقصف عنيف. آنذاك اضطر آلاف من الناس إلى نصب خيام للعيش فيها بعد تجريف عدد هائل من البيوت. وسط كل هذه المآسي جرؤ على تنظيم حفلة، وليست

أي حفلة. كثيرون اتصلوا بنا وأخبرونا عنها. ذهبنا هناك حتى نتحقق بأنفسنا. رحت برفقة صديقي خليل.

- خليل الحلو؟

- أجل، هذا صحيح. هل تعرف خليل؟ أشرقت عينا رشيد لاحتمال معرفة تشارلز بخليل.

رد تشارلز:

- كلا، سمعت بالاسم فقط.

- ذهبنا إلى الحفلة... فوجدنا راقصة شرقية وكثيرًا من المحجبات. تدرون ما أقصد، نساء يغطين شعورهن؟

أومأ «تشارلز» و»ستيفي» بالإيجاب، بل إنّ «ستيفي» فعلت ذلك بحماس ملحوظ.

- كثير من الحضور كانوا سكارى، وكانت هناك أكواب على الطاولات فيها... فيها سجائر حشيش ملفوفة.

تعالت نبرة الطبيب مرة أخرى:

- حشيش؟

لاحظ رشيد أنّ الضيق يعلو وجه «ليزا». شعر كأنه خرج عن النص. لكنه كان مستمتعا بما يحظى به من انتباه، كما أنّ الحديث عن تلك الحفلة كان مُسليا. حفلة جنونية بكلّ معنى الكلمة. واصل رشيد:

- هذا الرجل جيد، لكنه لم يكن موفقا أبدا في تنظيم تلك الحفلة في ذلك التوقيت. لا أقصد أنه لا يجوز تنظيم الحفلات بالمطلق، إذ لا بد أنْ تستمر الحياة. لكن مكانة ذلك الرجل لا تسمح له بتنظيم تلك الحفلة في ذلك التوقيت. عدا ذلك، تصدر عنه أمور

جيدة أحيانا. لا بأس به، لكني لا أعتقد أنه يحظى بمصداقية عالية في الوقت الراهن. لم تكن تلك الحفلة الهفوة الوحيدة، بل هناك أمور أخرى...

- خليل الحلو ورشيد يعملان معًا في مركز توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في غزة.

قاطعت ليزا رشيد وكذلك علي الذي بدأ في سرد قصة سجنه لسنوات:

- أخبرني الآن عن المركز.

فرد تشارلز فوطة الأكل البيضاء فوق حضنه ومال قليلا إلى الوراء في كرسيه. استجاب له رشيد وقدم له شرحا موسعا عن أنشطة المركز. سرد عليه ما تحتويه صفحة الملخص لكل مقترح مشروع كتب مسودته مع خليل.

- هذا كل ما قمنا به من أنشطة. لكن للأسف لا يمكننا فعل شيء مهم في الوقت الحاضر.

- لماذا؟

- لأنهم دمروا المركز خلال المواجهة الأخيرة في آب (أغسطس) الماضي. عندما قصفوا المستشفى، هل تذكر ذلك؟

- أجل، أجل أتذكر. بعيد الانتخابات البلدية؟

- صحيح. فجر جنودهم الباب واقتحموا المركز. حطموا أجهزة الحاسوب وسطوا على كل أقراصها، حرقوا الكتب، لم يكتفوا بذلك، بل تبرزوا على الأرض. وللدقة، أنزلوا رسومات الأطفال عن الحائط، رموها على الأرض وتغوّطوا فوقها.

شهق الجميع وخلت وجوههم من أي تعبير. كأن رشيد ركل كرة أدب الحديث ملوثة بوحل الأرض وطينها إلى جوف تشارلز، لطخ كل رُقيِّه وأناقته.

رد تشارلز رافضا الانجرار إلى المطبّ الذي وضعه رشيد أمامه:

- حسنا.

قالت آنا:

- قرف!

بدت ليزا متضايقة أكثر فأكثر، أما علي فقطع مونولوجه الطويل. بدأ النادل بتنظيف الطاولة مما عليها. مسح رشيد بما تبقى من خبز آثار الحمص في طبقه. وضع يديه فوق الطاولة، باعد بينهما، قال في رأسه: «ماذا بعد؟ ماذا تريد أيضا؟» البيرة لم تلائمه، حديثه عن الأوضاع هناك، محاولته تقديم غزة كأنها صحن شطّة حارّة، أثار الحنق فيه شيئا فشيئا. اللعنة! كان يريد نسيان كل هذا. تملّكه الغضب ففقد السيطرة على نفسه.

اعتدل تشارلز في كرسيه. آنا أخذت سيجارة من علبة رشيد دون إذنه، دفعت بكرسيها إلى الوراء، ثم خرجت من المطعم. رشيد حمل العلبة، همّ باللحاق بها، لكن مزاج من هم حول الطاولة جمده في مكانه. صدر ليزا يعلو ويهبط وكأنها في معركة. ستيفي هي من كسرت الصمت بسؤالها:

- قل لي: هل يقومون بختن البنات عندكم في فلسطين؟

الفصل الواحد والعشرون

- ماذا تقصد بأنك ستأخذ أختي معك إلى الحفل الغنائي؟

لم ير رشيد ليزا بمثل هذا الغضب من قبل. انتعش مزاجه.

- لم لا؟ أنت لا تستطيعين الذهاب، من آخذ معي؟ إيان؟ ستيفي؟ كم عدد معارفي هنا؟ آنا ترغب حقا في رؤية «كلابتون». اشترت التذكرة مني وأصرت على دفع ثمنها. لا أفهم لِمَ كلُّ هذا الغضب!

كانت ليزا قد تركت علي على رأس الشارع. انحناء هامته يدلّ على أنه تعوّد على رفض من حوله له وقبوله بمعاملتهم السيئة.

- إنك لا تستوعب ما يعنيه هذا التصرف، أليس كذلك؟

- ماذا تقصدين؟

- أوه، لا شيء. أعني... هل هناك من قاسمٍ مشترك يجمعك بأختي؟

- إيريك كلابتون؟

حنقها حرك فيه مشاعر الحب. إنها تشعر بالغيرة.

- اسمعيني؟

مسّد شعرها بيديه ونزل بهما إلى كتفيها.

- إنها تجهل من أكون ولا تعرف عني شيئا. ولست متأكدة إنْ كنت أنت أيضا كذلك.

بدت ليزا كأنها ستسدد له صفعة على وجهه. عظيم! إنها تهتمّ به إذّا. كانت حمّالة حقيبته تنغرز في لحم كتفه، فأنزلها أرضًا.

- «ليزا، اسمعي...» فتح فمه ليقول لها إنه لن يذهب إلى الحفل.

- هل لديك أي فكرة عما فعلته خلال العشاء؟ لقد أسهبت في الحديث عن أخبار حفلات الحشيش في غزة؟ آخذك لتقابل شخصية مهمة جدا لكنك تتصرف كبهلوان سكران! تتمتع بسرد نميمة حول... شريكه المستقبلي في مبادرة مهمة...

- شريك في السلام؟

- أجل، شريك في السلام! حضرتك صوّرت من هم في غزة على أنهم مجرد حفنة من المهرجين، خونة، منافقين وحشاشين.

- من تقصدين بـ(هم)؟

- الفلسطينيون. هل كان ذلك أفضل ما أمكنك الحديث عنه؟ دعْ عنك المعاناة، القصف، الاعتقالات، الاغتيالات، الاحتلال اللعين وتدميره للبنية الاقتصادية. نحِّ جانبا الفقر المدقع أو سوء التغذية. اكتفيت بالجلوس ثملًا في حضور مسؤول حكومي رفيع واكتفيت بالحديث إليه عن حفلة قدمت فيها سجائر حشيش!

- لم يكن هذا قصدي! كنت أقول إنّ توقيت الحفلة كان في غير محله.

لم يتحرك علي من مكانه. شعر رشيدٌ بأنه يراقبهما عن بعد. شخص آخر كان يراقبهما وقد علت وجهه ابتسامة شامتة، رجلٌ يجلس في مقهى إنترنت.

- ربما كان من الأجدر بك أنْ تظل صامتا. اتركه يعتقد بأنّ ثمة أناسًا هناك يستحقون التفكير بهم والعمل لأجلهم.

كانت ليزا تشير بإصبعها تجاه رشيد وكأنها تود سحقه على الأرض.

- طبعا هناك أناس يستحقون منه العمل والإيمان بهم.

- كان حريًّا بك أنْ تأتي على ذكرهم. على أية حال، قل لي مثل من؟ أظنّ أنك لا تؤمن بأحد.

- حسنا، أناسٌ مثل خليل.

- عظيم! صديقك الحميم! وأين تصل بنا الأمور بعد ذلك؟ تفكير تقليدي، أليس كذلك؟ عشائري قبلي، تصطف دائما مع المقربين من دائرتك الضيقة! أنت فعلا لا تدرك ما جرى. ليس في وسعك نشر غسيلك القذر على الملأ. حشيش، فساد، نفاق، كلُّ هذه الأمور التي تحسن الكلام عنها احتفظ بها لنفسك لأنّك لا تملك ترف التباهي بكل ذلك.

- ليس في وسعنا كذلك أنْ نقدم أنفسنا دائما كشعب لبق ومهذب طيلة الوقت. ما يتعرض له الناس من ضغط وقلق هناك يصل بهم إلى حد الانتحار. وعندما يتنفسون قدرًا من الحرية تصدر عنهم أفعال غريبة. وهذا أمر مفهوم، أليس كذلك؟ الوضع هناك لا يشبه أيّ مكان آخر.

حاول الإمساك بذراعها لكنها ابتعدت عنه.

- هيا ليزا! كنت في مجرد سهرة لتناول العشاء، ظننت أنها ستكون معك ومع أصدقائك. لم أكن أدري أنه كان عليّ أنْ أتصرف

مثل خطيب يدبّ فيه الحماس خارج مسجد فيقف ويصرخ بكلام دعائي ترويجي.

- حسنا رشيد. هذا كافٍ. أريد أنْ أساعد علي بأمر ما. سأذهب الآن، ودعنا نترك الموضوع عند هذا الحدّ.

- ليزا أرجوك لا تذهبي وأنت على هذه الحال. الأمر ليس بهذا السوء. أعتقد أنّ تشارلز أحبني في نهاية الجلسة، أعطاني بطاقته، انظري؟

سحب رشيد البطاقة من جيبه لكنها أفلتت من أصابعه، سقطت على الرصيف. عندما التقطها واعتدل، كانت ليزا تقف وقد عقدت يديها على صدرها.

- إنني فعلا أشعر بالامتنان لأنك عرفتني إلى هذا الرجل، ونحن سنلتقي مرة أخرى. لا تحاولي اختلاق الأعذار الآن بمحاولة مساعدة علي، الساعة تقارب الحادية عشرة ليلا. هيا، دعينا نذهب إلى غرفتي.

- كلا يا رشيد، لقد اتفقت مع علي في وقت سابق، الأمر لا يتعلق بدعوتك آنا إلى الحفل الغنائي، ولا بما قلته في حضور تشارلز. لا بد لي بالفعل من الذهاب مع علي الآن. وضعت يدها على كتفه، دعنا نلتقِ في وقت لاحق هذا الأسبوع.

حاول أنْ يقبلها لكنه بالكاد لامس جبينها حين عثرا على عليّ. كان يجرجر قدميه قرب صندوق للبريد. تتبعها رشيد بنظره وهي تبتعد، مؤخرتها مشدودة، وبقدر ما هي جذابة إلا أنّها أسمن من مؤخرة شقيقتها.

الفصل الثاني والعشرون

- نحن على أُهبة الإغلاق خلال خمس دقائق.

اعترض العامل في مقهى الإنترنت طريق رشيد، «عليك أنْ تدفع كلفة خمس عشرة دقيقة، إنّه الحد الأدنى المسموح به لاستخدام المقهى.»

- «لا يهم، أنا في حاجة لدقيقتين.» دفع رشيدٌ الباب، «ما زال المحل مفتوحًا، أليس كذلك؟»

بعد أن تركته ليزا بدا له الشارعُ موحشًا وكئيبًا. سيارات الشرطة تحوم أمام إحدى الحانات. أوشك أنْ يتعثر ويسقط فوق متشرد يتمدد عند زاوية شارع انعطف إليه. الجو بارد جدا، المطر غزير ورائحة البنزين في كلّ مكان. الأشجار سوداء والسحاب يمرُّ سريعا من ورائها. رواد الحانات الذين طردوا منها طردا، حتى تتمكن من غلق أبوابها، حانقون، يريدون إطالة أمد سهرتهم ليغرفوا مزيدا من متعها. شعر رشيد بوحشة الغياب، غياب من ظن أنه سيلتقي بهم في لندن. إنهم ليسوا هنا والمكان الذي تخيله لم يكن موجودا. انتابه نهمٌ إلى رسائل إلكترونية تبدد ما يشعر به من غربة، تحمل إليه أخبارا من

عائلته أو من خليل. كان متأكدا أنها جاهزة تقبع في صندوق بريده الإلكتروني، تنتظر طبعها من أيّ حاسوب يتوفر له.

وطأة الحاجة التي استبدت به جعلته شرسا. واجه صاحب مقهى الإنترنت. عثر على رسالة واحدة طويلة من خليل وطبعها. لكنه لم يكن يرغب في العودة إلى غرفته بعد. مزاجه لا يحتمل «إيان»، يأتي ولا ينصرف، يحاول مثل متسول الحصول على قطعة حشيش صغيرة، يلقي على أسماعة محاضرة عن فلسطين. صاحب المحل يسحب الباب الحديدي، عيناه دامعتان من أثر البرد. قرر رشيد لدى مرور إيان في باله أنه يحب هذا الرجل الغريب. مد يده وأعطاه إكرامية. بعد أنْ استقرت رسالة خليل في جيب معطفه ودفأته، أصبحت لندن من جديد مغامرة بالنسبة له.

كانت كلّ الحانات في ذلك الشارع إما أنها أغلقت أبوابها أو أنها تهم بفعل ذلك. مشى في الشوارع الجانبية، يدخن ويردد أغنية من أغاني «فات كوردز»، نغمات الأغنية والتذاكر القابعة في جيبه عدّلت من مزاجه. راح يمشي بخفة. على مبعدة، بدت مصابيح الشارع كرات معلقة، على مقربة تستطيل في الشكل، بعد أنْ يتجاوزها تتضاءل ثم تختفي. السماء ما زالت تتمخض، لكنها متماسكة حتى اللحظة، لا مطر. اتجه شرقا، حقيبته تتدلى من صدره، وزنها يصبح أخفّ وهي بين كتفيه. عبر إلى شارع محفوف بصفين من البيوت المبنية على الطراز الجورجي، مشى بين السيارات الرابضة فيه، خاض بقدميه في برك الماء.

بعض الصبية يتجمعون أمام جدران تعلوها رسومات مرشوشة

بالدهان والنهر يلمع داكنًا ومتعرّجًا بين البنايات. مرّ رشيد بمخازن وبنايات مبنيّة على قطع أراضٍ ضيّقة مثلّثة الشكل. ما زال الصمت يخيّم على المكان، حانة تضج بأضواء صارخة، مثل مكعب من زجاج، تربض في ميدان على الطريق. تحرك في اتجاهها، لكن أجواءها بدت جامدة ومزعجة. مرّ بملصقات حائط، صور رجال في مزاج عكر، جدران من الطوب، تحتشد بما يعلوها من شعارات مطلية، جسور مترو الأنفاق، مبنى مكتبة فارغة يحرسها تمثال امرأة، لها نهدان عضليان، تحمل رمحا، مطاعم إثيوبية، نوادٍ للمصارعة، مكاتب تأجير وبيع بيوت سكنية، عربات بيع الكباب. لم يكن هناك مكان مناسب. همّ بالرجوع إلى الحانة الزجاجية، بما فيها من نساء في كعوب عالية. لكن على مسافة منه، انفتح باب حانة، خرج منه رجل، دعاه إلى الدخول.

كان مزدحما برجال يحملون كؤوس البيرة ويتحلقون حول طاولات الشرب. النادلة خلف طاولة المبيعات تلبس نظارات ذات إطارات سميكة، بالكاد يصل طولها إلى سطح الطاولة، تتحرك بسرعة، تروح جيئة وذهابا، تعبيرات وجهها جامدة. فوق كرسيين عاليين، يجلس رجلان متقدمان في السن إلى طاولة المبيعات، غطيا رأسيهما بقبعات صوفية خشنة، يتجاذبان أطراف الحديث مع امرأة، حلمتا ثدييها من تحت قميصها القطني تؤشران نحو الأرض.

خرجت الراقصة وأطلت على جمهورها بينما كان رشيد يشتري مشروبه. ارتسمت فوق وجهها ابتسامة عريضة، لوحت بشعرها في الهواء، خلعت ما تلبس، استعرضت مؤخرتها بإغراء أمام العيون الشاخصة. جسدها أملس بلا شعر، ملمسه مطاطي، انحنت ولفته

على عمود الرقص المعدني، دفعت بنفسها إلى أعلى بقوة، علقت قدميها وأرخت جسدها إلى أسفل. ظل نهداها منتصبين، جامدين، قبتين محشوتين بالسيليكون. الرجال يتكلمون بصوت خافت فيما بينهم، يتابعون العرض الراقص بتهذيب، يجتهدون في أداء دور الجمهور على أتمّ وجه. النادلة لم ترفع رأسها.

عثر رشيد على طاولة فارغة، قرب مدخل دورة المياه، تعلوها أكياس رقائق البطاطا الفارغة. ارتاح أخيرا من حقيبته. جلس مواجها بظهره الحانة والراقصات. أخرج رسالة خليل.

كيف حالك أيها الرفيق؟ أرجو أنْ تكون بخير في لندن. ما أخبار عائلتك؟ هل تأقلمت إيمان مع العيش في الخليج؟ وكيف حال ليزا؟ هل رافقتها إلى أي اجتماعات مهمة؟ وهل الإحصائيات التي بعثنا بها إليها كافية؟

مشتاق لك كثيرا أيها الحبيب. لم أذهب إلى السندباد منذ أنْ سافرت. يا إلهي كم زاد اغتيال مصطفى سيف الدين من شعبية حزبه! بات الناس بالعشرات يتهافتون على الانضمام إلى حركته. حتى والدي شعر بتنامي قوة الفصائل الإسلامية، قال لي إنني إنْ لم أقصّ شعري الطويل فسأصبح عرضة للتهجم علي بوصفي من عبدة الشيطان. صار الموضوع الذي يتحدث فيه ليل نهار. هل تذكر عبقري الحاسوب الذي كان يأتي إلى المركز؟ قبل أسبوعين، سحبه والده من البرامج التي كنت أحاول تنظيمها له وأرسله إلى مدارس دينية. عندما حاولت إقناعه بالعدول عن ذلك، وأنْ يترك الصبي في المركز، ردّ علي قائلا: ما نفع النجاح في هذه الدنيا الفانية قياسا بنعيم

الآخرة؟ لم أعرف من أين أبدأ الإجابة على ما قاله في ظلّ الظروف الراهنة.

دعني أطلعك على أخبارنا السارة الآن. تمكنا من إعادة المركز إلى ما كان عليه بعد تشغيل الحواسيب الجديدة. بالطبع بذلنا مجهودا كبيرا في التنظيف والتلميع والطلاء، لكنّ تصليح البوابة أرهقنا بكلفته المالية الأضخم. علينا في المرة المقبلة أنْ نتركه مفتوحا لنوفر على أنفسنا عناء تصليحه.

أصرف جلّ وقتي في محاولات إطلاق سراح جمال. كما توقع صبري، إنه محبوس تحت طائلة الاعتقال الإداري وعلى أساس وقائي. عثرت عليه في معسكر شوحار ٦، وهو أحد معسكرات الاعتقال التي يحبسون فيها المعتقلين في خيام، كل أربعة منهم في خيمة تتسع لشخصين. في الصيف تشويهم الشمس بلهيبها، وتضربهم الريح برمل الصحراء، أما في الشتاء فتمتلئ خيامهم بالطين.

علا صوت أغنية في الخلفية، نغماتها تدل على أنها من حقبة الثمانينات، إما أنها لـ «فلاش دانس» أو لـ«برنس». بدأت الأضواء تجول في المكان. استدار عندما أحس بشيء يكاد يلامسه، عيناه وقعتا على ملتقى فخذين يغطيه قماش قطني ملون، ثم على كأس كرتوني تهزه يد تمتد من أمامه.

أصبح متعودا على مناظر المتشردين، رمى بقطع نقدية في الكأس.

- هل أنت بخير يا عزيزي؟ لا يمكن أنْ تشاهد شيئا من مكانك هنا، سيفوتك العرض الراقص.

- «لا يهم، أنا مرتاح، لا تقلقي.» كان على رشيد أنْ يصرخ حتى تتمكن المتشردة من سماعه.

- افعل ما يحلو لك يا صديقي.

لمح النادلة وهي تراقبه عندما عدّل من جلسته وأدار ظهره مرة أخرى للحانة ومن فيها.

يبدو أنّ جمال بخير، عائلته أخبرتني أنه مسجون مع بعض الصيادين من غزة، علموه مئة طريقة لإزالة حسك السمك وطبخه. كما بلغني أنه معجب جدا بقادة الحركات الدينية ممن قابلهم هناك. لماذا أشعر باكتئاب شديد من هذا الأمر؟

صدقًا يا رشيد، لا أعرف كيف يمكن إخراج جمال من هناك. نحاول تقديم استئناف في قضيته، لكن حتى لو قبل الاستئناف فإنه سيمثل أمام محكمة صورية لعشر دقائق فقط. احتمالات إطلاق سراحه تكاد تكون مستحيلة. أهله في حالة مزرية، كان من المفروض أنْ يزوجوه في آذار، دفعوا كل ما بحوزتهم لتسديد نفقات الزواج. هل يمكنك فعل أي شيء من أجل جمال؟ هل تستطيع ليزا أنْ تقدم أي مساعدة بهذا الشأن؟

على كل حال، أفتقدك كثيرا أيها الحبيب. اذهب لأجلي إلى السينما واحضر فيلما للمخرج الإيطالي الفذ «بيرتولوتشي». ربما آتي في آذار (مارس) المقبل لحضور ورشة من تلك الورشات المشبوهة للجهات المانحة في مدينة ليدز، هذا إنْ تمكنت أصلا من الحصول على تأشيرة خروج من غزة. تحياتي لليزا وسلم على إيمان.

صديقك،

خليل

وسط البار، في مكان ما، حيث كان كعب حذاء أحد الرجلين الكبيرين في العمر يستند فوق حافة كرسيه، تصوّر رشيد جمال يقرفص في معسكر اعتقال. تحرك الكعب، فانتبه إلى الراقصة تقف إلى جانبه.

- هل لديك ولاعة؟

مالت بجذعها فوقه، أصبحت حبتا رمانها أمام عينيه، رغبة جسدها في جذب الانتباه مرهقة. الحانة تكاد تكون فارغة من روادها، النادلة وضعت كأسين كبيرين ينضحان بشراب وثلج على طاولة البيع، الراقصة أخذت كأسا منهما، عادت تتبختر بمشيتها نحو رشيد. دسّ رسالة خليل في جيب معطفه.

- هل لديك مانع؟

أومأت إلى الكرسي، فهز رأسه بالإيجاب. لكن قلقا استبد به. كانت عارية من الأسفل بلا سروال داخلي.

- ليس عرضي من شاكلة العروض التي تروق لك إذًا؟

- كلا، كنت بحاجة إلى الجلوس في مكان ما فقط.

- أوه! وحيد بلا رفيق.

- وصلتني رسالة وأردت قراءتها، هذا كل ما في الأمر. لم أشعر برغبة في الذهاب إلى البيت.

- مشاكل زوجية؟

- لست متزوجا.

- على كل حال، من أين أنت؟

- فلسطين. هل هذا شيء مهم؟

- يا للصدفة! صاحب صديقتي من هناك أيضا. نضحك ونروي

النكات دائما لأنه يحتاج إلى حمل كيس بلاستيكي شفاف فيه مشروبات كحولية حتى يردّ الشبهات عن نفسه فلا يعتقل.

- هل أنت متأكدة أنه ليس من باكستان؟

- باكستان، أجل، إنه من هناك. لكنه لا يحمل حقيبة مثل التي تحملها. ماذا بداخلها؟

- كتب.

- «أنت طالب إذًا؟» هزّ رشيد رأسه موافقًا.

- أنت مثل تلك الفتاة خلف طاولة البيع. إنها طالبة تتخصص في قضايا المرأة، رغم أنها ليست حتى مثليّة الجنس.

جاءت امرأة أخرى، مسحت برفق على شعر الراقصة، قبلتها في فمها. استدارت ونظرت إليه ثم سألت:

- من يكون هذا؟

- عرضنا الراقص ليس مما يستهويه. كنا ندردش فحسب.

حمل رشيد حقيبته واستعد لترك المكان. كانتا تراقبانه.

تحرك حارس الحانة باتجاههم، سأل:

- أيتها السيدتان، هل كل شيء على ما يرام؟

نهض رشيد وقال:

- سأذهب، لقد تأخرت.

كان الحارس يقف وراءه، اعترض طريقه.

قال مخاطبا المرأتين:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- «كل شيء على ما يرام يا حبيبي.» ردتا عليه، إحداهن كانت تحرك قطع الثلج داخل كأسها بإصبعها.

تساءل رشيد إنْ كان قد وقع في فخ رُتّب له. إنْ كان الباب كما في أفلام السينما يبدو قريبا لكن بلوغه في الواقع مستحيل؟ وإن كان سيسحب إلى داخل الحانة في حال خروجه منها أصلا؟ حاول المشي بجوار الحائط، بعيدا عن طاولة البيع وإلى حيث كان الحارس واقفا، لكنه تعثر بالكراسي.

- هل أنت بخير؟

لم لا يكون فخا؟ لو كان فخا فإنّ النادلة ذات النظارات ستنقذه. لكنه عندما جال ببصره مرة أخرى أدرك أنها غادرت الحانة.

الجزء الثالث

في الخليج

خلال الأسبوع نفسه

الفصل الثالث والعشرون

حلّقت إيمان في سماء الخليج ليلا. خزانات النفط تنتصب فوق مياهه، كأنها خنافس مضيئة في عتمة الذهب الأسود. الخط الساحلي تمدد في جوف البحر، زحف برماله وصخوره، رسم فوق سطح الماء نخيلا ولؤلؤا وتيجانًا من إسمنت، كلها تلمع بالضوء، كأنها ثقبت ملايين المرات بطرف دبوس. إيمان كانت في وادٍ آخر، غارقة في الحال الذي كانت عليه.

حققوا معها لأكثر من عشر ساعات على حدود غزة. تناوبوا عليها: جنود يافعون وكبار في السن، رجال ونساء، ملتحون وحليقو ذقون، بلباس مدني وزي رسمي، ضخام الجثة وهزيلوها. تلاشت الفروقات بينهم. ليس هناك من قاسم مشترك بينهم سوى بنادقهم، مسدسات صغيرة للنساء ورشاشات عوزي للرجال.

- لماذا كنت في سويسرا؟
- كنت أدرس في المدرسة.
- درست في مدارس سويسرا؟
- أجل لبعض الوقت.
- كم عدد الآخرين من أمثالك في سويسرا؟

- تقصد من الفلسطينيين؟
- أجل، مثلك.
- لا أدري، ربما ثلاثة أو خمسة؟
لم تكن إيمان متأكدة من الجواب الذي يريدون الحصول عليه.
- ما أسماؤهم؟
- لا أعرف.
- كيف لا تعرفين أسماءهم؟
- لأنني لا أعرفهم.
- أنا لا أصدقك.
ذهب المحقق الوسيم ليستشير بشأنها رجلا قصيرا يلبس نظارات بإطارات معدنية وملابس مدنية.
سألتها محققة ذات شعر قصير:
- هل تنتمين إلى حزب سياسي؟
- لا.
- هل تنتمين إلى حزب سياسي؟
قالتها إيمان وهي تحدق في عيني السائلة:
- لا.
- لماذا تغادرين؟
- حتى أرى والدي.
- من والدك؟
- جبريل علي مجاهد.
- إننا نعرف من يكون والدك.
- لم السؤال إذًا؟

- إنه في المنظمة.

- تركها.

- متى؟ لماذا؟

- عزوفًا عن العمل السياسي.

- سألتك متى؟

- منذ نحو ثماني سنوات.

- هل تنتمين إلى حزب سياسي؟

- لا.

فتشوا كل شيء: حواشي فساتينها وسراويلها، معجون الأسنان، مرطب البشرة، مرهم ضد الالتهاب، وقصاصات أوراق. دسوا أشياءها كلها في كيس شفاف ورموا بها في حقيبتها. بدا سيل الأسئلة والشخصيات التي تناولت طرحها عليها بلا نهاية. تشاغلت في مراقبة الآخرين ممن يحاولون العبور أو الخروج. محتويات حقائبهم ترمى فوق طاولات بيضاء طويلة، ثم ترمى ثانيةً على أرضيّة الغرفة المضاءة بمصباح نيون. نساء في أثوابهن الفلاحية المطرزة تصرخ في وجوههن مجندات في عمر بناتهن. انتهاكات صارخة تضج بها الغرفة، مثل هدير مقاتلة نفاثة تطير على ارتفاع منخفض. صراخ في وجه الجميع عدا إيمان، حصتها من الأسئلة فقط، ثم المزيد منها، والمزيد من الوجوه المختلفة. نقلوها من كرسي إلى آخر على جنبات الغرفة، ثم أعادوها حيثما كانت، وهكذا دواليك. حاولت أنْ تهدئ من روع نفسها. رددت في نفسها لا يهم، لقد مرت بما يحدث لها هنا مرات ومرات من قبل. لا يهم، لكن يدها راحت تمسح على مرفقها وهي جالسة، أصابعها تتلمس العزاء في ملمس بشرتها الطري.

سألتها صبية صغيرة تجلس بقربها: أنت في أيّ صفّ في المدرسة؟ في حضنها تمددت دمية من قماش. لوهلة شعرت إيمان بأنها أصغر من تلك الصبيّة، هي أيضا تشتاق لأمها. لكن المرأة التي تحمل رشاش عوزي توجهت إليها، انهالت عليها بالأسئلة. حلّ بها الغضب من جديد. لم تعد قادرة على تمييز من هو المسؤول في الغرفة، ماذا قالت ولمن، ولماذا ستسافر أصلا من هنا. تريد أنْ تكون بعيدة عنهم، عليهم اللعنة! تريد الإفلات من قبضتهم، من شرورهم، من حقدهم وكراهيتهم.

ليس في مخيلتها من مكان تهرب إليه الآن. تلك الفسحة الرقيقة التي كانت تلجأ إليها أحيانا لتكون مع رائد تحولت إلى حطام غرفة محترق. ليس فيها من شيء سوى قدميه العاريتين، تتدليان من فوق طاولة في يوم خانق. تهيمن على عقلها تلك المطاردة المجنونة في الأزقة والحارات، وكيف سحبها ذلك الرجل قبيل لحظات من القصف وطرحها أرضا. زياد الأيوبي، بسترته الخضراء، وبندقيته المعلقة على صدره، الذي أرعبها جدًّا وجوده هناك. أصابها الذعر لأنه رآها تلحق بذلك الرجل، مع أنّ الأيوبي هذا ليس إلا أحد مرتزقتهم، يتكسّب من جرجرة رجال مثل أبي عمر خارج بيوتهم، وعلى مرأى من عائلاتهم، بتهم غامضة ومعلومات غير موثوقة، ربما انتقاما لأحقاد وخلافات عائلية، أو انشقاقات سياسية. بالطبع ليس هناك من يحبّ جارهم أبا عمر، فهو شخص بليد وعديم الجدوى، ولكن هل هذا يعني أنّه عميل؟ إنه يعيش هناك منذ سنين وعائلتها تعرفه منذ انتقالها للعيش في تلك البناية وحتى قبل أنْ يفقد صبري ساقيه.

تجلس هناك تحت رحمتهم، يفرضون عليها انتظارا، ثم انتظارا، ثم مزيدا من الانتظار. تحركي، اجلسي، انهضي، اقعدي. لا غرض لهم سوى الإذلال. يا لهم من أعداء! أساتذة في فن الإهانة!

بدأت التقلصات بمداهمتها لحظة أنْ بدا أنّ محنتها توشك على الانتهاء. ساقوها إلى موقف للحافلات، أغراضها فوق عربة صغيرة، يحرسها أحد مجنديهم. شعرت كأنّ وحشا يمور في داخلها، أنيابه تنشب في أسفل ظهرها، كأنه يعتقد أنّ بوابة الخلاص تمرّ من هناك، ذيله السميك يضرب بطنها بشدة. حنت ظهرها: آه! لا! ليس الآن! لا طاقة لي على مواجهة آلام الدورة الشهرية!

لم يسمح لها الكلاب بفتح حقيبتها لإخراج فوطة نسائية، أو محارم ورقية، أو مسكنات ألم، أو حتى الذهاب إلى دورة المياه. عندما وصلت أخيرا إلى الجانب المصري من الحدود، قرروا أنْ يتحفوها بمعاملة خاصة على طريقتهم. إنها غرفة... يا إلهي ما تلك الغرفة! كلا، إنها لا تريد حتى معاودة التفكير في ذلك المكان... غرفة ومرافق عسكري. كأن ليس لديهم ما يفوقها أهمية ليصرفوا أوقاتهم وأموالهم عليه. لم تصلح، ولو قليلا، من هندامها إلا في مطار القاهرة الدولي. سألتها عاملة تنظيفات: «ما لك يا حبيبتي؟ سلامتك يا حبيبتي.» أعطتها حزمة من المحارم الورقية. كم أنا بحاجة إلى الاستحمام! يا إلهي! حمام فقط!

الفصل الرابع والعشرون

هبطت طائرة إيمان قبل ساعة من موعدها. جبريل يدري أنّ ابنته ستكون آخر الواصلين إلى صالة الانتظار. أحسّ بطيف «سوزي» ينخزه في بطنه. اشترى قهوة بحليب منزوع الدسم، طعمها رديء، طلب إضافة شيء من الفانيلا والكريما.

سيدة جمّلت شعرها بمشط ليلكي، طلت أظافرها باللون نفسه، ابتسمت له عندما رنّ جواله توته توت، توته توت، توت. نغم معروف تصدح به مغنية مصرية يحبها جبريل. إنّها ساحرة! رفع حاجبيه، سدد لسيدة الليلك نظرة ظنّ أنّها تنطوي على قدر من الإغواء العفوي. ابتسمت له. آه! ربما لم يحن ذلك الوقت بعد، وقت أنْ يفقد مقومات اجتذاب جنس حواء، ربما ما تزال هناك فرصة سانحة. لديه سوزي، وسوزي هي سوزي، لم يحاول أنْ يغامر بعلاقته معها قط. إنه رجل محظوظ. لكن التفكير في أنّ أبواب الأخريات مسدودة في وجهه إلى الأبد أمر يثير الهلع في نفسه.

العين التي بعث بها لتسقّط أخبار إيمان في المطار هو من اتصل به. أخبره أنّ ابنته احتجزت للتحقيق معها. طبعا هذا ما سيحدث، وهل هذا بالأمر الجديد! ما الذي كان يتوقعه ذلك الغبي؟

طلب كأسا آخر من القهوة، ثم ردّ على ابتسامة السيدة الليلكية. لكنها نهضت وتركت المكان قبل أنْ يتمكن من إحراز تقدم معها.

قراءة الصحف تثير انزعاجه بسرعة. طالع فيها أنّ الشيخ «ألف» اجتمع بالشيخ «باء» لمناقشة العلاقات الثنائية. تصفح تقارير هروب الخادمات وأحوال العمال. بحث فعثر على شذرات نفيسة من اتهامات بعلاقات غرامية خارج رابطة الزوجيّة، نشاطات جنسية شاذة، ويا للسعادة! تقرير في موضع غير بارز، يتحدث عن مزيد من الأدلة في إحدى المدارس حول ممارسات جنسية بين مثليّات في دورات المياه. قهقه جبريل بسعادة غامرة، فالسلوك المنفلت من عقال الدين يدغدغه حتى الأعماق.

استجمع قواه لدى وصوله صفحات الدوليات. عيناه تستقران بشكل تلقائي على أخبار بلاده. الصور ذاتها تعيد نفسها على مرّ السنين: حلقة العنف المتواصل، ابتسامات دبلوماسية عريضة، أطفال قتلى، شباب يرمون الحجارة، سيارات تنفجر، نساء ينتحبن أمام بيوتهن المدمرة، القيادة الباسمة، وأطفال قتلى من جديد.

- كلما زادت خساراتنا اتسعت ابتساماتنا.

تمتم جبريل وهو يحملق في صورة حقيرة بوجه خاص، يظهر فيها القادة مصطفين في ملعب غولف بولاية تكساس الأميركية:

- إنهم يعاملون كلابهم بأحسن مما يعاملوننا به.

قال شاب من خلف طاولة البيع. كان هو الآخر يتأمل كلبا أليفا يقف عند قدمي الرئيس:

- حياة كلب أفضل مئة مرة مما يشهده بعضنا من مآس.

أومأ برأسه هذه المرة إلى صورة أم مفجوعة تولول أمام طفلها الميت:

- من أين أنت؟

لم يستطع جبريل أنْ يفهم علاقة الاسم المكتوب على قميص الشاب بسحنته ولغته العربية. كان مكتوبا: مرحبا! أنا «إرنستو»، أهلا بك في «ستاربرايت». أنا في خدمتك. لو حاول أن يحزر أصل الشاب لقال إنه من بلده ولكنه ربما ولد وعاش في الأردن.

- السيد «إرنستو»؟

- أوه! كلا! إنه اسمي خلال العمل فقط.

استدار الشاب نحو جبريل تاركا غلاية الحليب الكهربائية تُصفّر.

- المقر الرئيسي للشركة يحدد لنا أسماءنا، فالبحوث المتخصصة بالسوق كشفت عن أنّ الأسماء الإسبانية هي الأكثر سلاسة عند الزبائن. اسمي الحقيقي هو سالم أبو وزير.

- أبو وزير؟ أنت من ...! أنت من قريتي!

ذكر جبريل اسم قريته، فرفع الشاب حاجبيه مندهشا.

- هل تعرف عائلة أبو وزير؟ تعرف عائلتي؟

اكتظ المقهى بالزبائن، امرأة بشرتها بلون القريدس، تنحني قرب رجلي جبريل، تقرع الزجاج بإصبعها، تشير إلى كعكعة الشوكولا، صدرها متغضن، حزمة من تجاعيد لطعتها الشمس.

- «أعرف عائلتك؟ أعرف عائلتك؟» سأل جبريل مستنكرا، أنا عمليّا عائلتك! أنا جبريل مجاهد. عائلة مجاهد وعائلة أبو وزير تزاوجوا فيما بينهم على مرّ السنين، بل منذ قرون، من أيام الصليبيين.

وضع الشاب قطعة من كعكعة الشوكولا في صحن وبدا مندهشا.

- لقد سمعت باسمك يا عمو، ألم تكن مع القيادة الخارجية؟

وجه الشاب تعلوه البثور، لها رؤوس بيضاء، تتجمع قرب منخاريه. عدا ذلك، فلو أنه خفف ما يستخدمه من كريم الشعر فسيبدو وجهه مليحًا للغاية.

- كنت في المنظمة، أجل. لكني تركتها منذ سنين. هل أنت...؟ مدير هنا؟

- أدير كل الفروع في المطار. كان لدينا فرعان عندما بدأت، وصلت الآن إلى أربعة عشر، إنه نمو باهر.

- لديكم الوكالة على ما أعتقد؟

- بالطبع.

استدار الشابُّ، سالم أبو وزير، نحو العاملين. طابور من عمال المطار ورجال الأعمال والسيّاح، يتدافعون خلف جبريل ليصلوا إلى طاولة البيع. فكر جبريل في أنّه يستعين بزجاجتي الملح والفلفل ليحدد للشاب أين تقع بيوت آل الوزير بالنسبة لبيوت آل مجاهد. لكنه قرر أنّ ذلك أمر صعب، فالقرية بُنيت فوق سفح تلين، والبيوت تتعربش على جانبيها فوق بعضها البعض.

جبريل كان قادرًا وبكل وضوح على استحضار ذلك الطفل فيه الذي عاش يومًا في فلسطين. كان دوما يرتدي سروالا قصيرا حتى الركبتين وحزاما متدليا، لباسه هذا حفظته صورة من النسيان. من خلفه، تبدو القرية سلسلة من بيوت، عقود حجرية، تتكاتف وتسند بعضها البعض، ترسم وجه المكان بنصف دوائر موزّعة هنا وهناك، شبابيك مقوّسة، قباب ملساء، وأدراج خارجيّة. ثمة أيام، تهبّ فيها عليه رائحة قريته وتداعب أنفه، كأنها جنية تغازله وتلاعبه. يصحو من حلم، فيرى نفسه صبيا، طيفا، يتراكض في الأزقة، يتقافز فوق

الأسطح، يرمح في بساتين الزيتون، ويحلق صوب كبد السماء. شمس قريته دائمة السطوع، لكنها لطيفة ليست بقاسية أو حارقة. وأحيانا، عندما يسرف في الشرب، أو خلال دردشة مع شخص من قريته أو إحدى شبيهاتها من القرى، يشعر فجأة برغبة عارمة في القول: يا إلهي! يا لتلك الأمكنة! ما رأيك أنْ نذهب إليها ونتفقدها؟ وكأنه ما يزال في نواحيها وكل ما يتطلبه الأمر هو انعطافة بسيطة فيصبح هناك. لكنه يدرك سريعا أنّ ما يود قوله لا طائل منه، بل هو سخيف للغاية! فليس في مقدوره العودة إلى ذلك المكان. إنه محروم منه وللأبد. لقد دمروه بالمتفجرات، ثم جرفوه وسوّوه بالأرض. وبعد ذلك، شقوا فوقه شوارع إسفلتية، وبنوا بيوتا سكنها آخرون.

أصحاب ملّة لا ينتمي إليها.

حاول قراءة الصحيفة مرة أخرى، لكنه لم يستوعب شيئا. أبو وزير، هه؟ كان يتمنى لو أنّ الزمن ينسيه، يعلمه ألاّ يتأثر بالماضي والحاضر، ألا يكترث لشيء، أنْ يتحرر من الماضي وكلّ ما فيه. انقضت الآن ثماني سنوات على تركه المنظمة ونشاطه السياسي فيها، لكنها ما تزال تؤثّر في حياته. عندما أعلن عن عزمه على تركها، سدد له القائد نظرة جامدة: بالطبع يا جبريل لا نريدك أنْ تتركنا، لكن هذا قرارك. على أي حال، عليك أنْ تفهم أنك قد تترك المنظمة، لكنها لن تتركك أبدا. لم يدرك جبريل مغزى هذا الكلام في حينها، ظن أنه تهديد مبطن.

لكنه كلام صحيح، ما يزال الناس يعاملونه حتى الآن وكأنه في المنظمة ولم يتركها. جبريل مجاهد من منظمة التحرير الفلسطينية. بهذا يعرفه أصدقاؤه الأجانب. يقولونها كما لو أنه سمكة قرش

مفترسة في حوض من الأسماك، وهو لا يدري أصلا كيف عرفوا بذلك. أما العرب فيتهامسون فيما بينهم: المنظمة، جبريل كان في المنظمة. يقولونها مع إيماءة معينة بالرأس، وهذا بحد ذاته كاف.

كافٍ على الأخص لمن كانوا يعيشون في الكويت حتى يمطروه بوابل من التوبيخ والتقريع. يسألونه عن النسبة الشهرية التي كانت تقتطع من مرتباتهم دعما للقضية: أولادك إذًا درسوا في مدارس سويسرا؟ أما نحن فتعطلت دراسة أولادنا وطردنا من بيوتنا في الكويت بسبب قيادتك؟ أين نسبة الخمسة في المئة إذًا؟ أضعتموها في لعب القمار في كازينوهات موناكو، أليس كذلك؟ بعد كل كدّنا وكدحنا تُركنا مع عائلاتنا نتعفن في مخيمات اللاجئين. برافو يا صديقي! برافو! كان يتجنب كل ما يمكن أنْ يثير حديثا من هذا القبيل. دائما ما يبتعد عن ذكر أي شيء يتعلق بالمنظمة، لكن لا حيلة له. ليس في وسعه أنْ يمحو الماضي وما فيه.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها جبريل بالخير لهذه الدولة الخليجية. فقد آوته رغم ماضيه وما يحمله أو لا يحمله من أوراق ثبوتية، سمحت له بالعمل فوق أراضيها. شكر كل ما حوله، محلات السوق الحرة البراقة، تزينها قرون غزال الرنة الكهربائية، تصدح فيها أغاني عيد الميلاد، المرايا العملاقة التي تمتد إلى ثلاثة طوابق، سيارة الدفع الرباعي المعروضة فوق منصة مخملية. شكر حتى مؤخرة عاملة التنظيف المنهمكة في عصر ممسحتها. تمتم في سره: كم أنا سعيد بوجودي هنا، مسرور لأنني لست هناك. لقد أدى ما عليه ولا يمكن لأحد أنْ يحمّله أخطاء المنظمة، فقد نفض يديه منها منذ أمد بعيد.

- «أنا في انتظار ابنتي، إنها قادمة من غزة.» قال جبريل عندما خفّ الإقبال على المقهى.

- «لم أعرف أنّ ذلك ممكن!» ردّ الشاب من آل الوزير.

- كلا، بالطبع ليس مباشرة من غزة، بل عبر الحدود إلى مصر ومن هناك استقلت الطائرة. لقد أوقفوها لأيام.

مقابل المقهى، انتصبت شاشة عملاقة يعلوها شريط من نقاط إلكترونية حمراء يعلن لجبريل والراغبين عن تخفيضات في محل الأدوات الكهربائية، خاصة على أجهزة تشغيل أقراص دي في دي.

- هل تأكدت أنها كانت على متن الطائرة؟

- أجل، أجل. إنها هنا في المطار لكنهم يسألونها بضعة أسئلة لا أكثر. ليس هناك من داعٍ للقلق.

لا داعي للقلق من كل ما يعرفه، لكن بالطبع من الممكن أنْ يكونوا قد التقطوا شيئا ما عنها. فحوى الرسالة التي وصلته هي أنّ إيمان، قطته الصغيرة التي سماها على اسم نجمة نجوم الرقص الشرقي في القاهرة، حاولت أنْ تتعاون مع إحدى الفصائل الإسلامية. هناك من قال إنها إنْ فعلت فإنها تراهن على الحصان الرابح، وتصطف إلى جانب الفريق الغالب، إذ إنّ شعبية هؤلاء كاسحة في كل مكان: انتخابات، انقلابات، وعمليات بهلوانية ضد العدو. لكن كل ما يفعلونه جعجعة بلا طحن. لا يتقن هؤلاء فن صناعة الأفكار أو التقاط الصورة الأكبر. زمنهم يوشك على الانحسار، هذا ما يشعر به جبريل، لا يطيق انتظار تلك اللحظة التي يحتفل فيها بذلك. إنه يمقتهم، لا يتحمل فظاظتهم ولا نفاقهم وتظاهرهم بالتدين. لم يكن لديه وقت أبدا للدين، لم ير فيه أي سبب مقنع، فالله حتما صرف

أنظاره عنهم منذ وقت بعيد. بل ليس لديه شك في أنه تخلّى عنهم في الواقع.

جيل مسكين، نظر جبريل إلى الشاب من آل الوزير وهو يفكر في ابنته. ربما يكون قادرًا في أحسن الأحوال على التمرد والعصيان، لكن هذا وحده غير كاف لصنع ثورة. إنهم يفتقدون الذهنية اللامعة القادرة على صنع الأيديولوجيا المطلوبة لتنظيم ثورة. سيتكلم معها بحزم في الموضوع، هذا ما يتطلبه الأمر.

مزيد من النقاط الحمراء تسطع فوق الشاشة. توقف النص المكتوب هذه المرة، التمع عدة مرات، ثم تطايرت الحروف وتغيرت. حتى الماركات اليابانية الشهيرة خفضت أسعارها، ستون في المئة من السعر الأصلي لأجهزة «دي في دي»، ضوء لامع، ثم ضوء لامع، وبعدها ستون في المئة!

- «هذا فظيع! كم تبلغ من العمر؟» سأله أبو وزير.

- «خمسة وعشرين.» رد جبريل، لكن شعورا انتابه بأنه يقول هذا منذ سنوات عديدة.

- «فظيع»! ردد أبو وزير مرة أخرى.

- يبدو أنّ مصيرنا يحتّم علينا أنْ نتعرض للمضايقات في المطارات وعلى الحدود وعند الحواجز العسكرية. هذا هو مصيرنا الوطني المشترك.

- أجل، نعم، نعم.

جفّ لسان جبريل من احتساء القهوة. فكر في شراء هدية لإيمان، شال حريري، قطعة مجوهرات، قبعة تعلوها ماركة شهيرة، دبوس ماسيّ للشعر، دمية على شكل جمل، صندوق من التمر. إنها

لا ريب بحاجة لكثير من الأشياء وهو لا يعرف من أين يبدأ. قام بجسّ ولمس وعصر كثير من الهدايا المحتملة، سأل عن أسعارها، عن أحجامها، تأمل في ألوانها. وصل إلى طاولة الدفع، يداه محملتان بما ينوي شراءه، لكنه قرر أنّ من الأفضل ترك الأمر لسوزي.

سعيد بفكرة تكليف «سوزي» بمهمة توجيه إيمان ورعايتها، بل وتأنيثها، إذ حان الوقت لكي تفكر ابنته في الاستقرار. مشى جبريل بتؤدة إلى قسم الأجهزة الكهربائية. ظلّ يحوم هناك حول عدد من الشاشات بمقاس ٤٨ بوصة إلى أنْ اتصل به «الواسطة» وقال له إنه برفقة إيمان وهما في طريقهما إلى بوابّة الخروج.

الفصل الخامس والعشرون

كم كانت سعيدة باحتضان والدها في المطار وبشم رائحة سيجاره ولبانه ذي النكهة الزكية وعرقه وعطره. أخذها في حضنه، فصارت بنتا صغيرة. استبدت بها عواطف جياشة، لم ترغب بأي حديث، خافت من فتح فمها، فلن يخرج أي كلام، بل ستموء كقطة. نوبة حنان جارف اجتاحتها حتى الأعماق، ساعدتها في تجاهل، بل حتى الإعجاب، بحذائه رغم أنه كارثي بحق يبدو شبيهًا بحذاء قوّاد. جال في خاطرها ما يقوله رشيد عادة: إنه يبدو مثل قوّاد من القاهرة.

لكن ما إنْ وصلا إلى السيارة حتى كانت تصرخ في وجه أبيها، تشتمه، وتلعنه. لكنّ صوتها الذي صمّ أذنيها لم يسمعه أحد سواها. فسيل المسافرين المتدفق إلى صالة الوصول، وما في جيبها من مال لم يتجاوز عشرة دولارات وخمسة عشر شيكلا، كتم صوتها ومنعها من الذهاب إلى أي مكان آخر. **أتيت إلى هنا لأنه أمرني. أوقفوني، حققوا معي لأيام، وعندما وصلت إلى هنا، وسألت: هل ثمّة بعض الوقت حتى أذهب إلى دورة المياه؟ وأنني في حاجة لأحضر شيئا من حقيبتي ولتبديل ملابسي، قال: كم يستغرق هذا من وقت؟ كلا، لا وقت لدينا. لكنه وجد الوقت ليأخذني إلى مقهى المطار ويعرّفني إلى**

ذلك النادل، وهو ابن عائلة يعرفها. نادل؟ ويعمل في ذلك المقهى؟ ألم يسمع قط بحملة المقاطعة؟

خيّم الصمت عليهما في السيارة التي دلفت إلى شارع بخمسة مسارب يقود إلى خارج المطار. انضمت السيارة إلى الزحام المروري الذي شلّ حركة السير. هل فقد والدها الإحساس إلى هذه الدرجة؟ هل من الممكن أنْ يكون بهذا الغباء؟ لكن ثمة إمارات تشي بارتباكه، فهو يلمس ظهر رقبته دونما سبب واضح. هل يشعر بحنقها عليه؟ أم أنها تتخيل ذلك؟

كان المكان غريبا عليها، لا تستطيع فيه تمييز ما هو حقيقي أو متخيل. أفقٌ تعلوه بنايات ضخمة تتألف من ثلاثين أو أربعين طابقا، أنصال مثلّمة لما دنت منها اكتشفت أنها لوحات إعلانات عملاقة. ناطحات السحاب حقيقية، لو رفعت رأسها إلى أعلى لرأت أطرافها المدببة تلمع بضوء أحمر وأصفر. بنايات أخرى بدت أسطحها كما لو أن إبهاما ضخمًا سحقها، مهّدها، وهيّأها لاستقبال المروحيات، مدارج هبوط تليق بآلهة. الفسحات الضيقة بين الأبراج تنفرج عن الصحراء، تتجلى هناك غابة من الونشات بروافعها الضخمة، كأنها أدراج مضيئة تمتد إلى قلب السماء. على جوانب البنايات هناك إعلانات ضخمة لفتيات شقراوات، سيقانهن طويلة، يضحكن، يأكلن بطيخا، ويعلقن كاميرات فوق صدورهن.

استحوذ هذا العالم الجديد على عقل إيمان، حتى شعرت، ولأول مرة، بأنها أفلتت من لعنة مشهد المطاردة. ظل ذلك المشهد يتكرر في رأسها دون هوادة: وقع خطاها في الأزقة، ملاحقتها لذلك الرجل الذي كان يُغِذُّ السير نحو نهايته، جسدها وهو يرتطم بالأرض.

غطت وجهها بكفيها خوفا من خاطر أنْ يكون شخص آخر قد رآها، أفلا يكفيها مرارة رؤية الأيوبي لها؟

- زحمة المرور تكون أحيانا سيئة جدًا.

رفع جبريل بصره نحو إعلانات حريرية حمراء تعلو الشارع: تعال وانعم بجزيرة الفردوس. أطفأ المحرك، هكذا فعل الآخرون، لا مجال أبدا للحركة. تلصص جبريل منقِّلًا نظراته بين السيارات.

- لا بد أنّ عمال البناء أضربوا عن العمل من جديد.

راح يعبث بمفتاح المذياع متنقلا بين الإذاعات الإخبارية: ... أدى نهوض الحزب الإسلامي في قطاع غزة إلى الاقتتال الداخلي بين الفصائل الفلسطينية. ويضيف مراسلنا هناك إلى أنّ هذا قد يؤدي أيضا إلى انتهاء الفساد المستشري الذي لطّخ حكم السلطة الحالية تحت لواء القيادة الخارجية السابقة.

- فاسدون؟ وهل هناك من هم ليسوا بفاسدين في هذا العالم؟ حتى في أرقى الدول مثل النرويج هناك فساد! ألهذا السبب السخيف نعاقَب بحكم ثلة من الرعاع المتدينين؟ فساد؟ سمّ لي حكومة واحدة نظيفة؟ ما الهدف من هذه الحرب الأميركية الأخيرة غير الفساد!

أغلق جبريل المذياع بحنق.

- ما الذي تقصده بعمال البناء؟

- أغبياء! أغبياء! سيرحّلون في الصباح عن بكرة أبيهم.

فتشت إيمان عن وجوه الشقراوات وشرائح البطيخ الضخمة في السيارات من حولها. رأت سحنًا لرجال غربيين في منتصف العمر، يحملقون في السيارات الرابضة بلا حراك، يقبضون على عجلات القيادة كما لو أنها ستفلت من بين أيديهم. شاهدت نسوة

يلتحفن السواد ويتشدقن باللبان، بينما تجلس في المقاعد الخلفية نساء أخريات من شرق آسيا في أزياء العمل وتضع كل واحدة منهن الصغار في حجرها. شاحنة زحفت واحتلت فسحة إلى جانب سيارة والدها. رجلان ملتحيان يومئان لبعضهما، قرص كرتوني معلق بينهما، عليه صورة إمام لبناني.

أدار جبريل المحرك، بدأت السيارات بالزحف، كأنها تسبح في سائل هلامي.

- لا تقلقي يا حبيبتي سنصل سريعا.

مسح برفق على رجل ابنته، لكن حركته جعلت إيمان تجفل. حاولت غسل بقع النزيف عن سروالها في الطائرة. ظنت أنه سينشف سريعا لأنّ حرّ الصحراء لافح كما سمعت. لكن سروال الجينز صار رطبا للغاية، فالمطار كان باردا إلى درجة التجمد. وحتى عندما خرجت من المطار لم تتعرض للهواء الحار إلا لفترة وجيزة، خلال خروجها وركوبها في السيارة. وهناك كان الهواء على غير ما تحب، رطبًا للغاية، يلتف ويلتصق بها، يندفع إلى منخريها، يحمل روائح كبريت ووهج نار، يتقيح داخل أنفها. أما جلدها فينضح بعرق يسيل فوق جسدها. بقي سروال الجينز على رطوبته، ولاحظ جبريل بَلَلَه.

- إيه؟ ما هذا؟ هل انزلق منك شيء وانسكب على ملابسك؟

- كلا، ... حاولت غسله. كانت عليه بقع من الدم. إنه موعد... بدأت بالنزيف على الحدود وأنا في طريقي للخروج من غزة. لم يسمحوا لي بالوصول إلى حقيبتي حتى أعالج الأمر، ومنعوني من استخدام دورة المياه. لهذا السبب أردت تغيير ملابسي في المطار، أنا...

- حيوانات!

ضرب بيديه على المقود، ضغط فجأة على بدالة السرعة، قفز إلى فسحة على اليمين، ارتجت السيارة بمن فيها.

- كيف يتصرفون على هذه الشاكلة؟ كيف؟

- لقد سمعت بأسوأ من هذا. قيل لي عن فتيات طلب منهن التجرد من ملابسهن بالكامل عند التفتيش. اقتادوهن واستعرضوهن في ملابسهن الداخلية فقط. ضحكوا عليهن بعد تجريدهن حتى من فوطهن النسائية...

- «لم تتعرضي للتفتيش على هذا النحو؟ هل أقدموا على ذلك؟» كانت عيناه تقدحان شررا.

- كلا، ليس في هذه المرة. مررت بهذا في مرات سابقة على معابر أخرى.

- خلص! كفاك! لا أريد أنْ أعرف ماذا يفعل هؤلاء الكلاب. لا أريد أنْ أسمع...

- أنت غاضب مني، أليس كذلك؟ بسبب هذا؟ ماذا كان بوسعي أنْ أفعل؟ لم يسمحوا لي بلمس أي غرض من أغراضي. ماذا كان من المفترض أنْ أفعل؟ أنْ أمنع النزيف من السيلان؟

كانت حركة المرور قد تحسنت قليلا. جبريل ينعطف بالسيارة، يتجاوز عن الآخرين، من مسرب إلى آخر، يضغط على بدالة السرعة، ثم على تلك التي تخففها، فتتطوح هي في مقعدها يمينا ويسارا.

- كلا، بالطبع لست غاضبا منك، اللعنة عليهم! يخرب بيتهم أولاد عرص. على أية حال، ما الذي سمعته عنك؟ ما الذي كنت

تحاولين فعله في غزة؟ وصلتني رسالة بهذا الخصوص، جاءتني من زياد الأيوبي. استدعوني إلى مكتب القنصلية الفلسطينية لاستلامها. هل تعرفين؟ جاء أحدهم إلى شقتي. يا لها من زيارة!

كانا يحتسيان الويسكي و«سوزي» في قميص نوم فاضح. سمعا جرس الباب، فظنا أنه صبي يحمل لهما كيس ثلج من السوبرماركت. «سوزي» لم تكترث بتغيير ملابسها أو رفع زجاجة الويسكي. كل شيء كان فوق الطاولة عندما دخل مسؤول القنصلية إلى شقته في منتصف الليل. آخر ما يتمناه جبريل هو الزجّ به مرة أخرى في دوامة ما يجري هناك وعلى يد هؤلاء.

- ماذا؟ الأيوبي! ذلك المرتزق من السلطة؟ حاول الاتصال بك؟

- ماذا تقولين؟ لم تتحدثين عنه هكذا؟

حركة المرور ما زالت بطيئة، أضواء سيارات الشرطة تنعكس على زجاج الأبراج الشاهقة. انعطف جبريل بشكل حاد، قطع ثلاثة مسارب دفعة واحدة، دخل إلى شارع فرعي كانا في طريقهما إلى تجاوزه، ضجيج أبواق السيارات شقّ عنان السماء.

- عمن تتكلمين؟ إنّ الأيوبي من نوعيّة الأشخاص الذين نحن بحاجة إليهم. إنه في منصب رفيع، يحظى باحترام كبير، ويتمتع بصدقية عالية.

- «كنت أظن أنك لا تعتقد بإمكانية أنْ يكون المرء في السلطة ويتمتع في الوقت نفسه بمصداقية عالية.» قطبت إيمان حاجبيها في وجهه وقالت: «كنت أعتقد أنّ هذا ما دفعك إلى ترك المنظمة والبلاد.»

حملق جبريل في ابنته، فحملقت فيه ولم ترفع عينيها. قرأ في نظراتها الكثير عن إخفاقه في تربيتها ورعايتها. قرر التغاضي عما قالته، في هذه المرة على أي حال.

- أعرف والديه من أيام بيروت. إنهما أكثر من رائعين. يحبان لفت انتباه الناس، كما يقول بعضهم، لكن ولم لا؟ إنْ كنت تستحق لفت انتباه الناس فانعم بذلك. متكبران بعض الشيء على طريقة المثقفين، غرامشي قال هذا، فانون فعل ذاك، وهكذا.

سارت السيارة في الشارع الفرعي، دخلت فيما يشبه جوف حاسوب ضخم. رقعة في قلب المدينة، معلقة بأسلاك وأنابيب، وتضج بالحياة.

بعد الطريقة التي جرّها بها وقراره بأنّ عليها أنْ تسافر يجرؤ على الاتصال بوالدها؟ عليه اللعنة! من يظن نفسه؟

- أين هما الآن، والداه؟

سيارة والدها عالقة في طريق من مسرب واحد، تقف خلف طابور من السيارات التي تشق طريقها ببطء بين صفين مائلين من السيارات المركونة إلى جانبي الرصيف. نظر جبريل إلى إيمان وقال:

- ماذا تقصدين، أين والداه؟ ألا تعرفين من يكون والداه؟ إنه ابن منى زحلان وخالد الأيوبي.

- منى...؟

هذا كل ما تمكنت إيمان من التفوه به. اقشعرّ بدنها وارتجفت أوصالها، تخشبت كالأموات. إنها تعرفهما، لم تقابلهما في حياتها، قتلا قبل ميلادها، رأتهما في الصور، شعرهما طويل، ونظاراتهما بإطارات سوداء. التهمت كتاباتهما التهاما، كانا في صدارة الأمثلة

التي تضربها عند الحديث عن سياسات اغتيال الكتاب والمثقفين في السبعينات والثمانينات. ولأنّ ذكراهما أصبحت باهتة الآن، كانت تشعر وكأنهما لها. إنهما الوالدان اللذان طالما تمنتهما لنفسها.

- كم كان عمره عندما قتلا؟

- كان صبيا، ربما في العاشرة من عمره. قتلا أمام ناظريه، فذهب عقله لبعض الوقت.

أخرج جبريل عقب سيجار من علبة سيجار معدنية مطلية بالأسود والذهبي، يحملها دوما ويتفاخر بأنها هدية من أحد الملوك. أشعل سيجاره.

- بماذا وصفتِه؟ مرتزق السلطة؟

- كان مسؤولا عن اعتقال أبي عمر.

- وماذا في هذا؟

- أكره تلك الاعتقالات. إننا نقتل أبناء شعبنا بأيدينا. ما الأدلة التي بحوزتهم؟ وما هي المحاكم التي تعقد لمثل هؤلاء؟ لماذا لا نحاكم هؤلاء المتعاونين بدل تعذيبهم وإعدامهم بالرصاص لأجل نزوات عابرة؟

سيل من الناس يمشون بين السيارات في الشارع الضيق الذي كانت سيارتهم تسير فيه. حافلة تنوء بما فيها من بشر وتميل إلى جنب، وقفت وفتحت أبوابها. تقافز منها عمال بملابس زرقاء، فوق ظهر كل واحد منهم رقم، تتأرجح من أيديهم آنية لحفظ الطعام، رؤوسهم ملفوفة بقمصان قطنية، وعلى أعناقهم مناديل رثة.

- ليست نزوة عابرة. هناك دوما محاكمات، أدلة، ومعلومات.

- ماذا؟ معلومات من متعاونين آخرين؟

- هذا صحيح، نخطئ تارة ونصيب تارة أخرى. لكننا في نهاية المطاف نمسك بهؤلاء الأوغاد. إننا في حرب لا يمكن خوضها بلا معلومات. ولو جلسنا مكتوفي الأيدي أمام تسريب معلوماتنا إلى العدو، فإنّ شعبنا سيقع فريسة الخيانة ويعاني من أجل لا شيء.

قالت إيمان بينها وبين نفسها وهي تنظر إلى السلسلة الذهبية التي تزين صدر والدها:

- نحن نعاني حقا!

- لا يمكن أنْ يكون اعتقال أبي عمر بدون دليل قوي، فعائلته، الحية، قوية ولها علاقات رفيعة المستوى. لا بد أنّ هذا الجرذ متورط في أشياء كبيرة، لا شك لدي في ذلك.

لو كانت تدري أنه ابن منى زحلان وخالد الأيوبي لكان الأمر مختلفا. حاولت أنْ تتذكر مرة أخرى ما قاله، ما كانت ترتديه، كيف كانت ملامحه، شحوب وجه، تراجعه إلى الخلف ليمنحها فسحة تتنفس فيها، كيف نظر إليها، ما قالته، للأسف! كله كان بشعا. إنها في حالة يرثى لها لفرط ما تشعر به من خزي بسبب ذلك اليوم.

دخل جبريل بسيارته في مرآب بناية بيضاء تعلو شبابيكها خطوط خضراء، أدوارها الثمانية مضاءة بمصابيح متوهجة مخفية خلف نباتات اصطناعية.

- وصلنا إلى البيت.

قالها جبريل وكأنه يقدم هدية نفيسة إلى إيمان. قالها مرة أخرى وهو يحث ابنته على الرد بما يليق:

- البيت!

المصعد الزجاجي أقلهما حتى الدور الثالث ثم توقف فجأة. المدينة من أسفل أظلمت هي الأخرى. لم يكن ثمة ضوء غير أضواء السيارات التي يطارد بعضها بعضًا في فوضى العتمة، تلهو كل واحدة منها بشم مؤخرة الأخرى.

تطلعت إيمان إلى والدها وسألته:

- انقطعت الكهرباء؟

ضغط جبريل على جرس الإنذار، صوته مثل جرس المدرسة.

عاودت السؤال:

- ما الأمر؟

- أجل، أجل، مجرد انقطاع في الكهرباء. أحيانا يكون الطلب أكبر من طاقة محطة التوليد. سعة الشبكة ليست كافية. إنهم يحاولون معالجة هذه المشكلة. لا يستمر انقطاع الكهرباء عادة إلا فترة وجيزة. هذا المكان ينمو بسرعة مخيفة، وضع غير مسبوق في تاريخ البشرية، كل هذا التعمير والتطوير ليس غريبا أنْ يصطدم أحيانا ببعض المشاكل، أنْ يواجه...

- انهيارا شاملا؟

- مشاكل فنية ثانوية ليس إلا.

رنا بناظريه إلى حلبة سباق السيارات في الأسفل، ناشد المدينة أنْ تضيء مصابيحها من جديد، أنْ تعود البنايات الكريستالية إلى توهجها، أنْ تلمع الهوائيات بالضوء الأحمر، أنْ تسري الكهرباء في جسد بنايته فتسبح في النور. لكنها لم تفعل. خفض بصره إلى أرضية المصعد.

- «ما دام لا فكاك مما نحن فيه لنجلس ونستريح.» دفع بحقيبة إيمان أرضا، «ربما نظل هنا لبعض الوقت.»

بدأت الحرارة بالارتفاع. جلسا لصق بعضهما البعض فوق الحقيبة، ذراع كل منهما تمتص عرق الأخرى.

قال جبريل بعد برهة من الوقت:

- ستأخذك «سوزي» غدا لتساعدك في إصلاح شأنك.

- من هي سوزي؟ وكيف تصلح لي شأني؟ ولأجل ماذا؟

- إنها صديقتي، اسمها سوزان في الواقع. سترافقك فيما يخص الأمور النسائية، تتسوقان وما شابه ذلك من الأمور. أنت تحبين ذلك؟

- سوزان؟ ما جنسيتها؟

- إنها مثلنا، لكنها من لبنان، من المخيمات. لا تقولي لها إني أخبرتك بذلك، فهي لا تحب الحديث في هذا الموضوع.

- «ما هذا؟» سألت إيمان بينما وضع جبريل ما يحمله عند قدميه. كان داخل كيس كتب عليه: اشتر! اشتر! اشتر! حلّق! حلّق!

- أوه، جهاز «دي في دي».

قالت بعد برهة من الوقت:

- حجمه صغير.

- أجل، إنه أصغر حجما بلا تغليف. سبع بوصات ووزنه نحو كيلو. الصندوق الكرتوني يجعله أكبر بكثير مما هو عليه في الواقع. لا أدري ماذا أفعل بكل تلك الصناديق. أحتاجها إنْ اضطررت إلى الرحيل، وأود التخلص منها في حال استقراري في البلد. صناديق فوق صناديق تتكدس في وجهي وتحتل غرفا بأكملها.

- أين يذهب أهل المدينة عندما تنقطع الكهرباء؟

- إنهم ليسوا في طريقهم إلى أي مكان. يخرجون ليهربوا من عتمة بيوتهم فحسب. يقودون سياراتهم ليجلسوا في مكان مكيف، ولو قصدوا مكانا فسيكون محطة البنزين.

أشار جبريل نحو طابور ضخم من السيارات تصطف أمام محطة للبنزين.

- وبعد أنْ قتل والداه، ماذا حصل له؟

- من تقصدين؟ ذاك الصبي الأيوبي؟ انضم إلى واحدة من القوات المقاتلة، تلك المخصصة لليافعين والشبان الصغار، الأشبال. ثم قاتل في حرب لبنان. بالطبع، نال رتبة عالية، أصبح ضابطا أو ما شابه.

- لماذا تقول بالطبع؟ ما الذي فعله ليستحق رتبة عالية؟

- لم يكن عليه فعل شيء، ألم يتعرض والداه للاغتيال؟ يعني صار ابن شهيد. متى كان يتوجب على أبناء الشهداء فعل شيء؟ لكن ينبغي قول الحق في هذا الرجل، يبدو أنه اجتهد وحقق الكثير. ضرب والدها جرس الإنذار بقبضته.

- حصل رشيد على منحة دراسية.

- «أجل، أدري.» ضرب الجرس مرة أخرى، «اللعنة!» ركل الحائط الزجاجي وهو يصيح: «اللعنة!»

التمعت المدينة من أسفل، تردد الضوء في البدء ثم بعزم وتصميم. وهج الضوء يعمي الأبصار. هبط المصعد قليلا قبل أنْ يندفع نحو الطابق السابع.

سألت إيمان عن صوت عدوٍ سريع ووسوسة أساور تناهت إلى أسماعها من داخل شقة والدها:

- ما هذا؟

- لا بد أنها الخادمة.

مكيف الهواء في الشقة بدأ بالدوران بعد سريان الكهرباء في أوصاله من جديد. تيارات هوائية وغبار اندفعت من بين فتحاته. فراشة من قصب مجدول في إطار مذهب، تتوسط الحائط خلف الكنبة الكبيرة في غرفة الجلوس، خفقت أجنحتها من هواء المكيف. حجارة كروية ملساء تتجمع بأناقة في وسط الغرفة، صحون مقعرة تزينها رمال وأصداف، تتربع فوق طاولة القهوة.

قال جبريل بنبرة كأنه أمام مأدبة شهية:

- إيه؟

قال مرة ثانية بنبرة تشي باستعراض شيء مهم أمام أيمان:

- إيه؟

خرير الماء المنبعث من نافورة صغيرة في زاوية الغرفة ذكرها بحاجتها إلى الحمام.

- إنها من تصميم «سوزي»، ستقابلينها غدا. إيه؟ ستأتي في الغد.

واصل الابتسام، لكن يبدو أنّ جبريل بدأ يشعر أنّ غرفة الجلوس لا تبدو بذلك الجمال وابنته تجيل النظر فيها.

غرفة إيمان بطلائها الحديث تنفث رائحة كريهة. تتجمع في ركن منها كومة كبيرة من الصناديق الكرتونية، كتب عليها بخط

يدوي ما كان في داخلها عند شرائها: تلفزيون بشاشة مقاس ٣٢ بوصة، مروحة كهربائية، بطاريات احتياطية، سماعات جهاز ستيريو، سماعات للأذن.

تدفق الماء من صنبور الحمام بلون برتقالي بني قبل أن يصبح لونه عاديا.

أخيرا!

الفصل السادس والعشرون

كيف يمكن تحديد كلفة إزالة شعر نصف رِجْل وجهة واحدة من خط الـ «بكيني»؟ وهل هناك أصلا عرضٌ من عروض صالونات التجميل يتكفل بإزالة جهة واحدة من خط الـبكيني؟ تسديد الفاتورة في صالون التجميل لم يكن بالأمر الهين، فـ«سوزي» ليست من الصنف الذي يمكن التلاعب معه بأي حال من الأحوال.

إيمان لم تدعهم يكملون ما بدأوا به، تركتهم وقد أنجزوا نصف المهمة فقط. خرجت ووقفت في الشمس، احمرار فوق فمها وحول حاجبيها من إزالة ما كان يكسوهما من شعر. لم يكن الأمر مقبولا بالنسبة لها.

كانت الأمور تسير على ما يرام في ذلك الصباح. ارتدت إيمان الملابس التي تركتها لها سوزي، قميصا قطنيا أزرق اللون تعلوه أحرف ذهبية، سروالا من الجينز الضيق بلون زهري، حزاما مكسوا بما يشبه فرو أرنب. قالت إيمان لسوزي عندما قابلتها في الصباح:

- شكرا آنتي على الثياب.

غطت صدرها بيديها المكشوفتين، وبدا أنها لم تكن مرتاحة من بروز صدرها في ذلك القميص.

تقشير البشرة وتنعيمها مع إزالة الشعر كان على صدارة أجندة «سوزي»، لكنها أدركت عندما رأت إيمان أنّ الأمر سيتطلب وقتا طويلا. شعرها أشعث مثل الإسرائيليات اللواتي يطلقنه دون اهتمام أو رعاية، أما شعر الحاجبين فكثٌّ متناثر في كل مكان. «إزالة كاملة لشعر الرجلين وخط الـ»بكيني»، تزجيج الحاجبين بالخيط، تصفيف الشعر، مانيكير وبديكير.» عددت سوزي المطلوب على أصابعها لفتاة ضئيلة الحجم تلبس سروالا من الجينز الضيق، وقميصا قطنيا مكتوبًا عليه: «كوندو هيفن»، وهي تتراكض في أرجاء الصالون تلبية لأوامر «سوزي».

«طبعا، طبعا مدام.» ابتسمت الفتاة التي لا يتجاوز طولها صدر «سوزي»، ثم وجهت ابتسامة لإيمان، وأخرى لحقيبة سوزي، وثالثة لطاولة البيع. ركضت إلى المطبخ، صرخت في فريق العاملات، فتيات يأكلن حول طاولة بلاستيكية، يرتدين سراويل جينز، قمصانا قطنية، وينتعلن أحذية بلاستيكية مقطعة.

شعرت سوزي بالسرور، استرقت النظر من خلف الستارة. رأت إيمان مستلقية على ظهرها، سروالها الجينز منزوع، وسروالها الداخلي مثني الأطراف. قوام إيمان ليس سيئا، قدها رشيق، وساقاها جميلتان.

سوزي قلبّت الأمر في رأسها، هل تبدد المزيد من وقتها وتطلب منهم صبغ شعر إيمان أم لا؟ اجتاحتها موجة من الطيبة والرغبة في صنع الخير، تشبه ما تشعر به عندما تلقي ببضعة قروش في حجر شحاذ.

لكن إيمان لمحت سوزي وهي تسترق النظر من وراء الستارة.

اعتدلت جالسة وقالت: «ماذا تريدين؟» هذا كل ما قالته، لكن نبرة السؤال حملت أطنانا من الحقد. لقد حاولت سوزي التلّطف مع إيمان. جبريل، جبريل، هذا كل ما كانت تفكر به، أما هذه الفتاة فلتذهب إلى الجحيم. كانت تخشى غضبه. لكن كل ما قالته لم يأت بأي نتيجة. نهضت إيمان، دفعت الفتاتين اللتين كانتا تزيلان الشعر، واحدة تنكب فوق رجلها، والأخرى على ما تحت إبطها. قطعة من السكر تلتصق برجلها، نزعتها إيمان بشراسة، اعتدلت، نقاط من السكر المختلط بالشعر التصقت بذقنها. ارتدت سروالها، هرعت إلى الخارج، ووقفت تحت الشمس.

تحت الشمس في الخارج! لا أحد يقف في الخارج هكذا.

لم تتكلم إيمان لا في السيارة ولا في مجمع التسوق. ظلت تقف على أبواب المحلات، مثل الأحداث الجانحين الذين يفدون من الدول المجاورة ليبحلقوا في النساء ببلاهة. بدت غير مهتمة بالمرة، تنتظر سوزي ريثما تنتهي، رغم أنّ رحلة التسوق تلك كانت تخصها هي. وضع سخيف!

- «والآن حان موعد الغذاء.» ساقت سوزي إيمان مبدية صداقة حميمة. مشت وهي تحمل أكياس المشتريات الضخمة. غطت الأكياس رجليها وقدميها، وبدا أنها تتدحرج عنها.

كان المقهى في ردهة الطعام بمركز التسوق. انعكاس الشمس عن القبة الزجاجية في الأعلى رسمَ فوق الأرضية الرخامية المصقولة ما يشبه حوضا بلوريا للأسماك. عثرت سوزي على ضالتها، طاولة تعلوها مظلة، تحفظهما من تيارات المكيف الهوائي.

شعرت إيمان بأنّ مركز التسوق فيه إفراط ومبالغة، كميات

الزجاج فيه مخيفة. جال في خاطرها أنّ مجرد إلقاء قنبلة متناهية الصغر فيه كفيل بإحداث مجزرة. تخيلت انهيار ألواح الزجاج فوق المتلذذين بأكل المعجنات، المدخنات ذوات الشفاه المطلية بالأحمر، الآباء والأمهات ينحنون فوق عربات أطفالهم.

آه! يا إلهي! أصاب الفزع إيمان. ما الذي كنت سأرتكبه؟ ما الذي كنت على وشك اقترافه؟ كانت تمشي مع سوزي في مركز التسوق لكنها سرحت بعيدا ووجدت نفسها هناك مرة أخرى. تطارد ذلك الرجل لكنها في هذه المرة ترى أطرافها تطير في الهواء، أو تقف مع الرجل الآخر، الأيوبي، في مدخل الفندق، توضح له لماذا وصلت إلى تلك النقطة. لكنها في الواقع لم توضح له أي شيء. يا إلهي! ما هي الفكرة التي كوّنها عنها الآن؟

سألت سوزي لترغم إيمان على رفع رأسها:

- كيف حال شقيقك؟

كانت تشغل نفسها بتحريك علبتي الملح والفلفل، بين المزهرية، وقرص رقم الطاولة، وزجاجة زيت الزيتون، دخولًا، انعطافًا، ثم خروجًا.

- إنه في لندن. كان في حاجة إلى الخروج من هناك.

ردت سوزي وهي تمسح الزيت العالق على شفتيها:

- الجميع في حاجة إلى الخروج من هناك، الجميع.

حركت يدها تطلب قدوم النادل إلى الطاولة. يبدو أنّ ثمة عيبًا في السلطة التي طلبتها.

- لا أتفق معك. لا يمكننا أنْ نهرب جميعا من هناك. إنها أرضنا، إنه شعبنا، يجب أنْ نؤدي واجبنا.

- واجبك أولا وأخيرا هو الاهتمام بنفسك. هذا ما تعلمته. هل سيظل في لندن؟

- لن يكون في وسعه ذلك. سيعود، لكنه سيحمل شهادة الماجستير. عندها، وبعد أن تتحسن الأوضاع، سيتمكن من الحصول على وظيفة. بخصوص الواجب، أنا لا أتفق...

- وأنت؟ ماذا ستفعلين؟

- أنا... أنا لا أدري. كان عليّ أنْ أغادر لبعض الوقت.

قالت سوزي بنبرة مشمئزة:

- «أدري، سمعت.» راحت تمسح شفتيها بمنديل ورقي سميك.

انتهت من أكل جبنة الـموزاريلا المخلوطة بطبق السلطة، لكنها ليست متأكدة الآن إنْ كان هذا النوع من الجبن يلائم فصيلة دمها. كان يجب استبدالها بجبن مصنوع من حليب الغنم. هل استوعب النادل هذا الأمر؟ إنْ لم يفهم ستطلب مديره وتشرح له الأمر.

- كان رشيد يعمل مع خليل الحلو في مركز أسساه في المخيم...

أوشكت سوزي على الشعور بالإهانة لدى سماعها إيمان تتحدث عن مخيمات اللاجئين. هذه الفتاة لا تدري أي شيء عن تلك المخيمات، لكنها هي تعرف، في وسعها أنْ تقول لها كل شيء عنها. في البدء، عندما كانت طفلة في بيروت، كان المخيم هو الرحم الذي يؤويهم، كان بيتهم جميعا. كلهم كانوا في انتظار عيد ميلاد واحد ليس لهم سواه، وميلادهم هو العودة، العودة، والعودة فقط. لكن هناك آخرون لم يريدوا لهذا الميلاد أنْ يحدث. كثيرٌ منهم يتمتعون بسطوة ونفوذ وتصميم على منعه، وقد فعلوا. لقد أوقفوه. إذًا لا ميلاد، ولا عودة. ثم ماذا؟

لكن سوزي لن تناقش هذا الأمر مع إيمان. مسحت شفتيها ومرّت بأحمر الشفاه فوقهما. إنهم يذهبون إلى غزة فيقصفون ويغلقون المعابر. لكن هل يمكن مقارنة هذا بما شهدته؟ بما رأته في مخيمات لبنان في عام ١٩٨٢؟ صراخ النساء وهن يغتصبن، ويُطعَنّ ثمّ يرمين في النيران لتلتهم أجسادهن، أكوام من الجثث مثل أكياس الرمل المكومة فوق بعضها لصد فيضان، قطعان من الذباب تنهش لحوما آدمية، نساء قطعت أصابعهن، جثث... هذا يكفي! أطبقت سوزي علبة مرآتها وشرحت للمدير مشكلة الجبن.

العناوين الرئيسية التي تعلو الصحيفة المنشورة أمام إيمان تقول: إضراب يؤدي إلى مقتل أربعة أشخاص وإصابة خمسة وعشرين في ظل تنامي قوة الفصائل الإسلامية... عملية السلام ليست ميتة، رئيس... يزعم... الانقسام الداخلي يؤدي إلى مقتل ثلاثة أشخاص في آخر حلقات الاقتتال الداخلي... صاحب الصحيفة خفضها فجأة فوجد إيمان تحملق فيه. ابتسم لها:

- «تفضلي»، قال لإيمان عارضا عليها الصفحات الأولى، «أرجوك، لقد انتهيت من قراءتها.»

سوزي قررت أنْ تقول لإيمان كم سيبدو وجهها جميلا أكثر لو أنها صففت شعرها في صالون التجميل، حتى ولو كانت رفضت ذلك في الصباح. ابتسم الرجل من جديد لإيمان، فاستغربت مما فعل. الفتاة خرقاء، طيلة الوقت تثني يديها فوق صدرها، تحني كتفيها، كأنها تحاول إخفاء شيء ما. تكتّف يديها كما لو أنّ صدرها هو العاري لا ذراعيها، تمشي بشكل أهوج كأنها جمل صغير. في نهاية المطاف ليس من امرأة في هذه الفتاة، ليس من امرأة أبدا. دفع الرجل بالصحيفة فوق الطاولة، نهض وغادر قاعة الطعام.

قالت إيمان بينها وبين نفسها:

- إنه ذاك الرجل، الأيوبي، في الصورة التي تعلو الصفحة الأولى! ظهره للكاميرا، سترته الخضراء، إنه في كل مكان، حتى هنا في مركز التسوق!

قالت سوزي بلهجة آمرة وبسطوة إدراكها أنها أجمل مما يمكن أنْ تصبح عليه إيمان مهما فعلت:

- ابتسمي!

حملت الصحيفة بيدها، استدارت ببطء نحو سوزي.

- تريدين أنْ تلبسيني الفساتين حتى أبتسم للرجال؟ هل هذا ما تودينه؟ هل هذا ما يريده أبي؟

أجابت سوزي بحدة:

- نحن لا نود غير الخير لك، إنْ تقبلت مني نصيحة، فبادري إلى العمل على تطوير نفسك كامرأة بدل ... ما كنت تحاولين فعله. تريدين أنْ تكوني سياسية؟ ناشطة؟ هل هذا ما تريدينه؟

تجاهلت سوزي نظرات إيمان النارية. قدرت أنّ هذا الصنف لا ينفع معه غير الوقاحة.

- ياللا!

ثم أردفتها بالفرنسية:

- «ألونزي»!

نفضت عن تنورتها الأنيقة ما عليها من فتات خبز:

- هيا بنا.

أردفت بالفرنسية:

- «آليه»!

طوت إيمان صفحات الصحيفة مرات ومرات حتى تمكنت من دسها في جيب سروالها الخلفي.

- «ربما أنت بحاجة أيضا إلى حقيبة؟» اقترحت عليها سوزي. تسلحت بالمشتريات. سحبت إيمان من ذراعها وعادت بها إلى التسوق من جديد.

الفصل السابع والعشرون

تقبلت إيمان فكرة وجوده في كل مكان حتى في غرفتها داخل شقة والدها، أو في واحة الضجر تلك. إنه يقبع فوق صفحة تلك الجريدة المطوية في جيب سروالها. من بين كل الأشياء التي جلبتها إلى غرفتها من رحلة التسوق تلك، كانت الجريدة هي كل ما يعنيها. سحبتها من جيبها، فردتها، وقفت بجانب النافذة لتتمكن من مطالعة الصورة بشكل أوضح. إنه هو بكل تأكيد، السترة الخضراء، أكتافه المنحنية قليلا. ليس واضحا ارتباط الصورة بأي من الخبرين، هذا الذي يتحدث عن الانقسام الداخلي أم ذاك الخاص بعملية السلام. لا يهم، إنه هناك وهي هنا، وهذه الصورة هي الرابط بينهما.

يا للحب وأحواله! كم هو متقلب! أو على الأقل كم هو كذلك فيما جربته إيمان منه. هؤلاء الرجال، بالكاد تعرفهم، بالكاد تحدثت إليهم أو لمستهم، يشغلون تفكيرها، يستولون على كيانها، يصيرون آلهة، تعبدهم لوهلة من الزمن، ثم ولأسباب غير منطقية، يتبددون سريعا، يتلاشون، ولا يتركون أثرا. قلما خطر رائد على بالها منذ ذلك اليوم، منذ مقتله، لم تنسه لأنه مات، بل لكثرة الأحداث وتزاحمها منذ ذلك الحين. الآن، ورغم ما يعتريها من خجل، حتى

بينها وبين نفسها، فإنّ زياد بدأ يستولي على ذلك المكان في قلبها، ويهيمن على تفكيرها.

نظرت من النافذة، طابورٌ من الشاحنات التي تخرج من الميناء، تحمل صناديق ضخمة، تسد الطريق خلفها على مرمى البصر. تزحف إلى الأمام على وقع أبواق السيارات، أسفل شبكة من الأسلاك الكهربائية. أبراج الضغط العالي تربض على جانبي الطريق، تتوزع فوق الرمال، تبتلعها الصحراء في الأفق البعيد، تصطف جنبا إلى جنب، مثل صلبان نصبت بعد ثورة للعبيد.

تدرك الآن أنه كان على صواب بشأن منار وسيف الدين. أصاب حين اعترض طريقها ومنعها من القيام بما كانت على أهبة فعله، بل حتى في دفعها نحو السفر إلى مكان بعيد. لقد تعرضت للاستغلال وتصرفت بغباء. سال الدم من شفتها السفلى من شدة ما أطبقت عليها بأسنانها. نظرت من جديد إلى صورته، كل ما تراه منه سترته الخضراء وجانب غير واضح من وجهه. مع ذلك، هناك شيء يعنيها في هذه الصورة.

تنظر فيها وتعرف إنْ في إمكانها أنْ تثق فيه، إنه لن يبوح بسرّ غبائها لأحد.

الجلدُ المحيط بفمها ما يزال يلسعها لسعا بعد إزالة الشعر منه. ألبستها سوزي ما تشتهي من ثياب، ساعدتها في أحد المحلات على وضع مساحيق التجميل على وجهها، حبيبات من الـ»ماسكارا« تتجمع في زاويتي عينيها، اجتاحتها رغبة عارمة بحكّهما، بخلع كل هذا التكلّف الرخيص عنها.

يجب أنْ تركزي على تطوير المرأة في داخلك.

ما الذي كانت سوزي تعنيه بذلك؟ اللعنة على سوزي وعلى والدها وعلى ما يريدانه لها! تتزوج وتستقر كما لو أنها كلب يحتاج إلى صاحب ليرعاه.

تردد بينها وبين نفسها أحيانا ذلك البيت من الشعر الجاهلي:

شفاء الحب تقبيلٌ ولمسٌ وسحبٌ بالبطون على البطون

بماذا يحس المرء حينها؟ لماذا وهي في هذا العمر ليست لديها أي تجربة في مثل هذه الأمور؟ مع أنها تشعر أحيانا بأنها عاشتها في حياة أخرى. ليست متفاجئة من أنّ الآخرين يلمسون عدم خبرتها، ولكن هذا الشعور يجرحها من الداخل.

لا بد لها من الحصول على وظيفة حتى تتمكن من التخلص من هذا المكان. فرغم كل المشتريات التي تتكوم في خزانتها، فإنها بلا والديها لا تملك سوى عشرة دولارات وخمسة عشر شيكلًا فقط.

كامرأة؟ ماذا عنت بذلك؟ ما الذي لاحظته سوزي؟ سوزي تعرف، لا شك في ذلك، بألّا خبرة لديها في تلك المسائل، في الأمور الجنسية، النساء من صنف سوزي قادرات على شمّ هذه الأمور بأنوفهن.

لا يمكنها بيع ما اشترته من أجل الحصول على تذكرة طيران تمكنّها من الخروج من هنا. لا تستطيع بيع أي شيء. لا وظيفة، لا نقود، لا تأشيرة. إنها عالقة في هذا المكان.

نظرت إلى الصورة في الجريدة مرة أخرى، إلى زياد الأيوبي. لقد عاملها وكأنها أحد معاونيه، تكلم إليها لا كفتاة مسكينة، بل كشخص له أهميته في تلك الأوضاع، رغم أنه كان شاهدا على غبائها وجنونها في ذلك اليوم. لقد رآها وقد أذهب الحزن عقلها،

تغطيها الأوحال من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، لكنه عاملها وكأنها تملك ما يملكه الرجال من صلابة وقوة. طوت إيمان صفحة الجريدة ونحّتها جانبا.

كان مكيف الهواء متوقفا عن الدوران. تصاعد هديره فاهتزت أكياس التسوق تحت ضربات تياراته الهوائية.

كان المكان ميتا بلا حياة. ركلت إيمان كرسيّ مكتب في غرفتها، حاولت البطش بطيف رجل الأعمال الغليظ الذي كان يتربع فوقه. تأرجح الكرسي وانزلق، اصطدم بأبراج صناديق الكرتون. انهارت، بدأت بالتساقط، ساعدتها إيمان كي تتبعثر، فركلتها مرات عديدة. سقطت كلها، بعضها إلى الخلف، وأخرى إلى الأمام. ترنّح صف منها ثم تهاوى، صندوقٌ للأحذية في أعلاه، يبدو أثقل من الصناديق الأخرى، هوى واستقر عند قدميها، تبعثرت منه صور على الأرض.

إنها صورهم عندما كانوا في قبرص وجنيف. كثير منها لوالدها، يقف إلى جانب سيارته طراز «لانسيا» الإيطالية في مونت كارلو. صور لها ولرشيد في المدرسة في سويسرا. صور مكبرة لصبري ولانا أمام كعكة عرسهما، نحتها جانبا بسرعة، اثنتان لناجي. ثم عثرت في مغلف بني تعلوه خرابيش حسابية على صور لأمها وهي ترتدي زيا عسكريا، تقف في الصحراء وتحمل كلاشينكوفا. أشعلت إيمان الضوء لتتفحص الصور عن كثب. تأملت عميقا في كل صورة، تأكدت تماما مما تراه بعينيها. الشارة التي تعلو كتف أمها هي شارة اليساريين، إنها للجبهة! أنف أمها لا يمكن أنْ يتغير شكله منذ التقاط تلك الصور إلا بعملية جراحية!

الجزء الرابع

حشود في لندن

بعد ستة أشهر

الفصل الثامن والعشرون

مدينة هادئة، هكذا بدت لندن لإيمان. وسائل المرور في الشوارع، الطائرات في السماء، الناس في ذهابهم وإيابهم، كل شيء يسير برتابة ونظام. عالم آمن ليس فيه ما يصدّعه، ما يهزه من جذوره ليلة تلو ليلة. حتى الضجيج، بدا خاضعا، متقيدا، بما حوله من نظام. كلام المارة وتعبيرات وجوههم كلها مضبوطة على إيقاع واحد. أهل المدينة يسلكون مسلكا فرديا، كل منهم يتحمل عواقب قراراته وأفعاله. ثمة خيار لديهم يحسدون عليه، قدرتهم على الانسحاب من الصورة العامة، الاطمئنان إلى أنّ كل شيء تحت السيطرة، أنّ هناك من يهتم بمصالحهم ويقوم على تلبيتها.

لكن وفي لقطة عن قرب، يبدو المكان صاخبا، ضاجا بكلام متواصل؛ لندن لا تتوقف عن الثرثرة. يحمل الهواء أجزاء مبعثرة من أحاديث لا تنتهي:

... وهكذا قلت لـ«نيشا»...

... في إمكاننا دوما السفر إلى جزيرة «إيبيزا» الإسبانية إذا فشلنا في الذهاب إلى «غوا» الهندية...

... هدمنا حائط غرفة الطعام...

... مثل حواف بان كيك من الأسفل...

... إنه يرفض الكلام مع الأطفال...

... راقصة ماهرة، جسمها رشيق، لا دهون...

... قلت له عن الـ «فياغرا»...

... والدتها شاركت في الغناء في أوبرا سيدني...

... إنه شكل خفيف من أشكال التيفوئيد...

حتى تعرف المزيد عن حياة أهل المدينة، كانت إيمان تتبع الغرباء. يسيطر عليها فضول عارم، ما شكل الحياة بلا خوف؟ ما اهتمامات من يعيشون حياة كهذه؟ بماذا ينشغل المتحررون من رعب الاحتلال وأهواله؟ لكنها سرعان ما وجدت نفسها من جديد أسيرة العالم الذي أتت منه، توقفت عن فعل ذلك.

الأخبار ساءت إلى حدٍّ مرعب، هجوم ضار على بلدة في الضفة الغربية، إشاعات عن وقوع مجزرة وقبور جماعية. مع ذلك، ثرثرة لندن متواصلة بلا خفوت، لم تتوقف ولو للحظة واحدة. المنظمات الإغاثية مُنعت من الدخول إلى المدينة، جثث القتلى تتعفن في الشوارع.

لقد استمتعنا جدا، حقا كان كل شيء رائعًا. رحلتنا الشراعية يوم الخميس؟

إنها تفعل ذلك لتستفزني في كل صباح...

لا يمكن إيصال الغذاء إلى المدينة ومصادر المياه ملوثة، الأطباء يحذرون من تفشي التيفوئيد والكوليرا.

... لو أنني ما زلت أعزب وما زال في مقدوري أنْ أحمله على الانتصاب...

عنده مساحة الأرض نفسها ولكن ثمنها أغلى...

ما زال مراقبو الأمم المتحدة ممنوعين من دخول المدينة، وأعداد القتلى ارتفعت من العشرات لتبلغ الآلاف. يومًا بعد يوم، تتعرض البلدة لقصف بالصواريخ، أو دكٍّ بقذائف الدبابات، أو بتهديم من جرافات تسوّيها بالأرض.

هل ستأخذين كاميرتك عند سفرك لقضاء الإجازة؟ ...

أنت دائما في سويداء القلب...

أجمل ستائر رأيتها في حياتي...

أصبح لغط الشوارع متواطئا مع كل صاروخ يمزق جسد البلدة، مع كل جثة ترمى في قبر جماعي، مع كل صرخة طفل فوق خرائب بيته المدمر. بعدما تمكنت إيمان من تركيب صحن لاقط جلبَ لها في غرفتها معلقين متعاطفين مع القضية لم تشعر بأي رغبة في الخروج إلى شوارع تهذي بالتفاهة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل التاسع والعشرون

رشيد وجد إيمان على نفس الحال الذي تركها عليه قبل خمسة أيام، تتكوم فوق الكنبة، تتدثر ببطانية وتتابع الأخبار. كانت التغطية بالإنجليزية: تشتبك القوات الإسرائيلية مع ميليشيات فلسطينية مسلحة.

– كيف؟ كيف يا ابن الحرام نشتبك معهم ونحن ليس في حوزتنا سوى بنادق أما هم فيمتلكون مقاتلات إف ١٦؟

فالت ومحارم ورقية مستعملة تحيط بها من كل جانب. حرك رشيد وسادة وجلس بقربها. على الشاشة لقطات من ليل البارحة، واجهات المباني منقوشة نقشا بالطلقات النارية، كأنّ البلدة برمتها قد وُخزت بالدبابيس، ثم ينفجر الركام لينفث لهيبا ونارا.

قفزت إيمان من مكانها:

– أتدري؟ إن مشاهدة كل هذا وأنت هنا أصعب بكثير مما لو كنت هناك! تراقب الناس يمشون من حولك لا يكترثون بما يجري.

– أدري يا إيمان، أدري.

حاول رشيد تهدئة أخته. كانت على وشك البكاء، أو لعلها انتهت للتو من نوبة منه. ليس متأكدا.

- مثل رفيقتي في الغرفة، لا علم لها بشيء، دع عنك الشرق الأوسط. إنها لا تهتم حتى بالسياسة في بلدها.

أليس هذا ما يفترض أنْ يكون عليه الحال؟ ألا تهتم بالسياسة؟ حدث رشيد نفسه، لكنه فضل السكوت. تعالى صوت المعلق على الشاشة من جديد: ... يبدو أن رئيس الوزراء الإسرائيلي ما زال مصمما على ما توعد به الفلسطينيين من انتقام. فقد قال في الشهر الماضي: يجب أنْ يُضرب الفلسطينيون بلا هوادة حتى يشعروا بالكلفة الباهظة.

- متى خرجت من غرفتك آخر مرة؟

- ذهبت إلى البقالة لشراء بعض الخبز.

- هذا لا يعني أنك خرجت إلى أي مكان. البقالة في أسفل البناية. متى خرجت إلى أي مكان آخر سوى البقالة؟

ردت إيمان بشك:

- منذ نحو أسبوع؟

- متى بالضبط؟

- عندما ذهبتُ إلى الحفلة التي أخذتني إليها.

- مرّت أسابيع على ذلك.

سحب رشيد الغطاء الذي تتدثر به إيمان. نهض وأطفأ التلفاز.

- إنّ ما يجري مهول، لكن لا طائل من جلوسك هنا ومراقبة ما يجري هناك طيلة الوقت. انظري إلى ذبول وجهك، هل أكلت أيّ شيء؟

هزت رأسها وأومأت إلى طبق على الطاولة فيه فتاتٌ من الخبز.

- هيا! ستخرجين برفقتي.

- إلى أين؟ لا نستطيع الخروج إلى أي مكان، لا أنا ولا أنت، هل نسيت المسيرة وقت العصر؟ ألا تذكر أنْ خليل سيأتي من «ليدز»؟

- طبعا أذكر! لكننا لو بكرنا في الخروج الآن فلن نستغرق وقتا طويلا. يجب أنْ نذهب، هناك وثيقة أفرج عنها مكتب السجلات العامة وباتت متاحة للاطلاع. صبري يلحّ عليّ كي أذهب وأجلب له نسخة منها.

اعتدلت في جلستها:

- الوثيقة التي ظلت حبيسة الأرشيف لسنوات طويلة؟

- لثلاثين سنة.

- إنها بخصوص أمي، حتما لها علاقة بالصور. لقد كانت في الجبهة وأتصور أنّ الوثيقة متعلقة بها. لا بد أنها فعلت أمرا يهمّ البريطانيين.

بدا رشيد وكأنه يرفض الإقرار بأهمية صور أمهما. فلدى وصولها، كانت تتحرق شوقا لاطلاعه عليها، لكنه عندما رآها قال لها مداعبا إنها لا تعني أكثر من أنها قضت فترة في مخيمات التدريب على القتال أو شيء من هذا القبيل، هذا كل ما في الأمر.

- هذا كل ما في الأمر؟

- بالطبع هنالك أكثر من هذا. لماذا غيّرت من شكل أنفها؟

ردّ رشيد مذكرًا إياها بأن العلاقة بينه وبين أمهما اتسمت دائما بالعناد والمناكفة:

- ربما انكسر أنفها خلال قفزها فوق خندق أو ما شابه وهي تحمل تلك البندقية.

- لو كانت الوثيقة بخصوص ماما فلا بدّ أن صبري كان سيخبرنا بذلك.

نبرته اختلفت الآن. صارت دفاعية، إذ إنّ جلب نسخة من الوثيقة كان مهمته التي تكفل بها تجاه أحد أفراد العائلة.

ردّت وهي لا تدري إلى أي حد يجب أنْ تدفع بالأمر:

- كلا يا رشيد.

- صبري قال في رسالته: والدتك وأنا على اتفاق بأنه آن الأوان ليكون هناك معرفة أكبر بأوضاعنا وبجذور الانقسام. إنه عندما يقول الانقسام فهو يقصد إما الطلاق أو أنها كانت تنتمي إلى حزب غير حزب بابا. لقد شاهدت بأم عينك كيف غيرت شكل أنفها.

سحبت إيمان الصور من بين صفحات كتاب من داخل حقيبتها.

- هذا بحد ذاته ليس دليلا على أي شيء.

شابة في مثل عمره، تطل عليه الآن من الصورة، تبتسم له، ابتسامة انتصار. كان يشك أنه سيكون على وفاق معها حتى في ذلك الحين. تلك الصورة تذكره بصورة امرأة مقاتلة أخرى ترفع البندقية نفسها، أصبحت رمزا عالميا. الشبه شديد بين الصورتين، الوقفة نفسها، الكوفية نفسها، البندقية نفسها. صورة أمه تحاكي تلك الصورة المعروفة إلى حد بعيد.

- ألم يكن في وسعهما أنْ يخبراك بأي شيء آخر عن الوثيقة؟

- أنا متأكد من أنه كان في وسعهما ولكنهما لم يفعلا. على أية حال، دعينا نذهب ونرى بأنفسنا. هيا! اذهبي واستحمي، بدلي ثيابك. دعينا نخرج.

- ماذا؟ الآن؟

كانت إيمان قد ضبطت حركتها بروتين ثلاثي الأبعاد: من غرفتها إلى التلفاز، ثم إلى المطبخ. أحيانا تأكل أو تذهب إلى دورة المياه. رفيقتها في الشقة تعطل من روتينها بعض الشيء، وهناك أيضا اضطرارها إلى الخروج لشراء طعام من محل البقالة. لكنها ذهبت إلى البقالة وعندها الآن ما يكفيها من طعام لثلاثة أيام على الأقل. لم يكن في نيتها الخروج إلى أي مكان سوى المشاركة في المسيرة عصرا. ما نفع الخروج وسماع الناس يشكون من طلاء غرف الجلوس في بيوتهم أو تعطل التدفئة المركزية في شاليهات التزلج؟ كان العيش في المثلث الذي رسمته لنفسها مريحا ومناسبا لها، بل هو كل ما كانت في حاجة إليه هناك.

- تريد الذهاب الآن؟

- أجل وستأتين معي. ما المشكلة في ذلك؟ المسيرة لن تبدأ قبل الساعة الثانية. نسخ الوثيقة لن يتطلب وقتا طويلا، وربما لن يكون فيها الكثير على أية حال.

- كيف الطقس في الخارج؟

- ومن يهتم لهذا؟ إنها لندن! حالما تجهزين نفسك سيكون الطقس قد تغير. ابتعدي قليلا عن الأخبار، خلص! بِكَفّي! ليس بوسعك فعل شيء والبكاء غير مجدٍ. هيا! تحركي.

حمل رشيد إيمان إلى الحمام كما لو أنها عروسه التي توشك على الفرار منه ليلة الزفاف. كادت تضحك.

- حسنا، حسنا. دعني! يجب أنْ أجلب ثيابا من الخزانة. اتركني!

فوق الطاولة كتب إيمان الدراسية، ما زالت جديدة لم تلمسها يد. بقع قهوة وأخرى من نبيذ، تعلو سطح السجاد. سقف رمادي

واطئ وحيطان طليت حديثا. الإطلالة من النافذة معقولة، فتحها رشيد: شاحنات فوق الشارع، سرب من الطيور في السماء، أنغام الـ «راب» وأغان بنغالية تتعالى من بعض السيارات. ثمة أجواء من دفء قلق. حلّ الربيع على خجل، تجلى لبضعة أيام، ثم اختفى بلا أثر. هبت أنسامه، فازدادت لندن تطرفا: سماؤها، عشبها، حدائقها العامة، ضجت بصخب ألوان زاهية، بلحم عار، وضحكات عالية. دفقة الحياة هذه مربكة، فخلال ساعات يكفهر الجو ويهطل المطر من جديد. تنعكس مصابيح الشوارع اصفرارا على وجوه الموظفين، يغذون السير نحو مترو الأنفاق، يتكدسون في الباصات التي تقلهم إلى منازلهم، وجوههم تبدو عليلة، بحاجة إلى قسط من الراحة.

انتظر رشيد حتى سمع صوت الماء يعلو في الحمام. أدار التلفاز ليستمع إلى بقية نشرة الأخبار.

في الحمام رأت إيمان العلامة، بقعة وردية على سروالها الداخلي. أغلقت عينيها وجلست فوق المقعد، ستكون الأمور على ما يرام. فعلت ما كان في نيتها فعله وليس من عواقب. كان الأمر سلسا، أقدمت عليه ومرّ بسلام. تدفق الماء بشدة، ضرب شعرها، تقافزت خصلاته وانتفش. رسم شارة الأصبع البذيئة لسوزي وفتياتها الفلبينيات، لمجفف الشعر الكهربائي وخيط تزجيج الحواجب.

لوّح رشيد بكتيب دعائي لجمعية خيرية عندما خرجت إيمان من الحمام.

- لا يخصني. إنه لإيفا، رفيقتي في الغرفة. تهتم بمثل هذه الأمور.

ذهبت إلى غرفتها والمنشفة تغطي جسمها. رفع رشيد صوت

التلفاز، أخبار الوطن من جديد. الصحفيون لم يسمح لهم بالاقتراب من البلدة، كلهم برفقة الجيش المرابط في محيطها، يرتدون سترات المحتل الواقية من الرصاص، يستخدمون تعبيراته: ضربات تكتيكية، صواريخ موجهة، ميليشيات مسلحة. بوووم! صاروخ آخر، بوووم!... تقارير غير مؤكدة عن عمليات قتل جماعية... مقاومة شرسة... ضغط على المفتاح وأغلق التلفاز.

قال عندما خرجت إيمان وهي ترتدي سروالا من الجينز ومعطفا شتويا:

- كنت أظن أنّ رفيقتك في الغرفة لا تهتم بشيء؟

- إيفا؟ إنها تساهم في أنشطة خيرية لأنّ ذلك يضفي السرور على قلبها، لكنها في الواقع لا تهتم بشيء.

ألقت إيمان بعض الأشياء في حقيبتها: مفاتيح، محفظة، تذكرة المترو، تفاحة، وكتاب الشعر الذي تضع صور والدتها بداخله.

- إذًا ما زلت تستمتعين بالخليع من الشعر الجاهلي!

ابتسم بمكر وهو يلتقط كتاب الشعر من حقيبتها. ركلته إيمان برجلها.

- «اخرس يا رشيد، إنه ليس خليعا.» شعرت بالاستفزاز.

استنفرت وكانت على وشك الهجوم عليه وعلى جنسه من الرجال.

- الخوض في هذه المسألة بالنسبة لك كرجل أمر مقبول لا يكترث له أحد.

- أي مسائل هذه؟

- «لا شيء.» تراجعت عن هجومها. يستحيل أنْ تناقش معه هذا الأمر. تابعت بعبوس:

- إنها تقوم ببعض الأنشطة الخيرية، هذا ما كنت أقوله.

- الأعمال الخيرية أفضل من عدم القيام بشيء.

- الأعمال الخيرية تدعم النظام القائم ليس إلا.

- تتكلمين بطريقة تذكرني بماما.

- هل هذه الأشياء لها؟

أشار رشيد إلى معطف أبيض وسماعات طبية معلقة على مشجب إلى جانب وشاح رثّ.

- إنها تدرس الطب.

- لا يمكن أنْ تكون غبية إذًا.

- ليست غبية، لكن ليس لديها أي اهتمامات. هذا أسوأ.

احتضنت إيمان ذراع شقيقها طيلة الطريق إلى محطة المترو. ظلت تحتضنها إلى أنْ عثرا على مقعدين في القطار. شعرت بالحرّ. خلعت معطفها، ثم احتضنته هو الآخر.

- «لست مقتنعة بأنه كان يستحق.» قالت إيمان لدى توقف القطار في محطة على طريقهما.

- ما هو هذا الذي لا يستحق؟

- الاستعمار! مئتا سنة في الهند، ونحو مئة أخرى في مصر، آلاف السنوات في آسيا وأفريقيا. لو جمعتها معًا فإنها تمثل تاريخ الحضارة الإنسانية. لأجل ماذا؟ حتى تصنع البشرية مكانا كهذا؟

بدت إيمان وكأنها تكلم نفسها:

- ليسكنه أناس مثل إيفا؟ ما جدوى ذلك؟

- ما المشكلة بينك وبين إيفا؟ لماذا تتهجمين عليها طيلة الوقت؟

سكتت إيمان، زمّت وجهها.

- لقد حملتها على البكاء هذا الصباح.

- لِمَ فعلت ذلك؟

- حاولت الحديث معي بشأن ما تتناقله الأخبار هذه الأيام. راحت تتكلم بطريقة هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي. تلك الموضوعية السمجة التي تتذاكى عليك وتصرّ على استعراض وجهات النظر الأخرى بالتساوي! كررت على مسامعي تلك الألفاظ: إرهاب وديموقراطية. فقدت صوابي.

- ماذا قلت لها؟

- لا يهم، لكني جعلتها تبكي. هل ارتحت الآن؟ أكره من يحاول الالتزام بالحياد بينما تحلّ الكوارث بالآخرين.

كانت تعالج بظفرها ملصقا على يد المقعد، تتجنب النظر في عيني رشيد.

- قلت لها إنها لا تفهم شيئا، وحدثتها عن تغريد ورائد وعمليات القصف. ثم قلت إنّ كل أنشطتها الخيرية ما هي إلا مضيعة للوقت، وإنها لم تفعل أي شيء في حياتها يسهم في تغيير حياة ولو شخص واحد نحو الأفضل.

أطالت النظر في حذائها ثم قالت:

- إني نادمة لأنني تكلمت على نحوٍ شخصي، لكنني كنت غاضبة. لم أكن منصفة بالمرة.

نهضا وركبا في قطار آخر. حشرا نفسيهما بين جموع المتسوقين

في عطلة نهاية الأسبوع حيث تحتشد عربات الأطفال وأمهاتهم. على منصة القطار، عثر رشيد على علبة شراب فارغة، راح يلهو بركلها لبعض الوقت. فكر في أنْ يطلب من إيمان الاعتذار من إيفا، ولكنه يعرف شقيقته، إنه يستبعد أنْ تفعل ذلك، رغم أنه يشعر بأنها تريد منه أنْ يقول لها أنْ تفعل.

- لست قلقا من أنْ يفوتك لقاء خليل؟

- سنعثر عليه في المسيرة.

- و»ليزا»؟

كانت إيمان تنتظر من شقيقها أنْ يأتي على ذكر ليزا، لكنها كانت سعيدة لأنه لم يفعل. رشيد لاحظ بعض الجلد الميت حول إصبعه الوسطى، راح يقضمه بأسنانه.

سحبت إيمان يده من فمه:

- لا تفعل ذلك.

- إنها بخير، لكنها مشغولة جدا بتدبير شخصيات مناسبة لإلقاء كلمات في المسيرة. زياد الأيوبي سيكون من بينهم. هل تذكرين هذا الاسم؟ ذلك المقاتل من الحرس الوطني؟

- سيأتي؟ إلى هنا؟

طبعا سيأتي! لا بد أن يأتي! قررت سريعا بينها وبين نفسها أنه حضر إلى هنا لأجلها.

- لا يمكن أنْ يكون هنا! لماذا؟ لماذا انتقته «ليزا» من بين كل الشخصيات الأخرى؟

- السلطة غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة وقررت إرساله بدل شخص آخر. يبدو أنّ في حوزته جواز سفر أجنبيًّا مما يعني أنَّ حضوره إلى هنا أسهل من غيره. ما الذي دهاك؟

- لا شيء. لماذا يمتلك جواز سفر أجنبيًّا؟

- وكيف يفترض أنْ أعرف أمرا كهذا؟

دخلت فتاتان تلبسان ثيابا متناسقة، بطن إحداهن مرتخ والأخرى مشدود.

همست لرشيد:

- هل تعرف أنه ابن منى زحلان وخالد الأيوبي؟

- اللذان تم اغتيالهما في بيروت؟ كلا! لا علم لي بذلك.

الفتاتان اللتان جلستا مقابلهما تشاركتا في سماعات للأذن. كل واحدة وضعت سماعة في أذنها ثم وصلا السماعات بهاتف جوال. لفتت إحداهن لدى دخولها نظر رشيد. جلست وهزت مؤخرتها قليلا فوق المقعد، لفّت ساقها اليمنى على اليسرى، ثم غيرت وضعية جلوسها فلفت اليسرى على اليمنى. فعلت كل هذا لأجله.

لاحظ نبرة الإعجاب في كلام شقيقته. شعر بالتبرم والضيق من زياد الأيوبي هذا. تمتم بينه وبين نفسه ولِمَ كلُّ هذا الإعجاب؟ والداه، أجل، يستحقان الاحترام والتقدير، أما هو فلم يأت بشيء عظيم. يتمه لا يجعل منه بالضرورة شخصا أفضل أو أكثر شجاعة من الآخرين. بل ربما، وعلى الأرجح، يحوله إلى شخص معقد نفسيا. لن يدخل في نقاش معها حول هذا الموضوع، قد تكون مثل صبري أو أمه. إنهم عائلة واحدة أما هو فدخيل عليهم.

- أشعر أننا لم نجلس بما فيه الكفاية منذ وصولك إلى هنا، بالكاد رأيتك. ما أخبار دراستك؟ لم تحدثيني عنها بالمرة.

- مكلفة.

- هل تستحق؟

- «أبدا! قلت لبابا إنه مجنون لأنه يسعى إلى إرسالي إلى هنا، لكنه كان مصمما على عدم عودتي إلى غزة.» زمّت وجهها مرة أخرى، «أو البقاء في الخليج».

- على ماذا اختلفتما بالضبط؟ ماذا حصل؟

- أبدا لا شيء! حاولت تجنب المشاكل قدر المستطاع، صدقني. لكني لست من صنف «سوزي». ظللت اختلق الأعذار لأتجنب جلسات القهوة الصباحية أو تناول طعام الغذاء معها ومع صاحباتها، حتى توقفت هي عن دعوتي.

- هذا كل ما في الأمر؟

- تقريبا! القشة التي قصمت ظهر البعير هو ذلك اللقاء الذي رتبته سوزي حتى تعرفني بشاب أميركي من أصول فلسطينية. آه يا رشيد! فقط لو رأيته...

- قبيح الشكل؟

- كلا، أقصد لو سمعت ما قاله! ألقى عليّ محاضرة ملخصها المفيد هو أننا نستحق كل ما يحصل لنا، وأنّ العرب لم ينضجوا بعد ولا يعرفون كيفية التفكير بشكل عقلاني. كل تلك الكليشيهات التي تجدها في تقارير الأمم المتحدة حول تخلفنا التنموي والثقافي. حركت يديها في الهواء، آه! تذكرت! وكيف ينبغي لنا التمسك بعملية السلام لأننا بدونها لن نتمكن أبدا من استرداد أي شيء. ما زاد الطين بلّة، هو أنّ هذه المحاضرة الطويلة يلقيها عليك شخص يرتدي جاكيتا صوفيا في جوّ خانق حرارته تصل إلى خمسين درجة! ولم يزر فلسطين في حياته أبدًا!

- لم تردّي عليه بشكل شخصي؟ هل فعلت؟

- كلا! لم أتحدث بشكل شخصي ولكني... أعني... تطرقت إلى تاريخ العرب، وتأثير الاستعمار، والحاجة إلى المقاومة. لم آت بجديد، هل تفهمني؟ سردت الشواهد الاعتيادية في هذا السياق. كانت الأمور ستسير على ما يرام لو أنه لم يذهب لأمه ويخبرها بما جرى. أمه نقلت الحديث إلى سوزي، وما وصل إلى بابا من سوزي هو أنني شيوعية متعصبة تؤمن بأفكار خطيرة.

بدأ رشيد بالضحك:

- وهل هو من عملاء وكالة الاستخبارات الأميركية أيضا؟

- «من يدري؟ ربما. كان الأمر مضحكا بالنسبة لي أيضا، لكن بابا فقد صوابه. راح يصرخ ويشتم ويقول: إنّ هذا الأمر سيشوه سمعته وسمعتي، صبّ لعناته على من ورطت نفسي معهم في غزة. خلاصة الأمر أنه قرر أنّ لا مجال لبقائي في الخليج. كنت أعتقد أنه سيهدأ وينسى الموضوع، لكنه لم يغير رأيه حتى بعد أنْ خمد غضبه وعاد إلى هدوئه. بحث بنفسه واهتدى إلى هذه الدراسة التي أقوم بها، تقدم بطلب تأشيرة لي وبقية القصة معروفة. لم أره من قبل على مثل هذا الإصرار تجاه أي أمر آخر.» هزت كتفيها، «على أي حال، كم هو رائع أنك هنا!»

- أنا أيضا سعيد بوجودك هنا، رغم أنني لا أراك كثيرا. ما الذي حدث معك في حفلة ستيفي؟ لقد اختفيت فجأة.

- كنت متعبة فذهبت إلى شقتي.

- مع من؟

- مع الإنجليزي.

- نحن في لندن! هناك الكثير من الإنجليز! هل لهذا الرجل من اسم؟

- «تشارلز».

- «تشارلز دنهام»؟

سألها رشيد وقد تذكر الاسم من البطاقة التي يعلوها إكليل غار كثيف:

- ذاك الذي يعمل في الخارجية؟ شخصيته جامدة غير مرحة، لكنك قضيت وقتا طويلا في الحديث معه. هل يروق لك؟

- شخصيته ليست جامدة! وصفته بذلك لأنه إنجليزي فقط! لأنك تستسهل اللجوء إلى الصور النمطية. إنه شخص عادي. انظر! ها قد وصلنا، هيا بنا.

الفصل الثلاثون

بدا من يتكلم على الطرف الآخر من جهاز الـ «إنتركوم» متضايقا وفي عجلة من أمره.

- عذرا لا أستطيع سماعك بوضوح، تفضل ادخل.

دفع خليل الباب ودخل إلى الممر. دراجات هوائية تصطف على جانبيه، إعلانات وجبات سريعة تغطي حيطانه. صعد السلم، درجاته تتدثر بسجاد لونه اختفى تحت طبقات الوحل. وصل إلى الشقة في الطابق الأخير. فتاة في ملابس رثة، بشرتها رخامية وحاجباها واهيان، تقف في انتظاره على الباب، تبدو مجهدة.

- أنا خليل صديق إيمان ورشيد.

كان يلهث لدى وصوله الشقة.

- لقد خرجت للتوّ. إيمان التي لا تترك الشقة إلا نادرا ليست موجودة الآن! لا أدري أين ذهبت.

كانت في طول خليل، تلبس نظارات بإطارات محنية.

- أنت غير محظوظ! الأسبوع الماضي بدأ وانقضى وبالكاد خطت خارج عتبة الشقة.

أنفها يرتعش قليلا، كأنها تعاني من زكام. نظرت إلى ما يحمله

خليل من حقائب، إحداها صغيرة فوق ظهره، والثانية رياضية منتفخة لكثرة ما فيها.

- من أين أتيت؟

- من ليدز. لكني أعرف إيمان ورشيد طيلة حياتي، نحن الثلاثة نعيش في غزة.

شعر خليل بضرورة تعريفها بنفسه وبلغة إنجليزية سليمة وواضحة.

- لا أفهم لماذا ذهبا وتركا الشقة! قطعت كل هذه المسافة الطويلة حتى أراهما ونذهب معًا إلى المسيرة. لقد أصرا على حضوري ومشاركتي فيها.

- «من الأفضل لك أنْ تدخل إذًا وتنتظرهما هنا.» قالت إيفا وهي تفتح الباب على مصراعيه. أردفت:

- أو اترك حقائبك على الأقل؟

خلع خليل حذاءه ووضعه خارج الباب. تطلعا معا إلى قدميه في جوربيه السميكين.

- لا أدري ما بها، أحيانا تخرج طيلة الليل، وأحيانا تجلس لأيام عديدة أمام التلفاز دون حراك، خاصة خلال هذا الأسبوع.

كان خليل ما يزال يمسك بمصراع الباب المفتوح. يبدو أنّ هذه الفتاة لوحدها في الشقة. في مثل هذه الحالات في غزة يجب أنْ يترك الباب مفتوحا، حتى يطمئن الجيران بأن ليس ثمة ما يثير القلق. تمهل قليلا، حاول جسّ نبضها، أغلق الباب ودخل. يبدو أنها لا تشعر بما ينتابه من حرج بسبب خلوتهما في الشقة. أومأت برأسها نحو جهاز التحكم عن بعد.

- هل ترغب بمشاهدة التلفزيون؟

وضع خليل جانبًا إطارًا كبيرًا يضمّ نسخةً مطبوعةً من إحدى لوحات غوغان، وصحنًا للفاكهة فيه حبة تفاح مجعّدة.

- كنت على وشك إعداد فنجان من القهوة.

أشارت في اتجاه المطبخ:

- هل ترغب ببعض القهوة؟

- أجل.

كان مرتبكا لا يدري ماذا يفعل. في إمكانه أنْ يصرف الوقت في الدراسة وهو ينتظر صديقيه.

- هل أنت زميلة إيمان في الشقة؟

ليس من اللياقة تجاهل الفتاة وهي تعد له القهوة.

كانت الغرفة تهتز من ضوضاء الزحام في الخارج: هدير محركات، موسيقى تصدح من سيارات، مركبات تسرع وأخرى تبطئ، دويّ سيارات إسعاف. سحبت إيفا مصراع النافذة إلى أسفل، لكن صوت الأغنيات التي تصلهم عبر الحائط من شقة الجيران بقي مسموعًا.

- أعتقد أنّ إيمان لو خيّرت لما كانت اختارتني رفيقة لها في الشقة. الجامعة هي التي تقرر في هذه المسائل. لم نتعرف على بعضنا إلا بعد أنْ سكنا معًا.

طردت إيفا بيدها الذباب الذي يحوم فوق التفاحة الذابلة. جلست على حافة كرسيها كما لو كانت ضيفة خليل ولا تدري ماذا تفعل بنفسها.

- ولماذا لا تختارك رفيقة؟

خطر ببال خليل قضاء الوقت في تفحص ملاحظات دوّنها خلال ورشة العمل التي حضرها قبل المجيء إلى لندن. بدأ بسحبها من الحقيبة، ثم غير رأيه، فأعادها إلى حيث كانت.

- إنها لا تحبذ آرائي السياسية، أو لنقل إنها تمتعض مني لعدم اهتمامي بالسياسة.

كان في نبرتها شيء من السخط.

- حقا؟

ابتسم خليل. تخيل إيمان عندما تفقد السيطرة على أعصابها.

- لا تتضايقي من إيمان. أحيانا تقسو بلا قصد منها فيما يكون سبب انزعاجها الحقيقي هو ما يجري هناك.

- هل تعتقد ذلك؟

عضت إيفا بأسنانها على جزء من شفتها. راحت تقضم الجلد من فوقها.

- بكل تأكيد! أعرفها منذ كنا صغارا. أحيانا تنفجر في وجه الشخص الخطأ وفي اللحظة الخاطئة.

- حقا؟ كنت أظن أنني السبب.

اختفت عيناها. تصاعد البخار من قهوتها وتكثف فوق زجاج نظارتيها، خلعتهما وراحت تفرك عينيها.

- هل تعرف هي بمجيئك إلى هنا؟

- شقيقها رشيد يعرف بالتأكيد، حددنا موعد لقائنا قبل أسابيع. هناك مظاهرة ضخمة ستنطلق في الساعة الثانية، لكنني لم أستطع التواصل مع أي منهما منذ الصباح.

خلع خليل معطفه. إيفا حكّت أنفها بظهر كفها. أشار خليل إلى

كرسي. لا يبدو أنّها انتبهت إلى أنها لم تدْعُهُ إلى الجلوس. بدت مهتمة بالحديث الدائر بينهما.

سألها خليل:

- ما الذي قلته فأفقدها صوابها؟

- قلت إنّ إسرائيل هي الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. هل كان ما قلته سيئًا بالفعل؟

- «قول لا يغتفر!» احتدت نبرة صوته، «وليس دقيقا أيضا».

- صدقني لم أتفوه بكلمة واحدة إلا لأخفف عنها ما يستبد بها من قلق، وكذلك كنت أرغب في أنْ تشرح لي كي أفهم، إذ إنّ لهذا الصراع حضورًا طاغيًا في العالم، وفهمي له محدود جدا إلى درجة محزنة.

بدت بائسة بحق.

- «إذًا أنت في حاجة إلى الذهاب إلى المسيرة.» قال خليل وكأنه وصل إلى استنتاج واضح، «الشخصيات التي ستخاطب الجمهور ممتازة للغاية.»

كادت إيفا تعترض، فامتحاناتها النهائية على الأبواب. لا بد لها من دراسة أكثر من مئة صفحة حول الدمّ خلال فترة العصر، يجب أنْ تدرس. مسيرة؟ إنها في حياتها كلها لم تشارك في واحدة منها. فهل تذهب إلى مسيرة حول الشرق الأوسط؟ كلا لا تريد فعل ذلك، لأن هذا ببساطة ليس من الأمور التي اعتادت على القيام بها. نظر خليل إليها مرة أخرى، رفع حاجبيه قليلا على نحو أشعرها بالتحدي.

- «حسنا! حسنا! سأذهب.» نبرة صوتها عكست عزما على القيام بأمر مهم.

- جيد، إنها تبدأ في الساعة الثانية. سنذهب معًا.

خيّم الصمت عليهما بعدما اتفقا على الذهاب. خليل لا يجيد أبدا فن الدردشات الخفيفة. عاود التفكير بأوراقه وملاحظاته.

- «في وسعي أنْ أعرض عليك بعض الخرائط التي ستساعدك في فهم خلفية الصراع.» شعر بأنه لا يريد الضغط عليها، «هذا بالطبع إنْ كنت راغبة في ذلك.»

- بلى، سيكون هذا مفيدا لي.

- إنّ هذه الخرائط توضّح البعد الجغرافي للصراع. تؤكد أنه يتمحور حول الأرض وعلى تفريغها من سكانها لصالح الطرف الآخر. بالطبع المقصود هنا هو التطهير العرقي.

فتح خليل كتابا فيه ثلاث خرائط لنفس الرقعة من الأرض، كلٌّ منها تحمل تاريخا مختلفا، حدودا مغايرة، وتعلوها مساحات مظللة.

- هنا في عام ١٩١٧ كنا نملك مئة بالمئة من الأرض في ظل الانتداب البريطاني. لاحظي كيف تتغير هذه الخارطة في عام ١٩٤٧ بعد توصية الأمم المتحدة بمنحنا ٤٨ بالمئة فقط من أرضنا. ثم وبعد وقف إطلاق النار في عام ١٩٤٨ لم يتبق لنا سوى ٢٢ بالمئة من المساحة الكلية. لكن حتى داخل هذه المساحة الصغيرة نحن لا نتمتع بحكم ذاتي فعلي فيها...

نظرت «إيفا» إلى الخارطة الأولى، بلد صحيح الجسم، كامل الأوصال، طويل القامة. ثم يعتلُّ جسده ويتلطخ ببقع لها أشكال الأميبا. تأملت أيضا اليدين اللتين كانتا تحملان الكتاب، يدين رجوليتين ناعمتين، أظافرهما نظيفة على نحو لافت.

الفصل الواحد والثلاثون

- «كنت تعرفين! أليس كذلك؟» سأل رشيد إيمان: «كنت تعرفين ولم تخبريني!»

عبّأ عددا من الاستمارات التي أخذها موظف إلى غرفة حيطانها مغطاة بسجاد أزرق ورفوفها فارغة بلون بلوطي فاتح. قرآ الوثيقة التي تعلو الملف، مرة ثم أخرى. حملقا مليًّا في الصورة الوحيدة، أمهما تقف بتحد أمام الكاميرا، تحمل بندقية.

- لقد أخبراك بما تحويه الوثيقة، أليس كذلك؟ صبري وماما؟ لقد قررا أنْ أكون الوحيد بينكم الذي لا يعرف بالأمر!

إعصار مزلزل اجتاحه، أطاح به بعيدا عن عائلته، فصله عنهم بشكل قاطع وحاسم. دائمًا ما كان يشعر أنه الوحيد من بينهم الذي يتلقى ضربة تلو أخرى لإقصائه خارج دائرتهم. لكن هذه اللطمة الموجعة وما تواطؤوا عليه جميعا أزال الغلالة نهائيا عن عينيه. تجلت له الأمور، فشعر أنه كان عليه أنْ يعرف بأنّ هذا الأمر سيحدث يومًا ما. كأن عائلته كانت تقيم فوق قطعة جليد انقسمت نصفين، وقد جرفها التيار ودفع بها بعيدا عنه. ليس له دور فيها، لا

دور له في الصراع. إنه لا ينتمي إليهم. لا يدري لماذا احتاج كلَّ هذا الوقت حتى يدرك ذلك؟

قالت إيمان:

- لم تكن لدي أي فكرة عن ماهيّة تلك الصور! صدقني يا رشيد لم يكن لدّي علم بهذا. حاولت أنْ أناقش الأمر معك، لكنك لم تكن راغبًا في ذلك. لقد خمنت تخمينا بأنّ هذه الوثائق قد تتعلق بوالدتنا بسبب الصور التي عثرت عليها في بيت بابا. صدقني لم أكن أعرف أكثر مما تعرف. ما كنت أبدًا أتوقع أنْ تكون هي... هذا الشخص الذي في الصور! هل كان يمكن أنْ تتوقع أنت ذلك؟ بالطبع لا! لكن ليس هناك مشكلة... أعني، حقا إنه أمر رائع! أليس كذلك؟ رشيد اجلس، لا تنظر إليّ هكذا وكأني طعنتك بخنجر!

- قررا إخبارنا عن الأمر بهذه الطريقة! على الأقل أنْ يخبراني أنا على هذا النحو! يطلبان مني الذهاب إلى مكتب السجلات العامة والعثور على وثيقة تنشر بعد ثلاثين سنة! ماذا كانا سيفعلان لو لم تنشر هذه الوثيقة إلا بعد خمسين أو مئة سنة؟ هل تظنين أنهما كانا سيخبراننا بما فعلته هي؟ أو يكشفان لنا عن هويتها آنذاك؟ من حقنا أنْ نعرف، فهي في نهاية الأمر أمُّنا!

- لا بد أنها لم تخبرنا لأسباب أمنية. ربما لا يدري أحد بهويتها الحقيقية. أقصد أنّ الجميع يعرفون العصفورة ولكنهم لا يعرفون من تكون. لم تكن تملك خيار الكشف عن هويتها الحقيقية لأحد. وإذا تطلّب الأمر منها آنذاك تغيير ملامحها بعملية جراحية فلا بد أنها كانت تواجه خطرا حقيقيا. أما صبري فقد احتاج إلى هذه الوثيقة لاستكمال بحثه.

تحركت إيمان في كرسيها لتنهض:

- آه! صبري دائما! أليس كذلك؟ صبري يريد هذا، صبري بحاجة لذاك...

وضع يديه في جيبي معطفه، تذكر ما تركه في واحد منهما ليلة الأمس. قرّبه إلى جسده، انبعث فيه شعور مفعم باللذة، أشبه باشتعال الجسد عند لمسة مباغتة من حبيب.

- أحتاج إلى سيجارة. ستجديني في الخارج بانتظارك.

تركته إيمان وشأنه لأنها تريد قضاء بعض الوقت في تأمل الملف. تحسست بأصابعها أوراقه التي كتب عليها رجال الحكومة البريطانية توصيات نجحت والدتها في إحباطها جميعا. ابتسمت وهي تنظر في الأوراق، في الملاحظات على الهامش، في الأرقام والأحرف. من جديد، قرأت الصفحة الأولى واستشعرت ما تسبغه عليها من فخر بإرثها العائلي:

بالإشارة إلى عمليات اختطاف الطائرات التي تنفذها الجماعات اليسارية.

الشخصية: العصفورة

التاريخ: ١١ كانون الأول ١٩٧١.

يعتقد أنّ هذه هي الصورة الوحيدة للعضو النسائي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهي التي تلقب في الصحافة العربية بـالعصفورة. لأسباب أمنية، اتخذ القرار بمنع نشر هذه الصورة. لكننا نوصي بتعميمها على نطاق واسع على أعضاء أجهزتنا الاستخباراتية، ووزارة الخارجية، وقواتنا الأمنية، وكذلك القوات الأمنية التي وقعنا

معها على اتفاقيات لأجل تنسيق الردود على عمليات اختطاف الطائرات.

حصلنا على هذه الصورة من مصدر مجهول رفض تزويدنا بأي معلومات أخرى عن المشتبه فيها. كل ما نعرفه عنها أنها في نهاية العشرينات من عمرها، بشرتها غامقة اللون، بين ثناياها الأمامية فرجة ملحوظة، طولها حوالي ١٦٥ سنتمترا، وهي ذات قوام نحيف.

الصحافة العربية جعلت من العصفورة بطلة بسبب اختطاف الجبهة الشعبية للرحلة رقم ٤٣٢ التي كانت متجهة من أثينا إلى تل أبيب في ٢٣ أيلول ١٩٧١. تفاصيل عملية الاختطاف مسجلة في مكان آخر (انظر الوثيقة الموجهة إلى المقر الرئيسي في ٢٨ أيلول و١٢ تشرين أول سنة ١٩٧١ والتقرير الاستخباراتي الصادر في ٨ كانون ثاني سنة ١٩٧٠). نكتفي هنا بالإشارة إلى أنّ الجبهة الشعبية والصحافة العربية عدّتا عملية الاختطاف نجاحا للجبهة وللمقاومة الفلسطينية بشكل عام إذ إنّ الحكومة الإسرائيلية لبّت مطالب المختطفين، كما تمكن منفذو العملية جميعا من الإفلات من قبضة الاعتقال. يبدو أنَّ الغموض الذي يلف هوية العصفورة قد أدى إلى تصاعد شعبيتها.

تفيد أجهزتنا الاستخباراتية بأنَّ العصفورة شخص خطير، ورغم أنه ليست هناك تقارير تفيد بإيذائها لأي من الركاب على متن الرحلة ٤٣٢، إلا أنها كانت مسلحة وهددت الركاب باستخدام القوة. صدرت ثلاث مذكرات اعتقال بحقها في كل من إسرائيل وأثينا والأردن، وذلك لما لعمليات اختطاف الطائرات من طبيعة إجرامية.

بحسب المعلومات المتوفرة لدى الأجهزة الأمنية والاستخباراتية فإنّ الرحلة رقم ٤٣٢ هي النشاط الإرهابي الوحيد الذي يعرف أنّ العصفورة والجبهة الشعبية قد أقدمتا عليه.

يجب إيصال أي معلومات أخرى حول العصفورة إلى كل من «بي في ٤٥٦» في قسم الشرق الأوسط لدى وزارة الخارجية و «دي في ٣٤٢» في جهاز استخباراتنا.

الفصل الثاني والثلاثون

عندما تتذكر حفلة «ستيفي» لا يخطر على بالها سواه. يقف إلى جانب طاولة الشراب ويحسو النبيذ من كأس بلاستيكي. لم يتمالك نفسه وتصرف على نحو مهين إلى حد مربك. قررت بينها وبين نفسها، فيما بعد، أنه فعل ذلك حقًّا. ما إنْ دخلت حتى تسمّرت عيناه عليها، راح يراقبها دون أيّ تحفظ أو مواربة، فشعرت بانتشاء الأنثى فيها. حملق فيها ولم يحوّل بصره عنها. تتبعها بنظره أينما تحركت، ولم يكترث بمن حوله.

لتذهب سوزي إلى الجحيم، عليها اللعنة! تمتمت بينها وبين نفسها عندما لاحظت مدى شغف ذلك الإنجليزي بها. تذكرت ما قالته لها في دبي: اشتغلي **على المرأة فيك**، دعيها تزهر وتتفتح. كم أزعجتها تلك الكلمات، لكن رغم كراهيتها الشديدة لكل ما تمثله «سوزي» فإن ذلك الحكم الذي أطلقته عليها، ظل صداه يتردد بلا هوادة في داخلها، يهز ثقتها بنفسها. كأنّ ضآلة تجربتها الجنسية وصمة عار تتعلّق فوق جبينها، تتحسسها بلا توقف وتتساءل: هل يراها الآخرون؟ صارت تتفحص نفسها فيما تملكه من صور، تحملق في انعكاس صورتها فوق زجاج المحلات، تتأمل جبينها في

المرايا. حاولت تخمين ما تتركه من انطباع على من تلقاهم، خاصة الرجال منهم. هل يرون تلك الوصمة فوق جبينها؟ ذلك **النقص وتلك السذاجة، انعدام التجربة** التي ألمحت لها سوزي؟

تمهّل حتى اقتربت من طاولة الشراب فمدّ لها يده قائلا: «تشارلز دنهام». صافحها بحرارة، هزّ يدها مرات كما لو أنهما انتهيا للتو من عقد صفقة بينهما.

لم يكن من الصعب عليها مغادرة الحفلة برفقته. كان هو من اقترح ذلك، أما ما عقدت العزم عليه إثر انتهائها من كأس النبيذ الثاني فلم يكن بتلك السهولة.

أعجبها أنه لا يملك سيارة. تذكرت ذلك الاحتفاء الزائف بالمظاهر المادية في الخليج، أولئك الرجال الذين يبطئون الخطو أمام سياراتهم، يتوقعون منها التعبير عن دهشتها، يترقبون كلمات إطراء، يمطرونها بوابل من التعليمات حول طريقة رفع الكرسيّ أو تعديل المسند أو دفعه إلى الأمام، يشيرون إلى كل تلك الأزرار الكهربائية، وتلك الأوامر السمجة: «**انتبهي عند خروجك**»، «**أغلقي الباب برفق**»، «**لا داعي لثنيه غير مرة واحدة**».

قال لها تشارلز وهما يصعدان إلى سيارة الأجرة السوداء: «أستطيع فقط أن أقود دراجة ناريّة».

حاول إعطاء السائق عنوان شقتها، لكن لم يكن هذا ما أضمرته في نفسها. قالت: «لم لا نتجول قليلا في لندن؟ دعنا نشاهدها في الليل.»

فردّ تشارلز:

- بالطبع.

هل قرأت في عينيه علامات الرضى أم أنها كانت تعلل نفسها فحسب؟ لا تدري. التفت تشارلز إلى السائق، ألقى عليه سلسلة طويلة من التعليمات. صرخ السائق متبرما وكأن «تشارلز» طلب منه الذهاب خلف خطوط العدو على جبهة الحرب. مالت السيارة بهم، انعطفت إلى شارع فرعي، ابتعدت عن زحمة السير، ثم عبرت بوابة ضخمة لمتنزّه عام، ومرت بنوافير ماء تعلوها تماثيل وزخارف. أشار تشارلز بإصبعه إلى نصب تذكارية، قصور أميرات، وطرقات أعدت لمواكب ملكية استعراضية. وبين هذا وذاك تابعا حديثهما الذي بدأ في الحفلة حول الأوضاع في غزة. لم يسألها عن أشخاص بعينهم، ولا حتى عن منظمات معينة. بدا في الحقيقة مهتما أكثر بطموحاتها وآرائها حول تغيير الأوضاع. لم يجرّها إلى مستنقع المشاكل الأسنة التي غالبا ما يفضي إليه الحديث عن بلدها.

- «أين تسكن؟» سألته.

رد عليها ذاكرًا اسم مكان سمعته في أحد التقارير الإخبارية المحلية.

- «المنطقة التي يقع فيها بيتي ليست سكنية، إنها مخصصة للدوائر الحكومية،» تنحنح وأكمل، «ورثت الشقة التي أسكنها عن عمة أبي، موقعها عملي جدا بالنسبة لي. إنها معتمة قليلا لأنها في الدور الأرضي، لكني قلما أمكث فيها خلال النهار. لهذا لا أرغب في الشكوى.»

- هل نستطيع الذهاب إلى شقتك؟

كادت تضحك بصوت عالٍ لما أحدثه سؤالها فيه من ارتباك

كبير، لكنه سرعان ما تدارك نفسه. اعتدل فوق صهوة جواده وعاد إلى أداء دوره.

- «حسنا أيها السيد، بلى...» ثم كرر السائق بنبرة جافة العنوان الذي طلب تشارلز منه التوجه إليه. آخر ما أشار إليه إصبع تشارلز قبل وصولهما إلى الشقة هو المقر الرئيسي لأجهزة الاستخبارات الذي يربض فوق الضفة المقابلة للنهر.

الفصل الثالث والثلاثون

جموع المشاركين في المسيرة تنمو وتكبر، يرفدها سيل من المشاة والعابرين. كانوا يتدفقون من الأزقة، من محطات مترو الأنفاق، ومن حافلات أتت من أماكن بعيدة. رجال الشرطة بخوذاتهم ودروع مكافحة الشغب يصطفون على جانبي الطريق. سيارات عسكرية ترابط فوق المنعطفات، وكذلك عربات مكلفة بالمراقبة. كاميرات رصد الشوارع تتحرك في كل الاتجاهات، عدساتها تكبر وتصغر، تتفحص وجوه الحشود وتسجلها بلا توقف.

ملف والدته في مكتب السجلات العامة لا يعني له سوى خيانة الأم والشقيق. فهما لم يكتفيا بإخفاء سر عظيم عنه ولمدة طويلة من الزمن، بل عندما قررا الكشف عنه، فعلا ذلك بشكل مزرٍ للغاية، كما لو أنّ اطلاعه هو وإيمان على الملف أمر ثانوي، أما الأهم فهو حصول صبري عليه لاستكمال بحثه. تصرفٌ آخر من شقيقه وأمه لا ينمّ إلا عن كونهما يكنّان الازدراء له. لكنه هذه المرة لم يعد قادرا على التحمل. إنه يرفض هذا التصرف بشدة ولا يلتمس لهما أي عذر فيه. ولماذا يقبل به؟ هل لأن صبري كان ما كانه في يوم من الأيام؟ أم لأنه أصبح ما أصبح عليه الآن؟ أم لأجل ما كانته أمه؟

رشيد لم ير في الأمر برمته سوى إهانة مقصودة بحقه.

أما إيمان فلم تر فيه أي شيء من ذلك. كان بالنسبة لها اكتشافا لإرث تستحقه، يمنحها شرعية جُردّت منها بسبب مشاركة والدها غير المؤثرة في القيادة الخارجية، ثم خروجه الغامض وغير المشرف منها. كانت تعلم أنّ نشر تلك الوثائق حتى لو أدى إلى الكشف عن هوية أمها الحقيقية لن يلحق بها ضررا. بل بالعكس، لو عرف الجميع من تكون أمها فلن يقاطعها أحد على الأقل في اجتماعات اللجنة النسائية. شعرت أنّ الملف وما فيه من أسرار يمنحها لقب الفروسية، يجعل لندن تحني قامتها إجلالا لها.

لقد كانت المسيرة تكريما لها.

صرخة أتته من تحت يافطات حمراء وجيش من الأحذية المطاطية السوداء:

- رشيد! رشيد! أنت هناك! أنا هنا!

كان إيان يلوح بحماس شديد بين صفوف ما جمعه من جيش العمال الثوريين.

- ما رأيك أيها الرفيق؟ عدد لا بأس به، إيه؟ لقد بذلنا مجهودا ضخما لكنْ وكما تعلم، سيعود المديح بالطبع على آخرين.

أغرقت حشود المشاركين الشارع، فاضت على جانبيه، غطت الرصيف والمنعطفات. جموع غفيرة تسير، تميل، تتثنى معا وكأنها تنين صيني. علم بلادهما، علم رشيد، علم إيمان، العلم الذي ظل محظورا منذ عهد قريب، يرفرف فوق الرؤوس، يحمل حينا كتابات عربية، وحينا آخر نصوصا إسلامية، كلها تطالب بـ «الحرية»! العدالة! مواجهة الاحتلال! ضد المحتلين!

انتابت رشيد رغبة في البكاء. أكان ذلك من فرح أم من يأس؟ لا يدري على وجه اليقين. كان يمكنه أنْ يطلق العنان لنفسه، يبكي على كتف أي كان، عدا إيمان. فهي في تلك اللحظة كانت تجعل الأمور أشد وطأة عليه. في إمكانه أنْ يبكي حتى أمام إيان، لأنه ليس من شخص آخر، وهو يقف الآن أمامه مبتهجا كما لو كان في انتظار هذه المسيرة منذ الأزل.

- «من الفتاة التي بصحبتك؟» لكزه مشيرا إلى إيمان.

كانت تقف بثقة وسط جموع المتظاهرين الذين يتدفقون من حولها، تدوس أقدامُهم فتحات المجاري، يمشون فوق كتيبات دعائية على الأرض، يرفع بعضهم شعارات ويحاولون تفادي الاصطدام بالشعارات الأخرى.

- إنها إيمان. شقيقتي.

سأل إيان وهو يحملق في إيمان:

- إنها جميلة جدا، هلا قدمتني إليها؟

ثم انتبه إلى وجه رشيد فغير نبرة حديثه:

- حسنا، حسنا، هدئ من روعك!

رفع راحتي يديه وحركهما كمروحة على وجه رشيد.

- كنت أمزح فحسب. دع عنك الآن تفكيرك الذكوري! اهدأ! حسنا؟

راهب بوذي، بردائه الأحمر، وقف مثل علامة فارقة، وسط طوفان اللون الأسود وبناطيل الجينز. رنين أجراسه التي تتغنى بالسلام ونغمات دفه الدافئة ضاعت في بحر الهتافات وصخب

الحشود وضجيجها. حثت إيمان رشيد على السير. إيان أشار لها بيده خلسة من خلف ظهر أخيها.

- انظر يا رشيد! انظر!

جذبت إيمان رشيد من كتفه، دفعته وسط الجموع. مرت بمجموعة تتجاذب أطراف الحديث، نسوة يدفعن عربات أطفال، رجال يحملون صغارا فوق الأكتاف. أشارت إلى يافطة ضخمة تحمل صورا بالأبيض والأسود، صورة المستشفى تعلوها كلمات: ماذا قصفتم في الثامن من آب؟ كانت مرفوعة إلى جانب صور أخرى يطلُّ من بعضها رائد وتغريد. سرت قشعريرة في بدن رشيد، هناك من يحفل بتجاوز العدالة ويطالب بتحقيقها إذًا! ودّ لو يحتضن من رفع اللافتة، وجهه أبيض، تحيطه لحية وقورة، ينتعل صندلا بسيطا، يمشي كمسيح!

تساءلت إيمان:

- أين خليل؟

- إنه قرب الميدان الرئيسي. بعث لي برسالة هاتفية شتمنا فيها لأننا لم نكن في انتظاره في الصباح، جلب معه رفيقتك في الشقة.

- رفيقتي في الشقة؟ تقصد «إيفا»؟

هز رشيد كتفيه بأنه لا يدري، وكيف له أنْ يدري؟ إنها رسالة هاتفية فحسب. شعر بالوهن عندما تخيل أنه سيشق طريقه إلى الميدان الرئيسي وسط كل تلك الجموع الزاحفة.

- وماذا عن ليزا؟

- إنها هناك أيضا.

الفصل الرابع والثلاثون

قبل أسبوعين وعندما وصلا إلى شقة تشارلز كان الشارع مظلما تتراقص في جنباته أضواء زرقاء تنبعث من سيارة شرطة تربض في ركن منه. فُتِح الباب فأصدر صريرا.

- «بيت رئيس الوزراء عند ناصية الشارع.» قال تشارلز بصورة توحي بأنه يردد تلك العبارة في سره، أو على مسامع زائريه، في كل مرة يعبر بها إلى الشقة.

للمكان رائحة عتيقة، ومنظره يوحي بأنه غير مستخدم، فلولا بعض الفوضى هنا وهناك لأمكن القول إنه ظل مغلقا طيلة قرون. هرع تشارلز ورفع سروالا من فوق كرسي، أوراقا مبعثرة، فنجانا انسكب منه سائل رمادي فوق الأرض. اصطدم بمصباح جانبي، فتراقصت أشعة صفراء فوق أسطح بهت لونها. قطعُ الأثاث مصممة لتلائم مساحات ضيقة وحرارة منخفضة، تناسب غرفا تستقبل زوارا يفدون لقضاء غرض معيّن وليس للضيافة والاسترخاء. كتب تعلو الحيطان، وأخرى تحيط بالمدفأة، كثيرٌ منها يتكدس فوق الأرض. بعضها مفتوح فوق مكتب خشبي، تزينه زخارف جلدية، ويبدو أصغر

حجما مما يناسب شخصا بالغا. صورُ الزهور تزين الكنبة الواطئة والوسائد المصفوفة والستائر القصيرة.

قالت إيمان:

- مثل غرفة شقيقي صبري.

- حقا؟

لم يستطع أنْ يتخيل تصاميم شقته وما تعكسه من عالم مضى وأصبح قديما بأثاثه وأقمشته داخل غرفة في غزة.

أضافت:

- الكتب، لديه كتب في كل مكان، حتى تحت فرشة سريره.

للحظة عابرة، تصور تشارلز شخصية كرتونية، دودة أو ما شابهها، كلُّ أثاث بيتها من الكتب. حاول أنْ يمازحها حيال ما تخيله، لكنه استدرك وظن أنه لن يكون مضحكا. وجهها جميلٌ للغاية وابتسامتها آسرة، لطالما افتتن بنسوة لهن تلك الفرجة بين ثناياهن الأمامية. لعله أمرٌ تأثر به خلال دراسته لأعمال تشوسر أيام المدرسة. لأنوثتها سحر طاغ ومستفز، فيها ما يذكره بملامح النساء اللاتي يظهرن في لوحات رسامي ما قبل رافاييل. استحضر تلك اللوحات في مخيلته، حاول العثور على وجهها بين وجوههن، لكنهن خيبن أمله. ربما في تلك اللوحة الأخّاذة لفتيات عاريات بجانب بركة ماء، الزخارف الزرقاء فوق بلاط الحمام مبهرة، هل هي بريشة دولاكروا؟ لكنه رسام مستشرق ولوحاته تتنافر مع روح العصر، ولا يليق به تذكرها.

- هل ترغبين في كأس من المشروب؟ أم تفضلين الشاي؟ أرجوك اجلسي... ارتاحي.

رفع تشارلز بعض الأوراق عن الكنبة ثم طرق عليها بيده عدة مرات، فتطايرت ذرات الغبار في كل الاتجاهات.

- ماذا ستشرب؟

- ويسكي. لكن لديّ بعض المشروبات الأخف إنْ كنت لا ترغبين في تناول مشروب قوي. يمكن أيضا أنْ أضع لك ثلجا في الويسكي إنْ أردت؟

- ويسكي بثلج إذًا.

تطلعت إيمان نحو المطبخ حيث كان تشارلز يغسل كأسين. الخزائن بلا أبواب، قطعة قماش برتقالية معلقة فوق أنبوب أسفل المجلى. أشار تشارلز إلى الخزائن وقال:

- حاولت تحديث المطبخ لكني لا أجد وقتا كافيا لاستكمال ذلك. صاحبتي التي كنت أواعدها تحمّست جدا لتجديد المكان برمته.

انتبه وتمنى لو أنه لم يأت على ذكر فتاة أخرى. لا رغبة لديه أن يخوض فيما سيجره هذا من حديث معتاد حول صاحباته السابقات ولماذا تركهن. لا بد أنها ستسأله الآن عن ذلك. لكن إيمان لم تسأل. تفاجأ تشارلز عندما شعر بشيء من خيبة الأمل لأنها لم تفعل.

جالت بعينيها فوق عناوين الكتب من حولها: كتب عن الجاسوسية، عن الحرب، عن الكلاب والريف، رفٌّ كامل لكتب عن مكان يسمى «بلاندنجز»، كتاب حول الإتيكيت، وكتب أخرى حول ممثلات هوليوود اللواتي وقعن فريسة للسمنة أو الموت. الحيطان تزينها رسومات غرافيكية وأخرى بخطوط سوداء وبيضاء، مناظر للصيد في الريف والغابات، وصول القبطان كوك إلى الشواطئ

الأميركية ومن حوله هنودٌ حمر، مشهد من حرب في الهند نقش أسفله «معركة كريشنابور ١٨٤٥».

- جدي لأبي كان يحب تجميع المقتنيات الفريدة، خاصة ما كان منها متعلقا بالجيش. كان تاجر أسلحة.

قدم تشارلز لإيمان كأسا ما زال سطحه مبلولا. وجّه حديثه إلى سيفين متقاطعين فوق المدفأة، ربما لأنهما يعرفانه أكثر مما تعرفه إيمان.

- إنهما لا يعكسان اهتماماتي أو ذوقي، لكني لا أدري ما أفعل بهما. ليس لدي أقرباء، ولا أجرؤ على التفكير ببيعهما.

- ولم لا؟

- ربما... أعتقد أنه يمكنني ذلك، لكنني لم أفعل حتى الآن. لا أقصد أنه يستحيل عليّ بيعهما، ولكني لم أفكر بالأمر.

انتاب تشارلز شيء من القلق لوجود إيمان في الغرفة. لا يدري كيف يعالج ما انتبه إليه دون أنْ تشعر، عليه ألا يتهاون في مسألة السرية. كان قد ترك عددا من الوثائق الخاصة مفتوحة فوق مكتبه. وضع كأس الويسكي فوق الطاولة، نهض من مقعده، أودع الوثائق في جارور وأوصده، ثمّ عاد إلى مكانه.

- سامحيني على الفوضى التي تعمّ الشقة، إنها في وضع مزر. خادمتي لا تأتي للتنظيف إلا أيام الاثنين.

تبدو هادئة الآن. خلال الحفلة، أثارتها بعض افتراضاته الخاطئة، فتحولت إلى نمرة شرسة وهي ترد عليه. ازدادت حينها جمالا.

حاول تشارلز أنْ يعثر على ما يمكن ترتيبه بسهولة مثل مكتبه، لكنه لم يجد ما يتشاغل به ولو قليلا.

شرب كأس الويسكي دفعة واحدة. قال في خاطره: انتهينا.

جاءت إيمان إلى الشقة لحاجة في نفسها، لكن شعورا فجائيا مذهلا ألمّ بها، أربكها وأنساها ما يفترض بها القيام به. كأنها تقف فوق خشبة مسرح والأضواء تتسلّط عليها. ليس لديها نص تلقيه، ولا تعليمات ترشدها إلى الحركات المطلوبة. إنها امرأة تختلي برجل في شقته، ومع ذلك، لم يحدث شيء حتى الآن. إشاراتها لم تُلتقط. عادةً فإن مجرد الحديث إلى رجل لتلك المدة من الوقت كفيلٌ بفضح نواياها. علق الويسكي بفمها وراحتي يديها، كأنه صمغ ألصق شفتيها وأصابعها ببعضها البعض. شعرت بشيء من الغثيان، فهي لم تثمل منذ أيام المدرسة. ذات مرة، هرّبت بعض الفتيات نبيذا حلو المذاق إلى سكن الطالبات، وقد قضت الليل وهي تتقيأ في الحمام. أحيانا ترتشف شيئا من العرق مع صبري ولكن هذا المشروب ليس كذاك.

- هل لي بكأس آخر؟

حمل تشارلز الكأسين وعاد بهما ممتلئتين من المطبخ. تمتم في نفسه: لا تبدو على ما يرام، ربما كان الـ «براندي» يناسبها أكثركأنثى. تحرك على الكنبة ليرى وجهها.

- إننا نبحث في الوقت الراهن، أعني في وزارة الخارجية، عن شخص نتعاون معه كشريك في السلام. يترتب على هذا الأمر تعاونٌ بين الدوائر المختلفة. سنعمل مع الجهات المعنية بالتنمية، مع المنظمات غير الحكومية فقط. لقد اقترحت اسم أبو...، لكن وصلتني أخبار غير مشجعة عنه.

حزرت إيمان الاسم، فابتسمت له. تشعر براحة أكبر الآن في هذه الحفرة القابعة تحت مقر الحكومة في لندن. هذا الملجأ الوردي

الصغير الذي ظل على حاله لأكثر من قرن أو اثنين وتملؤه نفائس وتحف من الماضي البعيد. ثمة طمأنينة في الانتصار، فيما يجلبه من صمت وسكينة ويقين بأنّ السرير الذي رقدت فيه ليلا سيكون ملكك في الصباح. لاحظت أنّ تشارلز بدأ يستعيد ثقته بنفسه شيئا فشيئا خلال حديثه في موضوع عمله. قطّب جبينه، فتلاقت حبات النمش المتناثرة فوقه، وامتزجت ببعضها وتحولت إلى بقع حنطية. يبدو أنه معتاد على رفع حافة كأسه إلى أنفه كعلامة على تركيزه في الحديث. فعل هذا الآن وقال:

- «أريد أنْ أسألك بوضوح، ماذا ستفعلين؟ هه؟ لعلك لاحظتِ أنني ظللت أحوم حول هذه الفكرة طيلة الليل. لو اخترناك شريكة لنا في السلام ما أفكارك وخططك للعمل؟» ثم صارحها دفعة واحدة بالتفويض والعرض، بالعوائق والإمكانات المأمولة.

استجمعت إيمان قوتها وتحدثت عن الأفكار التي تصول وتجول في رأسها عندما تكون في غرفتها. تلك الأفكار التي كانت تُقاطع دوما بـ «نقاط النظام» في اجتماعات اللجنة النسائية، والتي كان خليل وصبري لا يحملانها على محمل الجد. أفكار ليست جديدة، الجميع فكر فيها، والكل يعرفها.

- حسنا، ممتاز! عظيم! لنرَ ما نستطيع فعله معًا.

هل احتست كأسا أم اثنين وهي تجلس هناك؟ لا يهم إنْ كانت أقل أو أكثر، لأنّ ما كان فيها سرى إلى دماغها، استحوذ عليه فبهره وأفسده في آنٍ واحد. انتابتها رغبة عارمة في الضحك من ضيفها وما يحيط به من رسوم. قاومت شعورا جارفا بالرغبة في رفع إصبع قدمها وغرزه في باطن فخذه لتختبر ردة فعله. سيلٌ من الخواطر المضحكة

هاجمها. تلك القصائد الجاهلية الخليعة التي عثر عليها أحد حراس الحدود الإسرائيليين في حوزتها، تتحدث عن دخول المرود في المكحلة، كيف كان لها أنْ تترجم له ما تعنيه؟ هؤلاء الرجال الذين أجهدت سوزي نفسها في تعريفها عليهم من أجل الزواج! وحتى كل تلك الصدف العجيبة التي حدثت في يوم واحد: اغتيال سيف الدين، اعتقال أبي عمر، ووقوف زياد الأيوبي خارج بيتهم. يا لها من قصة شيقة تستحق أنْ تروى على مسامع الآخرين! كانت على وشك الحديث عن تفاصيلها، بكل ما فيها من مصادفات مضحكة وأخرى مرعبة، لكن شعورا بالتعب والوحدة طغى عليها. لا جدوى من قص تفاصيلها عليه فهو لن يفهمها، ليس في وسعه ذلك. أصبحت تجهل تماما ما كانت بصدد القيام به، نسيت سبب مجيئها ولا تدري أين هي بالضبط.

- يبدو عليك الإجهاد.

مال قليلا نحوها، مسح براحتيه على خديها، لم يستطع مغالبة نفسه. ذلك الفارق الجميل في اللون بين شعرها وزهور الكنبة الوردية. لن يغير قماش الكنبة كما طلبت منه صاحبته القديمة، فهو لا يحتاج إلى ألوان قاتمة، إنها كنبة جميلة، فريدة في شكلها ولونها.

- هل أطلب لك سيارة؟ أم أعدّ لك مكانا للنوم؟ لدي سرير احتياطي، في وسعي أنْ أنام عليه، وأنت نامي في سريري.

- لا، حقا لا داعيَ لذلك.

وقفت، فتطوحت كامرأة حامل. مشت نحو رفوف الكتب. لحق بها، أمسك بيدها، راح يعلق على العناوين المختلفة.

- كثير منها كان هنا قبل انتقالي إلى الشقة.

سحب نسخة حمراء من «رباعيات الخيام»، قلبت إيمان صفحاتها. تعجبت من فرط ما تمتع به أصحاب ذلك الزمان من فضول. وقف خلفها، طبع قبلة قرب أذنها، فلم تتحرك. ظلت تستمتع بالقبل حتى أرغمتها على الاستجابة، ثم اكتشفت أنّ كل ما تلا ذلك كان أسهل مما تخيلت.

السرير ضيق لكنه لين مثل سرير طفل، يستند إلى الحائط، ويتقعّر في الوسط. تجمل هو بالأدب، ورفضت هي أنْ يعتريها الخجل. لم تتألم كما قيل لها، ولم تنزف أيضا. لكن جلده كان غريبًا عليها، لعرقه رائحة قشور البطاطا الرطبة.

الفصل الخامس والثلاثون

الجموع تتوافد على الميدان الرئيسي من كل مكان. خليل يقف بحسب اتفاقهما معه إلى جانب تمثال الأسد الرابع مقابل محل الـبيرغرْ. بدا هندامه ومظهره أكثر تناغما مع أهل لندن من الناس في غزة. من خلفه، يلوّح المتظاهرون بأعلامهم وشعاراتهم. من أمامه، ترتفع المنصة التي يجلس فوقها صف من المتحدثين. ليزا إلى جانبهم، تكتب في ورقة، هاتفها النقّال محشور بين كتفها وأذنها. شخصية سياسية متقدمة في العمر، تلفّ ساقا على ساق، تدخن غليونا.

زياد الأيوبي كان قد بدأ في إلقاء كلمته فوق المنصة قبل وصول إيمان ورشيد إلى الميدان. تعالت موجة تصفيق لفكرة طرحها، ثم بدأ بأخرى، وهو ينظر إلى الجموع. إيمان تدرك سخافة ما تفكر به لأنه مستحيل، لكنها ظنت أنه رآها. توقف زياد في منتصف الجملة التي بدأها، فانتظرت الحشود أن يكمل كلامه، لكنه لم يفعل، بل استدار وغادر المنصة. تململت الحشود، ثم تعالت أصوات الاحتجاج والاستغراب. تقدم شاعر في معطف واقٍ من المطر، شعره أشيب ينتصب فوق رأسه مثل قنفذ، أمسك الميكروفون وأنقذ الموقف.

لم تستطع إيمان رؤية زياد عندما ترك المنصة. انتبهت فوجدت نفسها منشغلة في البحث عنه، ثم أدركت أنّ رشيد الذي كان إلى جانبها عند وصولهما إلى الميدان قد اختفى هو الآخر. دفعت بنفسها وسط الحشود، اتجهت نحو خليل وقد ظنت أنه الوجهة التي قصدها رشيد.

- «اعتقدت أنه تركني للعثور عليك.» قالت إيمان لخليل عندما وصلت إليه.

- هل يحاول تجنب رؤيتي؟ لقد أبلغته بأني سأكون هنا اليوم.

- لا بد أنه ذهب لإحضار شيء يأكله. إنه يتصرف هكذا حين يكون جائعا، أو بحاجة للنوم، أو لتدخين سيجارة. لا يخبرك أو يطلب منك إذنًا، تلتفت حولك فيختفي فجأة. أنت تعرف رشيد. لقد ذهبنا إلى مكتب السجلات...

- أعرف أنكما خرجتما إلى مكان ما. لقد ذهبت إلى شقتك.

فريق من المنشدين يرتدون قمصانا حمراء اعتلوا المنصة الآن.

سألته إيمان:

- ماذا حصل لشعرك؟

- ألحّ والدي طالبًا مني قصّه. بالأحرى لقد ابتزني لأفعل ذلك. كنت في حاجة إلى تصريح لزيارة جمال في المعتقل، وقد رفض مساعدتي حتى نفذت طلبه. أمر سخيف للغاية لكنك تعرفين والدي.

عقد المنشدون أيديهم خلف ظهورهم وبدأوا بالإنشاد.

- هل أتيت بصحبة رفيقتي في الشقة؟

رفعت إيمان صوتها. كانت نبرتها تخلط الجدّ بالهزل، لكن خليل تجاهل ذلك ورد عليها بجدية.

- «إيفا»؟ أجل. لقد طلبت منها أنْ تذهب وتتحدث إلى ممثل النقابة الطبية للعاملين في قطاع الخدمات الصحية وكذلك إلى ممثلي جمعية طبية خيرية.

- عظيم! عظيم جدا!

عن بعد بدت حشود المشاركين في المسيرة لإيمان وكأنها كتلة واحدة، ليس لها ملامح فردية ويغلب عليها لون بني طيني. أما الآن وعن قرب، فهي ترى كم هناك من تنوع شديد في الأعراق والسحنات والألوان. انتشر المتظاهرون حول النافورة في الميدان، جلسوا فوق الأدراج وسدوا الطرقات. أفواج من السائحين يلتقطون لهم صورا من أسطح الحافلات السياحية المكشوفة، ووجوهٌ خلف النوافذ تراقب سيولهم المتدفقة. بعض المشاركين رفع شعارات تقول: يهود ضد الحرب والاحتلال، مسلمون متكاتفون لأجل فلسطين، مغنون من «ويلز» مع السلام. خليل تظاهر كأنه مسحور بفريق الإنشاد، أفواه أعضائه مستديرة، صدور نسائه مرتخية، تعالت أصواتهم: آآآه! سلام! آآآه!

سأل خليل:

- هل رأيت الأيوبي؟

- وصلت بعد أن ترك المنصة.

تفحصت إيمان وجه خليل جيدا. حاولت التأكد إنْ كان يخفي خلف لياقته الدبلوماسية التي ورثها عن أبيه محاولةً لجس نبضها تجاه الأيوبي، لكنها لم تتأكد من وجود مثل هذه النيّة لديه.

- «غريب! وقف على المنصة وكان ينظر إلى الأعلى، ألقى

كلمة جديرة حقا بالإعجاب، ثمّ وهو في منتصفها نزل عن المنصة وغادر المكان! اختفى...» ظل خليل يتلفت حوله ثم قال:

- أين رشيد؟ لقد كنت أتطلع لـ... هل من المجدي أنْ ننتظره هنا؟

- لا تقلق! لا بد أنه سيعود إلى هنا. قل لي ما أخبار ليدز؟ وكيف الدراسة هناك؟

- ليست سيئة، لكنها لا تقدم لي شيئا جديدا. يريدون الاستفادة مني في أنشطتهم، وليس في وسعي رفض المشاركة. إننا بحاجة إلى الحصول على مساعدات مالية للمركز، فمعظم مصادر التمويل لنصف ما نقوم به من نشاط في غزة انقطع. الاهتمام ينصبُّ الآن على المبادرات السلمية، أو حسبما يقولون: على البناء لا الانتقاد. أين رشيد؟ لقد اشتقت لذلك الحيوان!

حاول خليل الاتصال برشيد. نظر نحو الشرطة وسياراتهم أعلى الدرج، ثم صوب رجال الأمن يصطفون خلف دروع مكافحة الشغب قبالة العمال الثوريين بأحذيتهم السوداء. لكن لم يكن هناك أثر لرشيد: قرب النافورة في الأسفل، أو عند المتحف في الأعلى، أو بين من يقفون قبالة المنصة. سرب من الحمائم تخفق بأجنحتها، تنقب الأرض بمناقيرها، لا تكترث بآلاف الأقدام التي تتحرك من حولها. كاميرات المراقبة تتحرك يمينا وشمالا، تسلط عدساتها على وجوه المشاركين في المسيرة، تلتقط أكبر عدد منها وتسجلها للأبد.

أومأ خليل برأسه نحو ليزا الجالسة على المنصة:

- على الأقل نعرف أنه ليس معها.

جموع المتظاهرين غفيرة قرب المنصة، من الصعب على إيمان

المضي في ذلك الاتجاه. استبعدت أنْ يكون رشيد قد حشر نفسه بينها. دعست على كتيب صقيل، وتزحلقت على حلقات بصل مقلية، وناداها صوت صدر من بين جمع العمال الثوريين بقمصانهم السوداء: «أنت، هناك!» انتبهت إلى صديق رشيد يدخن سيجارة ملفوفة، قفز إلى الأمام، وأصبح أمامها.

- هل رأيت رشيد؟

- كلا، لم أره بعد أنْ تصادفنا في البداية. عفوا، لم نلتق من قبل، أنا إيان.

- إيمان.

- يا له من اسم جميل! هل له من معنى؟

- «من الإيمان.» شرحت له بالإنجليزية.

- «جميل!» أبدى إيان استحسانه للاسم بنصف ابتسامة وهزة تأملية من رأسه.

- لم تصادفه إذًا؟

- كلا، آسف. هل ترغبين بسيجارة لفّ؟

دفع بصندوق متهالك فيه قطع قصدير صغيرة. تركته ومضت في سبيلها.

اتجهت صوب طرف الميدان. دفعت بنفسها بين الجموع والأكياس والعصي التي ترتفع فوقها الشعارات. وصلت إلى شارع فرعي. كان هناك كثيرون من أصحاب الشعر الأسود والسوالف القصيرة والجباه العالية والجاكيتات الجلدية، ولهذا استحال عليها تمييز رشيد بنظرة سريعة.

وقفت إيفا بتحفز خلف الطاولة المخصصة للنقابة الطبية. كانت

تحمل في يدها اليمنى رزمة من الكتيبات والمنشورات الإعلامية، ورغم قتامة الجو، بدت أكثر إشراقا وحيوية مما كانت عليه في داخل الشقة. لكن صفوها تكدر عندما اقتربت إيمان.

- إيفا، أنا آسفة بخصوص ما جرى بيننا في الصباح. آسفة حقا إن كنت قد أسأت إليك.

- شكرا لأنك بادرت إلى الاعتذار، لكني الآن على ما يرام. سارت الأمور على نحو أفضل وأعتقد أنك كنت على حق.

نظرت إيمان إلى إيفا مرة أخرى:

- أقصد أنّ ما قلته حملني على التفكير، إضافة إلى الحديث الرائع الذي جرى بيني وبين صديقك خليل. إنه حقّا شخص غير معقول! اقترح عليّ أنْ آتي إلى هنا، رغم أني كنت أظن أنّ المشاركة في مسيرة أمر لا يعنيني. أتيت واكتشفت أهمية المشاركة! قابلت أشخاصا رائعين من النقابة الطبية والنشطاء. أنا أشعر حقا بالتأثر الشديد. لهذا، أرجوك لا تعتذري.

أومأت إيمان بالتحية للأطباء خلف طاولة النقابة الصحية، وتساءلت بينها وبين نفسها إنْ كانوا يعرفونها. قالت:

- إنهم حقا يقومون بعمل رائع.

- «أكثر من رائع!» ردت إيفا.

تطلعت إيفا إلى من حولها. حاولت إيمان أن تشاطرها الحماس، وبذلت جهدًا لاسترجاع ما شعرت به لدى وصولها إلى المسيرة. ربما يكون من الضروريّ أنْ تحدث إيفا عن أمها.

- «أعداد المتظاهرين الضخمة...» واصلت إيفا الحديث، «أعني ذلك الإيمان بالعدالة الذي دفعهم للقدوم حتى من أماكن بعيدة. كثير

منهم مثلي أنا ليس له أي صلة بما يجري هناك. رغم ذلك وفدوا إلى هذا المكان. لست أدري. أنا لم أشارك في مسيرة من قبل لكن ما أراه مذهل حقا!»

- إيفا، لقد قابلت أخي من قبل، أليس كذلك؟ تعرفين وجهه، هل مر من هنا؟ فقدته وأبحث عنه في كل مكان. كنا معًا ثم اختفى.

جاء أحد النشطاء ليتكلم مع إيفا، وبدا لإيمان أنه يريد منها ترك الطاولة. ابتسمت إيفا له ثم استدارت نحو إيمان.

- كلا لم أره. آسفة. لكني سأخبره بأنك تبحثين عنه إنْ مرّ من هنا.

- اطلبي منه أنْ يتصل بي إنْ صادفته.

- بالتأكيد.

مالت إيفا برأسها وهمست في أذن إيمان:

- هل تعرفين خليل منذ زمن طويل؟

- لقد نشأنا معًا.

- هناك؟ في غزة؟

- كلا. كان والدانا يشتغلان معًا ولهذا كنا معا في اسكندنافيا وسويسرا وبلدان أوروبية أخرى بشكل أساسي.

- في أوروبا! حسنا، هل هو بمثابة صديق عزيز إذًا؟ أعني خليل. أقصد... هل أنتما أكثر من ذلك؟

- «أنا وخليل؟ كلا، كلا.» حاولت إيمان أنْ تضحك، لكنها لم تستطع مغالبة نفسها، فما تفكر به ليزا استفز فيها رغبة الادعاء بأن خليل يخصّها. لكنها قررت أن تتعالى على ضعفها.

- أنا سعيدة حقا بمجيئك إلى هنا. يجب أنْ أعترف لك، لقد

تفاجأت قليلا عندما أخبرني خليل بمشاركتك في المسيرة. لكني سعيدة لأني كنت مخطئة بحقك.

كان التلفظ بما قالته عسيرا وشديد الوطأة عليها. لكن إيفا كانت قد انشغلت ولم تسمع جلّ ما قالته لها. لم يكن سهلا على إيمان أنْ تقف إلى جانب إيفا التي تشعر بكلّ ذلك الحماس المتقد.

ألقت بنفسها وسط جموع المتدافعين نحو شارع فرعي. وصلت إلى هناك: أبصرت مدخنين يتحلقون في مجموعات ويتجاذبون أطراف الحديث، آخرين يحاولون إجراء مكالمات هاتفية بعيدا عن ضجيج مكبرات الصوت، آباءً وأمهات يعكفون على تغيير حفاظات صغارهم في مدخل بناية. البعض ترك المسيرة وضوضاءها، واصطحب زوجته أو رفيقته ربما لتناول وجبة غداء متأخرة أو للتمشي على ضفاف النهر. كان الجو شديد الرطوبة، والسماء تنتظر بتوتر أوان المخاض حتى تلد وتفيض بما تحمله من غيث.

الفصل السادس والثلاثون

كانا قد وصلا للتو إلى المسيرة عندما عضه الجوع بنابه. شعر رشيد بوهن يدب في أوصاله. ضباب رقيق غشا المتظاهرين. سدوا منافذ الشارع بجموع لا تنقطع. الجو غائم قاتم. ذبوله واضمحلال قوته يقعدانه عن شق طريقه وسط الحشود. كان محشورًا في مكانه لا يتزحزح إلا كسلحفاة. لعابه يسيل لمرأى دعايات الأطعمة، واجهات المطاعم وقطع الكعك في أيدي الأطفال.

بعد أنْ حسم أمره وقرر البحث عما يسد به رمقه، كاد يرتكب حماقة كبيرة. وصل إلى محل بيع هامبرغر، تذكر حملة المقاطعة، المسيرة تذكره بها حتى لو تظاهر بالنسيان. استدار ووصل إلى منعطف. عثر على مطعم صغير، السندويتشات المكدسة في واجهته طول الواحد منها نصف ذراع. حشا فمه بشرائح لحم مغطاة بالزبدة بين طبقتين من الخبز الطري. أطبق جفنيه وشعر بسريان الدم في أوصاله من جديد. ظل يقضم، ويمضغ، ويبلع. أجهز على الساندويتش بكل ما كان فيه، حتى آخر فتات من الخبز والزبدة واللحم والبطاطا المقلية. استرد عافيته وأصبح قادرا على تمييز المكان الذي هو فيه. إنه يجلس فوق كرسي من الخيزران، تعلوه

صورٌ بالأبيض والأسود لسيارات من طراز الخمسينات، فتيات في إطارات بلاستيكية حمراء. أبصر من خلال واجهة المطعم سيلا من المتظاهرين يعبرون الميدان، ومكبرات الصوت تهدر بخطب شجب وزجر. تمخّط وشعر بأنه في حال أفضل.

أقبلوا صوبه لدى خروجه من المطعم. أربعة وربما خمسة، بل كثيرٌ منهم على أي حال. اثنان منهم فقط كانا في الزيّ الرسميّ. تحدث إليه أحدهم، فوق أنفه بقعة حمراء، لا بد أنها من أثر نظاراته الشمسية، أنفاسه اختلطت برائحة ثوم. هذا كل ما استطاع رشيد التقاطه من المشهد. كانوا قريبين منه، طوقوه، انقضوا على ذراعيه كأنه يحاول الإفلات والهرب. كانوا يصرخون باسم وقعُه مألوف على مسامعه، كأنه عربيّ. تكهّنات! كان من انبعثت منه رائحة الثوم يتحدث عن تكهّنات. التصاقهم به، فظ، جلف، منفر وبغيض. أراد أنْ يدفعهم بعيدا عنه، لكن قبل أنْ يتمكن من الإتيان ولو بحركة، أطبقوا عليه، وقيدوا كفيه خلف ظهره.

اقتادوه إلى عربة تقف إلى جانب الطريق. صرخ أحدهم بالسباب والشتائم. حينها فقط أدرك أنه هو المقصود. لكن رغم ما تغصّ به الشوارع من بشر، ورغم هذا الانتهاك الفاضح للعدالة، لم يحرك أحد ساكنا.

- المشتبه فيه الذي يخضع للمراقبة أصبح رهن الاعتقال.

قال رجل الشرطة في زيه الرسمي عبر سماعة مثبتة فوق صدره. لا بد أنها مزحة سمجة! ماذا اقترفت؟ ماذا فعلت؟ تساءل رشيد باستهجان بينه وبين نفسه.

- إنكم مخطئون! لم أقترف أي جرم! دعوني وشأني!

انطلقت عربة الشرطة، دويها يصم الآذان. استدارت بسرعة، وقطعت منعطفات، لفت ودارت، علت وهبطت، فوق الشوارع، وحواف الأرصفة. انكفأ رشيد على كرسيّه، سقط على الأرض، سحبَ نفسه والأغلال في يديه إلى أعلى، محاولًا العثور على ما يمكن أنْ يتشبث به.

- يا أوغاد! أبطئوا من سرعة السيارة...

كانوا يلتفتون إلى الوراء، يتفقدونه، ويضحكون عليه من خلف الزجاج السميك الذي يحجب الصوت. تتحرك شفاههم بكلمات غير مسموعة، لكنها قطعا عدائية وشخصية.

عندما توقفت العربة أخيرا، وقف من جديد فوق أرض ثابتة تحت قدميه. عبروا به إلى قسم للشرطة، أفرغوا كلّ ما في جيوبه من أشياء ووضعوها في كيس شفاف. سجل رجل يجلس خلف مكتب كل محتويات الكيس، وقرأ ما كتب على مسامع رشيد، لكنه لم يسمع شيئا.

أبصر ضابطا رتبته أعلى ممن قابلهم. كان اسمه هو، رشيد، مكتوبًا على ورقة. نظر الضابط إلى الرقيب المكلف بالحجز، الذي جلس خلف مكتب، وسأله:

- هل هذا هو الشخص المطلوب؟

- أجل، وهو الاسم نفسه المكتوب في هويته الجامعية يا سيدي.

كان الرقيب رجلًا ضئيل الحجم، أنفه دقيق، وملامحه تنم عن يقظة وميل إلى الأذى كذلك.

- «يمكن استخراج مثل هذه الهويات في خمس دقائق.» ردّ الضابط وأردف: «خذه إلى أسفل وسننظر في أمره.»

سُمح له بإجراء مكالمة هاتفية واحدة بددها وهو يحاول الاتصال بليزا. كان جوالها مغلقا فترك لها رسالة صوتية مهذبة، ناشدها فيها أنْ تهب لنجدته. فهي وإنْ لم تكن صاحبته، حسبما يبدو من رغبتها في تأكيد ذلك، إلا أنها ستساعده حتما في الخروج من هذه المحنة.

لم تكن مساحة الزنزانة التي وضعوه فيها تتجاوز مترين في متر ونصف. فرشتان مغلفتان بالبلاستيك، عرضهما بارتفاع ركبتيه، كل واحدة منهما تستند إلى حائط. لا نوافذ، وهناك فقط فتحة في أعلى الباب موصدة بإحكام. الباب سميك ورائحة المكان خليط معتّق من البول والسجائر والقيء.

- «أريد محاميًا! من حقي أنْ تحضروا لي محاميًا.» صرخ رشيد بأعلى صوته.

راح يضرب الباب بقبضتيه. أتى ضابط ضخم الجثة، أطل عليه من فتحة الباب، فسكت رشيد على الفور.

- من الأفضل أنْ تستدعي الضابط المسؤول.

تنامى إلى سمعه صوت آت من آخر الممر. كان متأكدا من صحة ما التقطته أذناه إثر ذلك.

- سوء فهم بسيط.

سوء فهم بسيط؟ بالطبع سوء فهم بسيط! كان متأكدا من ذلك منذ اللحظة الأولى.

حاول رشيد تذكر كل ما مرّ به، استحضره ليوثقه في ذهنه، حتى يكون متأكدا أنّ كل ما سيرويه لخليل، أو لغيره، مرفق بتفاصيل كافية. الآن وبعد أنْ سمع التأكيد بأذنيه: سوء فهم بسيط، أصبح قادرا على تأمل الزنزانة كما لو كان يجلس خارجها ولا علاقة له

بها. ثمة ما يعجبه في هذه الدراما، شيء خبره في الأفلام والتلفاز. شعر بأنّ حياته صار لها معنى درامي، وأنه وصل، أخيرا، إلى مستوى من الاقتدار يؤهله لأنْ يكون النجم، البطل، وليس شخصية ثانوية، في سرد ذي قيمة. هذا الصوت الذي جال في رأسه جعله مقتنعا، بل متأكدا، أنّ اعتقاله كان خطأ مجافيا للصواب، وأنه شكّل انتهاكًا فاضحًا للعدالة. لكن الصوت الذي يؤدي دور الراوي في رأسه رفض أنْ يضع في الحسبان أي احتمالات أخرى، لأنه إنْ فعل سيخرج عن نطاق مهمته الترفيهية تلك.

راح يساعد هذا الراوي المغرور داخل رأسه ويمدّه بما يحتاجه من تفاصيل ليواصل سرده. كان حديث الراوي يبث فيه راحة واطمئنانا، علاوة على أنّ ما سمعه من وقوع سوء فهم أكد له صحة إحساسه تجاه ما يجرى. لذلك زوّد الراوي بتفاصيل الشعارات المحفورة فوق الحيطان، بعدد ما خلفته السجائر من حروق فوق غطاء الفرشة السميكة، بلمس أسطح الزنزانة اللامعة. جلس وأسند ظهره إلى الحائط. كانت أبرد مما كان يتوقعه في يوم حار، فمدّ قدميه فوق الفرشة. انتظر ليزا وانتظر محاميه. ترقب مجيء الضابط، يهبط السلم، يقطع الممر، ثم يعبّر له عن أسفه العميق لأنهم ارتكبوا غلطة بسيطة. كان كل ما يريده منهم هو مجرد الاعتراف والقول: ثمة سوء فهم بسيط، نعتذر منك أيها السيد.

قرر رشيد بينه وبين نفسه أنْ يتحلّى بالتسامح واللياقة عندما يأتيه الضابط.

الفصل السابع والثلاثون

كانت إيمان تتجنب لقاء «تشارلز»، لا لأنها تشعر بالخجل مما حصل بينهما، إذ مرت بما هو أشد إحراجا أثناء تعريتها لتفتيشها على الحدود، أو أثناء الفحوصات الطبية. لكنها تجنبته بسبب ما كان يعتريها من قشعريرة وارتباك كلما استحضرت تلك الرجفة التي هزت كيانه لحظة القذف. شعرت حينها وكأنه عطس بقوة في داخلها، فتطايرت من عطسته سوائل: لزجة، رطبة، دافئة، وسالت تحتهما فوق ملاءة السرير. سألها خليل:

- لماذا تبدو عليك إمارات الضيق؟

- مهما ضغطت بهذه الطريقة على جوالك فلن يغلق. هناك زر مخصص لهذا الغرض.

عندما حل المساء، ظن خليل أنه ضيّع إيمان أيضا، وأنه لن يعثر عليها مع انحسار الضوء شيئا فشيئا. كانت «إيفا» منهمكة تماما بالعمل مع النشطاء من حولها، لكن رشيد لم يظهر أبدا، وإيمان كان يتملكها الذهول.

تحت الضوء الخافت، بدا الميدان وكأنه كان ساحة قتال أثناء النهار، تتبعثر في أرجائه: أعلام صغيرة، أكواب كرتونية، منشورات،

كتيبات دعائية. جموع رجال الشرطة انفضت، وركبت كل ثلة منهم في حافلة صغيرة وغادرت المكان.

مكتبة
t.me/t_pdf

سألت إيمان:

- لا أثرَ له؟

- لا، لا أفهم على الإطلاق! كان متحمسا جدا للقائي، لا أعتقد أنه يختفي هكذا عن قصد. هل سألت ليزا؟

- غادرت بصحبة الشخصيات المهمة قبل أنْ أتمكن من الوصول إليها.

- بعض الشباب الذين جاؤوا من ليدز يريدون الجلوس معي قليلا.

أشار خليل إلى مجموعة ترفع شعارات تقول: مسلمون ضد الاحتلال.

- بعد أنْ أنتهي من لقائهم سآتي إلى شقتك إنْ لم يكن لديك مانع. لقد تركت حقائبي هناك.

- لا بأس بالطبع. إما أنْ أكون في انتظارك، وإما أنك ستجد إيفا على الأقل. إنها لا تفارق الشقة لأنّ امتحاناتها النهائية على الأبواب. حقا إني مندهشة من مشاركتها اليوم في المسيرة، فهي لم تتوقف عن الدراسة ليلا أو نهارا طيلة الأسابيع الماضية!

- هل ستذهبين إلى مكان ما؟

نظر خليل باستنكار إلى إيمان. لم تكن قد قررت بعد إلى أين ستذهب، لكن لا رغبة لها في التوجه إلى الشقة.

- يجب أنْ نجلس ونتبادل الأخبار. لم تخبريني بما حدث معك في الخليج، كيف حال والدك؟

- بابا ينتعل الآن أحذية من جلود صناعية مثل جلد الأفاعي. ماذا عن والدك؟ أما زال يرتدي ربطات العنق الليمونية؟

- تحول عنها إلى الأصفر المخضر. لكن أجل ما زال على حاله.

- لا بد لي من العثور على رشيد.

- وغدا!

لم يتعانقا عند افتراقهما لأنّ رشيد لم يكن هناك. هذا ما تعاقدا عليه ضمنيا دون كلام عندما لا يكون شقيقها حاضرا. راقبت إيمان خليل وهو ينضم إلى المجموعة التي كانت في انتظاره. عندما صار على مقربة من هؤلاء الإخوة (لم يكن لديها شك في أنهم ينادون بعضهم البعض بهذه الكلمة وأنهم سيستخدمونها عند مخاطبة رشيد) مسحوا بأيديهم على ظهره كما لو كان ظهر حجر مقدس.

الجو من حولها كان حارًّا رطبًا. لعله سيبقى على هذه الحال لأمد غير متوقع، وبدا وكأنه يعد العدة، يتأهب، يتحفز، ويصل إلى الذروة ثم ينفجر. جموع المتظاهرين تفرقت، ومضى كل منهم في حال سبيله. استعدت إيمان لترك المكان قبل وصول السياح، فهي لا ترغب في تتبع عبثهم الذي لا طائل منه، وتخاف أنْ يكون معديا. وجدت نفسها تتجه صوب النهر، تمشي في الشارع الذي اختفى فيه الأيوبي. انتهى الشارع إلى ميدان صغير تزينه نباتات وعشب أخضر، وتتوزع في أرجائه مقاعد خشبية. وفجأة وهي تسير في ذلك الشارع الفرعي خرج عليها زياد الأيوبي من خلف بعض الشجيرات. كادت تضحك من صدمة ظهوره المفاجئ. هل أصيب بالجنون ليخرج على هذا النحو المباغت؟ أكان يختبئ خلف شجيرات الورد الجوري؟

خلف زياد كان يمتدّ سياج أخضر مشذب بعناية، وترتفع من حوله أغصان مكللة بالزهور، فظهر أمامها محفوفا بتيجان وردية، محاطا بألوان بديعة، وملفوفا بأنسام فواحة بالعبير. كم يختلف لقاؤهما هذا عن لقائهما الأول! لكنه ما زال على حاله: السترة نفسها، الوقفة ذاتها، وتلك النظرة، عيناه تشيان باهتمام بالغ بها. ورغم أنه لم يكن يحمل بندقية، إلا أن إيمان رأتها فوق صدره.

- آنسة إيمان.

خطا في اتجاهها، فابتسمت له بارتباك. كأنه أمسك بها وهي تقترف ذنب تبديد وقتها في المنفى دون القيام بما عليها من واجبات. أدركت كم تشعر بالضآلة في حضرته! لم تستطع أنْ تخاطبه باسمه، فهي منذ لقائهما الأول وهي لا تنفك عن سوق المسوّغات وتقديم التفسيرات إلى طيفه، حتى غدا اسمه، زياد الأيوبي، منبتّ الصلة بحديثها الداخلي معه. لكن رغم ذلك فقد كان لوقع اسمه في أذنيها أثرٌ عظيم عليها. شعرت أنّ اختزال وجوده في مجرد اسم، في لفظٍ اعتباطي محدود، يحطّ من قدره ويقلل من شأنه في عينيها.

كانا باديين للعيان، فأحست أنّ الوجود بكلّ ما فيه توقف ليحتفي بلقائهما. إنهما معا في نفس المكان! يا له من حدث مذهل! رائع وعظيم! لقد فعلاها مرة أخرى، إنهما هنا، معا!

وقفا كأنهما ينتظران أحدا أو يترقبان شيئا. ارتسمت على وجهه ابتسامة، كأنها تحمل له أخبارا مهمة، تخصّهما هما الاثنين.

- «إنني أبحث عن شقيقي.» أرادت تبديد أجواء الترقب.

- كنت آمل أنْ تكوني هنا.

- ألم تره؟

- شقيقك؟ كلا لم أصادفه. لكن إنجليزيا يرتدي ملابس سوداء ظنّ أني رشيد.

- سأذهب إلى الميدان للبحث عنه مرة أخرى.

كان لقاؤه شديد الوطأة عليها. لم تسمع ما قاله، هل قال شيئا؟ ثمة شيء قاله لها. لم تستطع التركيز إلاّ على حركاته وطريقته في الحديث.

- «حسنا.» هزّ كتفيه دون أنْ يتحرك من مكانه.

ربما أخطأت في فهمه. بدا الآن خائفا من شيء ما. تراجع نحو الشجيرات، وابتعد عن أنظار المارة في الطريق. تخيلت أنها ستقول له عندما تلتقيه إنه كان على صواب، وإنّ ما فعلته في ذلك اليوم كان خطأ، وإنها كانت غبية. ألم تعتذر لإيفا؟ لم لا تعتذر أيضا له؟ ليكن هذا يوم اعتذارات تنتهي فيه من كل هذا دفعة واحدة. ربما كان عليها أيضا أنْ تشكره لجرها على ذلك النحو من موقع الانفجار، تقول له: لقد أنقذتني من الموت. وصل بها تفكيرها إلى حد الاعتذار عن الطريقة التي خاطبته بها حينذاك. لكنه الآن يقف أمامها مرتبكا كأن حضورها يخيفه، يرعبه ويرهبه! إنه لا ينظر حتى في عينيها بل يشيح بوجهه بعيدا عنها! لسبب ما لم تشعر بأنه يستحق منها اعتذارا، بل كادت تشتمه وتطلب منه أن يتماسك. تمنت لو أنّ في وسعها أنْ تحمله على التصرف وفق ما كانت تشتهي حينها. آه! لو أنه يقوم بذلك من تلقاء نفسه.

- كان برفقتي ثم اختفى. لا أدري أين ذهب.

تلفتت نحو اليمين ثم نحو اليسار ثم نظرت في اتجاه الميدان. همّ بقول شيء لكنه توقف ولم ينبس بكلمة.

- لا بدّ لي من البحث عن شقيقي.

استدارت بارتباك، همّت بالمشي، لكن قبل أنْ تخطو خطوة واحدة جذبها بحركة خاطفة.

- أردت أنْ أراك، كنت آمل أنْ تكوني هنا في لندن. لا بد لي من توضيح سبب اعتقال أبي عمر. كما أنني أريد أنْ أعرف إنْ كنت على علم... هل أخبرك شقيقك بأي شيء؟ هل شرح لك خلفية الأمر؟

- اعتقال أبي عمر؟ لماذا يعرف رشيد أي شيء بهذا الخصوص؟

- كلا، ليس رشيد بل صبري.

سقط ضوء المساء مباشرة فوق عينيها، فتحوّل زياد إلى طيف نوراني غير واضح المعالم.

- إنني أبحث عن رشيد.

- أدري، ستعثرين عليه. لا بد أنه ذهب إلى مكان ما. دعك منه الآن.

مرّ بهما زوجان يتضاحكان. قالت المرأة شيئا يشي بالازدراء، ولم تتمكن إيمان من التقاط ما قالته من كلمات.

- ماذا بشأن صبري؟

- دعينا نذهب إلى مكان آخر.

حين ابتسم رأت أنّ أحد أضراسه مخلوع، على الجانب الأيمن من فكه، إلى الخلف. بدا لها جليا الآن، من الغضون حول عينيه والخطوط المرتسمة فوق جبينه، أنه أكبر بكثير منها ومن رشيد. ربما يكبرهما بجيل، لكن الشبه بينه وبين رشيد أكيد. نظر إلى الجهة الأخرى من الشارع بعيدا عن الميدان وقال:

- «لا أريد المكوث هنا.» تفحص ما حوله، «هناك مكان أودّ منك رؤيته، ثمة أمورٌ يجب أنْ تعرفيها.»

أبرقت السماء ثم أرعدت.

- دعيني آخذك إلى ذلك المكان، هيا.

بدأ في اقتيادها إلى الوجهة التي يريد ثم توقف فجأة عن المشي وقال:

- لا بدّ لي من توضيح بعض الأمور.

وقوفه المفاجئ باغت من كانت تمشي خلفه. صدمت رجليه بعربة طفلها، تبرمت بانزعاج واضح.

- هلا انتبهت؟

سار معها حتى وصلا إلى شارع عريض تحفّه أشجار مقشّرة الجذوع، تتدلى على جانبيه مصابيح كروية من زجاج، وترتعش فوقه أوراق الأشجار المتساقطة.

- إنه هناك.

أشار زياد صوب فندق أبيض اللون ينتصب وسط الشارع المظلم مثل كتلة ضخمة من الضوء الساطع، كأنه سبيكة فضية تشع بألف ضوء وضوء.

- تريد الذهاب إلى ذلك المكان؟ ذلك الفندق؟

تذكرت إيمان اسم الفندق من رواية درستها أيام المدرسة. إنه من عهد غابر كانت النساء فيه يتزيّن بالريش، ويصفف الرجال شعور رؤوسهم إلى الخلف. في هذا المكان جلس هؤلاء ذات مرة بعد مأدبة عشاء، بأيديهم أقلام رصاص حادة، ثم قطّعوا أوصال العالم العربي.

- لا يمكننا الجلوس في هذا المكان.

تراجعت إلى الخلف، وتجنبت مواجهة البواب في بزته المهيبة. تجاهلها زياد وقادها إلى البهو. مشى مشيته الواثقة نفسها التي

شاهدته يمشيها في شوارع غزة. لم يبدُ عليه أنه لاحظ كم كانت هيئتهما رثة على خلفيّة مظاهر الأبهة من حولهما. كانت صالة الشراب التي يريد منها أنْ تراها إلى الخلف في نهاية الفندق: هيكل من قضبان معدنية وألواح زجاجية ضخمة، حيطان مغطاة بالمرايا وسقوف تتدلى منها ثريات كريستالية، زجاجات وقوارير تصطف بخيلاء فوق رفوف براقة.

- «هنا،» قال زياد بزهو، «ما رأيك؟»

هذا مكان مبهرج إلى حدّ الابتذال، تمتمت بينها وبين نفسها، وقد صُمِّم ليبدو مريحا وبسيطا، ولكنه عكس ذلك تماما.

- كيف عثرت على هذا المكان؟

- أرادوا مني الإقامة فيه.

قال جملته وكأنها تشرح كل شيء. لكنه عندما نظر إليها أدرك أنّ الأمر ليس كذلك.

- السلطة. حجزوا لي غرفة لأقيم هنا. عندما رأيت الفندق عرفت أنه لا يمكنني المكوث فيه. لا أريد منحهم أي ذريعة لاتهامي بقبول معاملة خاصة أو امتيازات شخصية.

كانا في مدخل صالة الشراب. دخل إلى البهو أربعة رجال، رؤوسهم يعلوها الصلع، ما يرتدونه من بذلات لا يناسب مقاساتهم. حملق زياد فيهم دونما توقف، وظل في مكانه حتى تحرك هؤلاء.

- لديّ أعداء.

- كلنا لدينا أعداء.

- وكلهم يتظاهرون بأنهم أصدقاؤك؟

- بعضهم.

- لكن أعدائي يتحيّنون الفرص للنيل مني، تعالي.

حاول تلطيف الأجواء بينهما بابتسامة جديدة تناسب المكان الجديد. صالة الشراب بدت متباهية بزينتها البراقة، منشغلة عنهما، غير مكترثة بهما. الفندق ليس لهما، إنها لا تدري لمن يكون، لكنها ظنت أنه يمكن أنْ يكون لهما في هذه الأمسية لو شاء ذلك.

عندما اقتربا من الطاولة فقط، أدركت كم كانا على مقربة من بعضهما خلال وقوفهما وسيرهما معا منذ أنْ التقيا في الشارع. لم تفعل ذلك بوعي منها، كأنّ قوة خفية كانت تحركها. خطت في أثره، وحافظت على مسافة لصيقة بينهما. جلسا إلى الطاولة، وكم بدا لها الجلوس معه استثنائيا! توقعت من الآخرين أنْ يلمسوا غرابة الموقف، لكن لا يبدو أنّ من حولها شعروا بذلك. رجال الأعمال هؤلاء لاهون عمّا حولهم بسبب وطأة السُكْر: «قلت له لا تشتر بأكثر من ثلاثة ملايين لكنه مضى قدما واشترى بستة!» أما ثلة السائحين الكئيبة تلك فتنتابها الحيرة: هل نعرّج على أحواض عرض الأسماك بعد العرض المسرحي؟ أم نرجع إلى شارع أوكسفورد؟

- «هل عائلتك بخير؟» بادر أخيرا إلى كسر ما خيّم عليهما من صمت.

- عائلتي؟ إنها بخير.

كادت تسأله: وعائلتك؟

شعرت كم أن ذلك سيكون مُربِكا له.

- لقد وصلت في نهاية كلمتك، بلغت الميدان بينما كنت في الختام.

- لا بد لي من شرح ما حصل هناك.

كان هناك قدرٌ من البلاهة في تبسمه بشفتين مطبقتين. إنه لا

يتناسب مع ذاك الشرود في عينيه، كما لو أنه وحيد تائه في عرض البحر.

طلب لها عصيرا من الفاكهة، فهي لم تكترث حتى بطلب قائمة المشروبات، ثم طلب قدحا من الشاي لنفسه. عندما وصلها ما طلب، راحت تحملق في قصبة المصّ، تنتصب وسط مظلات ورقية، على حافة الكوب كرز أحمر وقطع أناناس.

- ما الذي تريد أنْ تشرحه؟

- خلال إلقائي كلمتي اعترتني نوبة من تلك النوبات. إنني أحسن حالا الآن، لكن أحيانا تمر بي لحظات... حشود ودماء. فيما يبدو فإنني أعاني من ذلك الرُهاب (فوبيا الحشود). لم يحدث معي هذا منذ وقت طويل. كنت بخير عندما بدأت الكلام لأنني كنت أنظر إلى أعلى وأتجنب النظر إلى الحشد. لكن فجأة استبدت بي رغبة جامحة حملتني على النظر إلى أسفل. أبصرت كلّ تلك الوجوه المترقبة من حولي. عبس وأردف قائلا:

- أنا بخير الآن.

- هل تعاني دائما من هذه الحالة؟

- منذ الطفولة، بعد أنْ تعرّض والداي...

- والدي كان على معرفة بوالديك.

- «حقا؟» أشرق وجهه فورا، «أين؟ لا بد في بيروت.»

- كانا مثقفين زيادةً عن اللزوم من وجهة نظره.

- القراءة والنقاشات والحفلات، هذا ما أتذكره.

رأت الفراغ الذي خلفه الضرس المخلوع في فمه مرة أخرى. شريان نافر على صدغه يمكنها أنْ تقتفي أثره بإصبعها لو شاءت.

- إيمان، أريد أنْ أوضح لك الأمور بشأن ما حدث يوم اعتقال أبي عمر...

أبو عمر؟ تمتمت إيمان بينها وبين نفسها. إنها لا تريده أنْ يأتي لا على ذكر أبي عمر ولا حتى على ذلك اليوم.

إنها تفضل أنْ يطوي النسيان أبا عمر في هذه اللحظة التي يجلسان فيها داخل هذا المكان الزجاجي. أخبار المكان الذي أتوا منه تخيّم عليهما، تحوم فوقهما، تحيط بهما، لكنها لا تريد الآن لأي شيء منها أنْ يفصل بينهما. ملّت من التعبير عن وجهة نظرها أو توضيح موقفها له. كل ما تريده هو أنْ تترك نفسها لتستمتع بجمال كتفيه، بعزف المطر على السطوح الزجاجية فوق رأسيهما. وضعت حبات الكرز في فمها، طوّقت فمها بيدها، وحاولت انتزاع النواة بلباقة. تابع ما بدر منها بنظرات فضولية كأن حركاتها بدت له ظريفة وطريفة. أطال النظر في رسغ يدها، مما جعلها واعيةً بذلك الموضع من جسدها أكثر من أي وقت مضى. نظرت إلى رسغها كأنها تراه لأول مرة. كلا، لا تريد أنْ يفسد أبو عمر بكرشه البائس فرادة تلك اللحظة بينهما.

- «ماذا بشأن أبي عمر؟» سألته رغما عنها.

- «لقد أدّى دورا أساسيا في...» بدأ زياد في الحديث، «لدينا دليل قوي على أنه أدّى دورا أساسيا...»

لكن جوالها رنّ في تلك اللحظة. إنه خليل يخبرها عن رشيد، فلم تتمكن من سماع بقية جملته.

الفصل الثامن والثلاثون

كان الممر المؤدي إلى زنزانة رشيد يضج بأصوات سكارى غاضبين، طقطقة كعب نسائي. **أيها السفلة الملاعين...**

عندما خطر بباله أنه ترك نافذة غرفته مفتوحة قليلا في الصباح، شعر بالوحدة واليأس في زنزانته. داخل غرفته الآن، سيكون الظلام قد حلّ، ملاءة سريره باردة، حاسوبه يومض لنفسه فحسب معلنا وصول رسالة إلكترونية أخرى. سينبعث ضوء برتقالي اللون من الشارع. تلك الساعات الفاصلة بين المساء وهبوط الليل، كانت هي الوقت الأثير لديه في تلك الغرفة.

أشياؤه كلها تنتظره هناك، لكنه لن يعود إليها. ربما ليس الليلة أو في أي وقت. سيصبح مجرد قصة من قصص الاعتقال والترحيل أو الإبعاد السري. قصة أخرى عن انتهاك العدالة والقانون، تستقر في بريد إلكتروني إلى جانب عشرات مثلها، ثم تشطب بكبسة زر. هكذا سينتهي به الحال إذًا! يجلس فوق فرشة تخمد الأنفاس بسبب رائحة البول القوية فيها، داخل زنزانة تقع تحت الأرض في قسم للشرطة في لندن، بين السكارى وبائعات الهوى! آه! لو كان يدري بأنّ نهايته ستكون هكذا. **لو كان يعرف بأنه سيؤول إلى هذا المآل.**

فيما يتعلق بليزا، فهو المسؤول الأول عن خراب العلاقة بينه وبينها. لو لم يسرف في احتساء البيرة في ذلك المطعم لكانت الأمور سارت على نحو مختلف. لو كان يعلم بمآل العلاقة بينهما لما فكّر بتاتا في دعوة شقيقتها إلى الحفل الغنائي. إنه يدري الآن أنّ الأمور بدأت تتدهور بعد تلك الحادثة. كم تعذبه تلك التفاصيل الصغيرة عندما تأتي في باله. كيف كانت ليزا تصحح أبحاثه بقلم أحمر وهي تجلس منتصبة الظهر، أو تلك المرة التي أصلحت له الموضع الممزق من حقيبته، أو عندما كانت ترفع رأسها فينسدل شعرها فوق الوسائد وينزلق عن حافة السرير. آه! كل ذلك الذي حصل بينهما فوق السلم! ثنى رجليه إلى صدره واحتضنهما بيديه، كتلتين من لحم ضامر وعظم نافر، لن تحظيا أبدًا بلمسة حب أو حنان.

أبواب الزنازين تنصفق بشدة وتثير الرعب فيه. إنهم يقبضون عليهم، على كل العرب في لندن. إنها النهاية. لاحظ بقعا من الحشيش الأخضر فوق ركبتيه. تذكر أنه جثا على الأرض باحثًا عن ولاعته عندما سقطت منه تحت المقعد في الحديقة الصغيرة. هناك في مكتب السجلات العامة عندما ذهب عصر هذا اليوم. إنهما علامتان من زمن آخر، أمه ترفع بندقيتها مبتسمة. لم يقبضوا عليها. أقدمت على أمر عظيم. اختطفت طائرة بحقّ السماء. لكنهم لم ينالوا منها. أما هو الذي لم يفعل شيئا فيساق إلى سجن، يحشر في زنزانة وتحلّ نهايته.

إيها الوغد اللعين... بدأ الصراخ من جديد. أناشيد من المظاهرة تناهت إلى سمعه من مكان ما، ثم تحولت إلى هتافات تعالت على وقع انصفاق أبواب الزنازين.

- السيد «موجاهيد».

أطلّ ضابط من الفتحة الصغيرة فوق الباب.

- تأكدنا الآن من هويتك الحقيقية، لهذا عدّلنا تهمة اعتقالك من تهمة اعتقال خطيرة إلى تهمة اعتقال فقط. هذا التغيير الذي طرأ على وضعك مرده التحقق من هويتك. جرى التباس بينك وبين شخص آخر مطلوب لارتكابه جرائم خطيرة...

اختفت العين التي كانت تطلّ عليه من الفتحة وظهر فمٌ مكانها.

- هل ستطلقون سراحي؟

أجاب بنبرة لا تخلو من تشفٍّ ماكر:

- كلا يا بني، لا يمكنك الخروج الآن من هنا.

- دعني أشرح لك. عندما أحضروك إلى هنا كان في حوزتك كمية غير بسيطة من الحشيش. لقد وقّعت بنفسك على حيازتها عندما وصلت.

رشيد لا يدري كيف فعل ذلك، كان قد نسي الأمر تماما.

- لهذا سنبقيك رهن الاعتقال بشبهة حيازة مخدرات من الفئة «ج» بقصد الترويج والبيع. لقد طلبت محاميا، والمحامية في طريقها إلى هنا، لكن يبدو أنها ليست في عجلة من أمرها. ربما لأن شركة المحاماة انتابها حماس شديد عندما اعتقدوا أنك هنا لشبهة بارتكاب عمل إرهابي. كانوا على أهبة إرسال محام مرموق. أما الآن بعد أنْ أصبحت تهمتك مجرد مخدرات ومسائل متعلقة بالهجرة فإنهم لن يرسلوا لك سوى محامية مبتدئة.

أطلت العينان مرة أخرى من الفتحة جاحظتين وتتحركان ببطء نحو رشيد.

«محامية مبتدئة وربما فطمت حديثا عن صدر أمها. ضرر هؤلاء أحيانا أكبر من نفعهم، ما قولك؟ إنْ شئت فإن في إمكانك الذهاب الآن إلى جلسة التحقيق دون انتظار محام. الخيار خيارك بالطبع، ولكنا قد نضطر إلى سجن آخرين معك في هذه الزنزانة. أرجو أنْ تعرف ما يعنيه هذا. قد يتبدد الهدوء في زنزانتك هذه. لهذا إنْ أحببت فإننا جاهزون الآن وفي إمكاننا البدء بالإجراءات. نحن في خدمتك وخدمة جلالة الملكة.»

- «اخرس وأغلق فمك...» تعالى صوت امرأة محتجزة في الممر بالشتيمة ضد أحد الموقوفين من الثوريين لأنه لم يكفّ عن الهتاف.

أيدها الضابط:

- معك حق.

ردت عليه المرأة.

- خنازير!

انفجر الضابط وصرخ عليها بغضب:

- اخرسي وإلا أخرستك بنفسي.

- سأنتظر قدوم المحامية. شكرا لك.

تنبه رشيد إلى ما تفوّه به. هز رأسه بأسى وقال في نفسه: شكرا لك؟ يا للبؤس!

- «كما تحب، على راحتك، إذا كان هذا ما تريده حقا. لكنك قد تنتظر طويلا.» أغلق الضابط الفتحة بعصبية.

الفصل التاسع والثلاثون

ليزا على الهاتف، أنفاسها متلاحقة وصوتها بالكاد يمكن تمييزه. استأذن خليل من إيفا ووقف إلى جانب النافذة في شقتها.

- ألقي القبض على رشيد. ترك لي رسالة صوتية لكني كنت مشغولة جدا. أغلقت جوالي لأني كنت في عشاء مع...

ذكرت ليزا اسم شخصية أرستقراطية واسمًا آخر بدا مألوفا جدا لخليل.

- «أنت تعرفه، إنه ذاك الشاعر؟» سألت ثم أكملت، «استمعت الآن لرسائلي الصوتية، لا بد أنه في الحجز منذ وقت طويل.»

- أين هو؟

- هذا ما يثير القلق.

سمت له مركزا للأمن أثار تشاؤما في نفسه.

- إنه المكان الذي يحققون فيه مع المشتبه فيهم بالإرهاب. لا بد أنهم يعتقدون... ربما يعرفون شيئا عن عائلته أو... نشاطكما.

- ربما عليك أن تكوني أكثر انتباها عندما تتكلمين عبر الهاتف. أنشطتنا لا ترتبط بغير منظمة لحقوق الإنسان.

نظر خليل إلى إيفا، تتظاهر بعدم التنصت على المكالمة.

- طبعا، طبعا، أنشطتكما الخاصة بحقوق الإنسان. لست أدري! أصبح الكل متهما في الوقت الحاضر. يجب أنْ نذهب إلى هناك فورا. هل نلتقي هناك؟

- ألم يقل لك لماذا اعتقلوه؟

- كلا، قال إنه ليست لديه أي فكرة.

بدا صوتها مشوبا ببكاء صامت وحماس بالغ للبدء بالعمل.

- إنه في حاجة إلى محام، لكني في حيرة من أمري. لا أعرف سوى كبار المحامين الجنائيين. إنهم ماهرون للغاية لكنهم لا يصلحون للذهاب إلى مركز للأمن.

- سأقابلك عند المدخل الرئيسي إذًا؟

- طلب مني أنْ أبلّغ إيمان، أرجوك أنْ تخبرها نيابة عني.

راقبت إيفا خليل خلال مكالمته مع ليزا ثم وهو يضع جواله في جيبه. لم تكف عن ذلك حتى بعد أنْ عاود الجلوس. أفرغ حقيبته من بعض الكتب والمنشورات، ثم وقف متهيئا للخروج.

- لا بد أنك عرفت أنهم اعتقلوا رشيد، لا ندري لماذا. سأذهب إلى مركز الشرطة ولا أدري كم سأمكث هناك.

أشار إلى حقائبه على الأرض، «سأتركها هنا، وأعتذر منك على ذلك.»

راقبت إيفا خليل وهو يسحب حقائبه إلى زاوية في الغرفة. إنها لا تعرف أيًا منهم بشكل كاف، والآن ألقي القبض على أحدهم. تجنبت النظر إلى حقائب خليل خلال وجوده. انتظرته حتى انصرف ثم فتحت حقيبته السوداء. لم يكن فيها الكثير: سروال قديم مقلّم للنوم، كتابان، ذاك الذي شرح لها فيه عن الخرائط وثان عن السينما

الإيطالية، فرشاة أسنان في كيس بلاستيكي، قميص قطني ولباس داخلي.

دفعت باب غرفة إيمان. لم تكن قد دخلتها من قبل. السرير يبتلع المساحة كلّها تقريبًا ولا يبقي إلا على ممر صغير فيها، بطاقة بريدية لغابة في إسبانيا معلقة على الجدار، علم بالغ الصغر مثبت على عود ثقاب، كأس بزجاج أزرق وحافة ذهبية. فتحت إيفا الخزانة. كانت هناك صفوف من الثياب الجديدة، أكثر أناقة بكثير من سروال الجينز الذي ترتديه إيمان طيلة الوقت، بعضها لم يلبس أبدا.

كومة من الكتب إلى جانب السرير، حشرت نفسها ومشت بصعوبة في الممر الضيق. تناولت واحدا منها، غلافه جلدي قديم، نصوص عربية تطرز صفحاته. تأملتها، ارتسم في مخيلتها رجال بأثواب طويلة، في جبال جرداء، أجفانهم مرتخية، يتمتمون، رؤوسهم تميل تارة إلى الخلف وتارة إلى الأمام، في حجر كل منهم بندقية. ثم مرت بخاطرها أشرطة فيديو، مشاهد إعدامات وقطع رؤوس، جموع من الرجال، يلطمون صدورهم بقبضات أيديهم، يجلدون ظهورهم بالسياط. التقطت كتابا آخر، نصوص مطرزة بالحروف نفسها، لا بد أنها كتب دينية. حملقت في سطر وارتعدت خوفا. ليتها كانت قادرة على فك سر تلك الحروف، فهي ليست سوى بيت شعر لشاعر أموي مجهول.

الفصل الأربعون

مدخل مركز الأمن بائس وقذر. ممسحة ملطخة ببقع من الوسخ، مياه المطر تنزّ منها، فوقها أعقاب سجائر وأوراق شجر. كلّ تلك القذارة عبرت من الباب الذي يبقيه مفتوحًا مدخنون في خارجه، يدردشون مع آخرين في داخله. أبصر خليل ليزا وهي تحاول شقّ طريقها وسط أقارب مخمورين ألقي القبض عليهم. يدخن هؤلاء بلا توقف، يرتدون سراويل رياضية ويتزينون بسلاسل ذهبية.

تصرفت ليزا وكأنها لم ترَ خليل. توجهت مباشرة نحو الاستعلامات.

- أنا هنا بخصوص رشيد مجاهد.

- تفضلي واجلسي، لم ننته منه بعد.

- أين هو الآن؟

- أعتقد أنه ذهب حالا إلى جلسة التحقيق.

- جلسة التحقيق؟ لِم تأخّر إلى هذا الحد؟ منذ متى وأنتم تعتقلونه؟ هل وُجّهت إليه تهمة؟ لماذا أبقيتموه رهن الاعتقال هذه المدة الطويلة؟ هل وفرتم له محاميًا يمثله؟

- لو سمحت يا آنسة، تفضلي بالجلوس أولا. سأتصل بقسم

الاعتقال في الطابق السفلي وأحصل منهم على كل ما يهمك من معلومات. هل أنت من أقربائه، أم من أصدقائه؟ ماذا تكونين بالتحديد؟

- أنا صاحبته، صديقته الحميمة في الواقع.

- حسنا، كلّ ما أعرفه أنه حصل على تمثيل قضائي، أما باقي الأمور فسأسأل عنها.

- هل تقصدين محاميًا؟ ما اسم مكتب المحاماة الذي يشتغل فيه؟

- اهدئي قليلا وتفضلي بالجلوس.

- أنا مرتاحة هكذا.

راحت ليزا تنقر على الطاولة بأظافرها، بينما رفعت الشرطية سماعة الهاتف وطلبت رقما.

«حسنا، مفهوم.» ظلت الشرطية تتمتم من حين لآخر خلال المكالمة الهاتفية. «مفهوم»، كانت تسجل ما تسمعه في ورقة لم تتمكن ليزا من رؤية ما تكتبه الشرطية فيها.

- هذا ما حصلت عليه من معلومات: وصل إلى هنا في تمام الرابعة والثلث، أجرى مكالمته الهاتفية في الخامسة وخمسين دقيقة، طلب محاميًا في السادسة وثلاث وأربعين دقيقة. الممثلة القانونية استغرقت وقتا طويلا في القدوم إلى هنا، وصلت في الثامنة وثمان وأربعين دقيقة. في هذه الأثناء انشغل ضباط التحقيق في جلسات أخرى. لهذا تأخرت جلسة التحقيق معه حتى التاسعة واثنتين وثلاثين دقيقة. اسم مكتب المحاماة الذي بعث بممثل قانوني هو «واتكنسون فارلي»، أما المحامي المناوب فهو «ديفيد فارلي». كلا، كان هذا

هو المحامي الذي يفترض أنْ يأتي، ثم تغير الأمر وجاءت «آنابيل بريستون». إنها ممثلة قانونية تعمل لدى مراكز الشرطة والأمن.

- ليست محامية إذًا؟

- كلا، إنها كما قلت ممثلة قانونية. الأمر سيّان بالنسبة لنا.

- وماذا عن كل هذا التأخير؟ لقد وصل هنا في الرابعة والثلث ولم يتمكن من طلب محام إلا بعد نحو ساعة. لماذا؟ أين كان خلال ذلك الوقت؟

- كان في زنزانة من الزنازين في الطابق السفلي. أعتقد أنّ سبب التأخير هو أنّ الضباط اعتقلوه بتهمة معينة، ثم وبعد تفتيشه، قرروا التحقيق معه على أساس تهمة أخرى. هذا كل ما أخبرني به مسؤول الاعتقال. والآن لو سمحت تفضلي بالجلوس.

نظرت ليزا إلى من حولها في الغرفة. كان الجميع يراقبونها. أبصرت خليل، فتظاهرت بأنها متفاجئة. مشت نحوه. أزاح علبة البطاطا المقلية الفارغة وكتيبًا لبيع هواتف محمولة من فوق الكرسي المحاذي له.

- يبدو أنه اعتقل بناء على تهمة معينة، لكنهم الآن يحققون معه بخصوص تهمة لها علاقة بشيء عثروا عليه عند تفتيشه. ما رأيك؟

قالت هامسةً رغم أنّ جميع من كانوا في الغرفة سمعوا بوضوح ما قالته الشرطية.

- ما الذي يمكن أنْ يكون في حوزته؟

- لا أدري، لم أر هذا الوغد منذ زمن طويل. قضيت معظم النهار في مطاردته، ذهبت إلى غرفته ثم إلى شقة إيمان. نسقنا معا حتى نلتقي في المسيرة لكنه اختفى قبل أنْ أتمكن من رؤيته.

- لم يكن في سكن الطلبة هذا الصباح؟

- كلا، ألم يقض ليلة الأمس في شقتك؟

- أوه! كلا. الأمر ليس على هذه الشاكلة بيننا، بالكاد التقينا في المدّة الأخيرة. نحن... أنا... كنت مشغولة جدًّا في تنظيم المسيرة والتنسيق مع المتحدثين، والأمور الأخرى. بالمناسبة، ما رأيك بالمسيرة؟

- أعتقد أنها كانت رائعة. فاتني جزء مهم منها بسبب البحث عن رشيد، لكن ما رأيته كان ممتازا، أعداد المشاركين عظيمة. من الذي اقترح اسم الأيوبي؟

- كلمته كانت مؤثرة جدا، أليس كذلك؟ لكن الطريقة التي أنهاها بها كانت غريبة، ألا توافقني الرأي؟ حزبه هو الذي اقترح اسمه. في الواقع كنت أريد مشاركة أحد المتحدثين المعروفين، من الذين يظهرون على شاشات التلفاز طيلة الوقت، لكنهم كانوا جميعا مشغولين. مع ذلك، أنا راضية تماما عن مشاركة الأيوبي.

الكرسي البلاستيكي أصدر صريرا عندما ألقت عليه ليزا نفسها، وهي تضع حقيبتها في حضنها.

لم يعد لدى خليل وليزا ما يتحدثان به. ظلا صامتين لمدة طويلة قبل وصول إيمان وشعرُها مبللٌ تمامًا بالمطر.

تعجبت إيمان من وجود ليزا هناك. رشيد أخبرها بأنه نادرا ما يراها منذ أنْ اصطحب أختها إلى حفل غنائي. مرت شهور وهما على هذه الحال. العلاقة بينهما عبر الهاتف فقط، يتحدثان في مسائل جدية تخص العمل، مثل مناقشة أسماء متحدثين للمشاركة في المسيرة وأمور عملية من هذا القبيل. لم تبد ليزا مسرورة برؤية إيمان. حيّت كلٌّ منهما الأخرى على مضض.

سألت إيمان خليل بالعربية بعد أنْ علمت منه تفاصيل الأمر:

- ما الذي كان في حوزته وعثروا عليه خلال تفتيشه؟

شعرت إيمان بتململ ليزا فوق كرسيها امتعاضا من تغيير لغة الحديث.

- «ليس لديّ أي فكرة.» ردّ خليل بالإنجليزية، «أين كنت بالمناسبة؟ انتظرتك في الشقة.»

- التقيت شخصا أعرفه وذهبنا معا لنشرب كأسا.

حاولت إيمان الإيحاء بأنّ هذا أمر تفعله بصورة منتظمة.

- «من؟» سأل خليل، «من هو الذي التقيته وذهبت معه لاحتساء كأس؟»

- تقصد من صادفت؟

- طبعا إلا إذا كان الأمر شخصيا...

- كنت مع زياد الأيوبي.

- ما رأيك به؟

ليزا سألت باندفاع قبل أنْ تتسنى لخليل فرصة للتعبير عن دهشته.

- «كلمته كانت رائعة! ذكرت لخليل أننا لم نطمئن عند اقتراح اسمه لأننا كنا نريد شخصية كبيرة، لكنهم أصروا على زياد فاضطررنا للقبول به. أعتقد أنه شخصية كاريزمية للغاية، هل هو صديقك؟»

اختلطت نبرة كلامها بشيء من الوقار والغيرة والنفور.

سألتها إيمان:

- من الذي اقترح اسمه يا ليزا؟

- أظن أنه... ما اسمه؟ أبو؟ ذاك الأصلع ذو الشارب الكثّ.

- المتحدث الرسمي؟
ذكرت إيمان اسما لليزا.
- «أجل، بالضبط.» أومأت بالإيجاب، «الأيوبي أحد أصدقائك؟»
كررت ليزا سؤالها.
- «قابلته مرة قبل سفري.» ردت إيمان التي كانت كلما حركت رأسها بللت ما حولها.

تناهت إلى أسماعهم أصوات مفاتيح تدور في أقفال الباب المؤدي إلى غرف التحقيق والزنازين في الطابق السفلي. كان صاحب الصوت الخنثوي الخشن الذي يصرخ في سماعة هاتف يقترب من غرفة الانتظار. حملق خليل وإيمان وليزا وسائر من في الغرفة في صاحب الصوت الذي عبر الآن إلى الغرفة وهيمن حضوره فيها. كانت امرأة جسيمة وبدينة، يتهدل ما ترتديه من قماش رخيص فوق جسمها، تطوّق عنقها بسلاسل من ذهب رخيص، ويصطبغ شعرها بلون برتقالي بارد يضاعف من سنيّ عمرها. هذا الوجه ذكّر إيمان بتلك الوسائد المحشوة في الحضانة بغزة. كان مرسومًا عليها وجهُ كلب أطلق الأطفال عليه اسم فوفي.

المرأة فوفي توجهت على الفور نحو إيمان وخليل وسألتهما:
- هل أنتما هنا بخصوص رشيد مجاهد؟

وقبل أنْ يتمكنا من الرد، هبت ليزا وانهمكت في الحديث إليها. وقفت فلم تبلغ سوى كتف تلك المرأة. تكلمت بصوت خفيض عن قوانين الإرهاب وتوسيع أطرها، ذكرت أنها تعرف محاميًا جنائيًّا كبيرًا إن كان الأمر يتطلب ذلك، وأنها متأكدة من أنه لن يتوانى عن المساعدة.

- لا أعتقد أنّ الأمور ستصل إلى هذا الحد. دعوني أسألكم أولا عمن يجب أنْ أتوجه بالحديث إليه؟

جلست ليزا في مقعدها، حقيبتها استقرت من جديد في حضنها. إيمان وخليل يحملقان بلا انقطاع في برج اللحم الضخم وما يكسوه من قماش بدهشة بالغة. مسحت المرأة جبينها، قالت:

- ما زال الجو رطبا؟ لم يبدد المطر الرطوبة.

جلست إلى جانبهم. احتلت مؤخرتها كرسيين، استقر كلُّ ردف فوق كرسي.

- على أي حال، جرى اعتقال صديقكم. هل هو...؟

قالت ليزا:

- صديقي الحميم.

تابعت إيمان:

- شقيقي.

أردف خليل:

- صديقي العزيز.

- حسنا، أنا آنابيل بريستون. مثّلت رشيد مجاهد خلال جلسة التحقيق معه، مثّلته قانونيا. ما حصل هو أنّ رشيد ألقي القبض عليه بالخطأ عصر اليوم من قبل الوحدة الخاصة بالإرهاب. كانوا يبحثون عن شخص آخر من بلد رشيد قيل إنه في لندن في الوقت الحالي. كان ذلك الشخص تحت المراقبة خلال المسيرة، لكن يبدو أنهم لم يراقبوه بشكل كاف فاعتقلوا رشيد وجلبوه إلى هنا وهم يظنونه ذلك الشخص. بعد ما تحققوا من هوية رشيد اكتشفوا أنه الشخص غير المطلوب. مفهوم؟

راحت تقلّب الأوراق التي دونت فيها ملاحظاتها، خطها صغير جدا، حروف الكلمات تنحني ببشاعة إلى الخلف.

سألت ليزا:

- لماذا لم يطلقوا سراحه إذًا؟

- كانوا سيفعلون لو أنّ صديقكَ، شقيقكِ، وصديقكِ الحميم، لم يكن في حوزته كمية ليست بالبسيطة من المخدرات من فئة جيم مقسومة بالتساوي في كيسين. قوات الأمن اختارت ألا تتغاضى عن الأمر.

سأل كلٌّ من خليل وإيمان بصوت واحد. ليزا شدت حقيبتها إلى بطنها كما لو كانت تحاول اتقاء لكمة وشيكة:

- الفئة جيم؟

- حشيش، ماريوانا... سمها ما شئت.

سألت إيمان:

- حشيش؟

- «نعم ولا. لكن القانون يعدّه حشيشا على أي حال. هناك أشكال مختلفة للحشيش ولكل منها اسم مختلف. ما كان في حوزة رشيد لم يكن أوراق الحشيش الخضراء أو المتيبسة بل هو قطع صمغية معالجة منه. لكن المهم هنا هو أنّ العثور على تلك المادة في كيسين أو أكثر يعني تهمة الحيازة بقصد البيع والتوزيع. إنها تهمة أخطر بكثير من مجرد الحيازة. فضلا عن ذلك،» خفضت صوتها وصولا إلى النقطة المثيرة في الموضوع، «أولا: وقّع رشيد على البيان الذي يسجل ما كان في حوزته لدى تفتيشه، وطبعا يتضمن البيان ذكر الحشيش بصفته تلك. وثانيا: قال للضباط بأنه كان سيعطي كيسا لرفيقه في السكن الجامعي.

اتسعت حدقتا آنابيل ثم أسندت ظهرها إلى الحائط. عادت ومالت بجسمها إلى الأمام، لاحظت أنهم لم يفهموا تماما مغزى ما قالته.

- إنّ القانون يعدُّ من يعطي ولو سيجارة حشيش واحدة لآخر متهما بالحيازة بقصد البيع. عندما يقول رشيد إنه كان ينوي فعل هذا الأمر، يكون قد اعترف بالجرم الأكبر وهو التوزيع والبيع.

ركز خليل وإيمان بشدة فيما تقوله آنابيل.

- لكني تمكنت من نقض ذلك استنادا إلى أنّ رشيد عندما قال ما قاله لم يكن معه محام وأنّ اعتقاله في الأصل كان بتهمة مغايرة تماما. في نهاية المطاف استطعت تخليصه مما هو فيه لكنهم سيصدرون بحقه إنذارا.

حملق خليل وإيمان بلا هوادة في آنابيل، يستحثانها لتبلغ خلاصة القول.

- إنها نتيجة جيدة! مجرد إنذار! آخذين بعين الاعتبار كمية المخدرات التي كانت في حوزته. ربما يؤثر ذلك في وضع إقامته في البلد، عليكم انْ تبحثوا في هذا الأمر لأنه ليس من اختصاصي. على أي حال، لن يحتاج إلى المثول أمام المحكمة أو أي شيء آخر. بمعنى لن يكون لديه سابقة جنائية.

سأل خليل وإيمان معا:

- ما معنى الإنذار في هذه الحالة؟

- إنه بمثابة تحذير، أعني أنه إذا فعل شيئا من هذا القبيل مرة أخرى فحينها لن يفلت من العقاب. لكنهم الآن سيطلقون سراحه.

سألتها إيمان:

- أين هو الآن؟

- إنه يستلم حاجياته وسيكون هنا في أي لحظة.

بدت آنابيل مستاءة بعض الشيء.

قال خليل:

- إنه في حاجة للبقاء هنا حتى أيلول المقبل لإكمال دراسته.

سألها خليل:

- ماذا تقصدين بأنّ ذلك سيؤثر في وضع إقامته في البلد؟

- مثلما ذكرت لكم، هذا الموضوع ليس من اختصاصي. لا أدري على وجه الدقة، ولكنه قد يعني أنه سيضطر إلى العودة لبلاده قبل هذا الموعد.

قالت إيمان:

- لكن لديه منحة.

- «أكرر مرة أخرى أنّ هذا ليس من اختصاصي، خذي هذه»، أعطتها بطاقة وتابعت: «اتصلي خلال ساعات الصباح بقسم الإقامة والهجرة في مكتب المحاماة الذي أعمل فيه، ربما يكون في وسعهم مساعدته. لكني لا أعتقد أنّ في إمكانه الحصول على مساعدة مالية حكومية لتسديد كلفة أيّ مساعدة قانونية بهذا الخصوص. أنا الآن مضطرة إلى الذهاب إلى مكان آخر.

سألتها إيمان التي بدأت تؤدي دور المحقق الذي يبدو أنّ ليزا تخلت عنه ولاذت بصمت عميق:

- ألن تنتظري حتى يفرجوا عنه؟

- «سيكون هنا في أي لحظة، يجب أنْ أذهب لدي قضية جنائية في جنوب لندن.» وقفت أمامهم دون أن تتحرك من مكانها.

- شكرا لك.

وقف خليل قبل إيمان. خمّن أنّ هذا ما تريده تلك المرأة التي أومأت برأسها ثم غادرت.

- «**مخدرات!**» غمغمت ليزا باشمئزاز، «لو كنت أعرف أنه هنا بسبب الحشيش فقط...»

قلّب خليل البطاقة، وقرأ اسم المحامي المتخصص بشؤون الإقامة والهجرة. ثمّ وصل رشيد الذي بدا عليه وكأنه لم ير غير ليزا. ناداها:

- **ليزا!**

نهضت من مكانها، وتوجه رشيد نحوهم.

سألته إيمان:

- هل أنت بخير؟

قال رشيد وأمارات السرور لرؤية ليزا ما زالت بادية على وجهه:

- أجل.

- لم أعتقد أنك ستأتي إلى هنا.

اقترب منها وأمسك بذراعيها.

- أتعرفين؟ عندما كنت في الأسفل داخل تلك الزنزانة، كانت... شعرت بوحشة شديدة. فكرت أني... كنت شديد الغباء. افتقدتك كثيرا. لم أتصور أنك ستأتين...

- ربما لم أكن لأفعل لو كنت أدري أنك هنا بسبب تهمة حشيش سخيفة.

كان رشيد يحمل كيسا شفافا يحتوي على ما كان في جيوبه لدى اعتقاله.

- ماذا تقولين؟
سقطت يداه عن ذراعي ليزا.
- قلت إني ما كنت لآتي لو كنت أعلم أنك هنا بسبب الحشيش. ظننتك تعرضت للاعتقال بتهمة تتعلق بالإرهاب أو ما شابه. كنت في عشاء مع أحد اللوردات واضطررت إلى الخروج على عجل. قلت لهم إن الأمر خطير للغاية، والآن اكتشفت أنّ الأمر كله ليس إلا توجيه إنذار بسبب قطعة حشيش.
قدحت عيناه شررا، وتغيرت سحنته. ودّت إيمان إبعاد ليزا، حتى ليزا، من أمامه.
- «خاب أملك، أليس كذلك؟ خيبت ظنك؟ ما الذي تريدينه مني بالضبط؟» ثم انفجر غاضبًا، «أنْ أفجّر قصر بكنغهام؟ هل هذا كافٍ لجذب انتباهك؟ هل هذا ما تريدينه؟ أنْ أتحزّم بحزام ناسف مثلا؟ ماذا تريدين؟ قولي لي؟»
- حسنا، يكفي هذا. اخرجوا وناقشوا مشاكلكم الشخصية بعيدا من هنا. كانت الشرطية تقف عند الباب، فتحته لهم ثم قالت: يكفي هذه الليلة واتركوا قصر بكنغهام في حاله.
توقف المطر، لكن الجو كان باردًا والرياح شديدة. لم يكن من أحد في الخارج. وقفوا هناك، وليس من أحد يتنصّت على ما يقولونه أو يسترق النظر. خفت حدة التوتر قليلا، لكن غضب رشيد ظل متأججا، وتحت وطأته بدأت إنجليزيته بالتداعي.
- أتدرين؟ لقد سئمت منك.
نطقه بالإنجليزية أصبح ثقيلا ولفظه لحروفها أصبح ركيكا. أما ليزا فاستبد بها العناد، تدلّت حقيبتها من كتفها، وعقدت يديها

فوق صدرها، فيما انتفخ معطفها أسفل صدرها. كانت هيئتها تنمّ عن السخط والغضب.

- لا وقت عندي لكل هذا، هل تفهم يا رشيد؟

انتقمت لنفسها بسرعة.

- أضعت أكثر من ساعة من وقتي في الجلوس هنا. ظننتك وقعت في مشكلة عويصة وأنّ في مقدوري مساعدتك، فاتضح لي أنّ الأمر ليس كذلك. لهذا لا جدوى من وجودي هنا. سأذهب، حسنا؟

شعر بألم الطعنة التي وجهتها إليه. كانت الريح الهوجاء تفصله عما حوله، تأمره بأنْ يصرخ، كما لو أنه فوق خشبة مسرح وأصوات الجمهور الهادرة تملأ أذنيه لا صفير الريح.

- طبعا لا وقت لديك لهذا، وقتك أثمن من كل هذا! لا وقت لديك إلا للمحرومين من أبناء العالم الثالث، من المساكين أصحاب البشرة الملونة، فقط الضحايا! أليس كذلك؟ قولي لي ما اختصاصك مرة أخرى؟ الدفاع عن المضطهدين سياسيا؟ لماذا؟ لماذا أضعت كل هذا الوقت حتى أفهمك على حقيقتك؟

صرخت ليزا:

- يا لجرأتك! كيف تجرؤ على قول كل هذا؟ بعد كل ما فعلته! أنت... بل أنتم جميعا ناكرون للجميل.

أحاط خليل وإيمان برشيد، تتبعاها بالنظر وهي تترك المكان. طوّق خليل كتفي رشيد بذراعه، فيما استدارت إيمان واقتربت من شقيقها.

قالت:

- لقد سددت لها ضربة قاضية.

أردف خليل:

- أجل، وتستحقها.

- آه! اتركاني وشأني، سئمت من كل هذا. لا أريد! بل أرفض أنْ يكون لي دور أو نشاط سياسي، تمام؟ إنني لست مثلكما أو حتى مثل ماما وصبري. لا أريد سوى الخروج من كل هذا، مفهوم؟ بعيدا عن كل هذا القرف. هل تفطنتما إلى ما كانت تلك...؟ تلك العاهرة ستشعر به.. ستكون سعيدة لو أنهم سجنوني عشرين سنة بسبب تهمة ملفقة. عندها كانت ستحبني بحق.

- اهدأ يا رشيد، أنا لم أرك منذ شهور. دعنا نقضي بعض الوقت معًا، «عن جد اشتقت لك يا زلمة».

- لست في مزاج جيد، دعوني وشأني. ليس لديّ ما أقوله، اتركاني في حالي.

ما إنْ أنهى كلامه حتى تركهما وبدأ يمشي في العتمة. يده تعبث في الكيس البلاستيكي محاولًا العثور على سجائره. أشعل واحدة منها تحت مصباح الشارع، ونفخ الدخان بقوة نحو السماء من فوقه.

الجزء الخامس

بحر غزة

بعد شهرين

الفصل الواحد والأربعون

«غلوريا» ميتة وأمه هي من قتلها. يلعنها في سره كلما نظر إلى ساق نبتته المبتورة، لونه أسود لا حياة فيه. لا يستطيع التوقف عن النظر إليه. لا يعني هذا سوى أمر واحد فقط. إنه البرهان على أنّ أمه لا تحفل به ولا تهتم بأمره أبدا. لا يهمه إنْ كانت أسطورة في عمليات اختطاف الطائرات أم لا. اعتنت بكل ما هو أخضر داخل البيت وخارجه، من شجر وعشب، جذور وبذور، ولم تجد الوقت لرعاية غلوريا. أهملت حبيبته الأثيرة فقضت نحبها وماتت. ذنب أمه لا يغتفر. وفوق هذا، كانت أعقاب سجائر مصفرّة أطفأتها أصابع أثيمة في تربة العزيزة «غلوريا». شتم أمه في سره، لكنها شتيمة لم تخرج من صميم قلبه. تعالى ضجيج سحب الطاولة الحديدية إلى طرف الحديقة، كما هي العادة في كل صباح. سمع صوت أمه، فلم يعد قادرا على توجيه اللعنات إليها. كل ما أراده منها هو أنْ تسأله عن حاله، ولكن هل كان حقا سيخبرها عن حقيقة ما يشعر به؟

سمعها تقول: «ما زال نائما بالطبع». تفاجأ أنْ يهتمّ صبري أصلا بالسؤال عنه. من فوق سريره، جال رشيد ببصره في أرجاء الغرفة. أعزّ ما يملكه كان يقبع في أكياس سوداء مرمية على الأرض، تعيق

حركته، يتعثر بها، فيتحطم ما يتحطم في داخلها. تكسرت حتى الآن أغلفة أربعة من الأقراص الموسيقية. أسلاك حاسوبه وجهاز الـ «ستيريو» تتشابك ببعضها مثل كرة صوف ضخمة. لم يتمكن من شبك حاسوبه بالكهرباء حتى الآن، لأنّ أمه وصبري، ولسبب غير مقنع، تركا مكتبه في شقتهم القديمة. هذه كذبة أخرى. ففي زاوية الغرفة تتربّع، حيث يفترض أنْ يكون مكتبه، ثلاجة جديدة ما زالت في غلافها البلاستيكي. قالا له إنها لعائلة من العائلات التي تتناوب على السكنى في شقتهم القديمة، ستظل هناك حتى تتمكن العائلة من تعمير بيتها المدمر.

هل فقدوا عقلهم! هل يمزحون! كيف سيعمرونه من جديد والإسمنت كالعملة النادرة؟ يختفي لشهور طويلة من السوق، أسعاره باهظة بل خيالية، أمه تقول» كأنه صار ألماس!» إنه بالتأكيد سيرحل ويغادر هذه الغرفة قبل أنْ تتركها الثلاجة.

ما يزيد الطين بلّة هو ذلك الصبي، تحفة صبري الأخيرة، وائل حفيد أبي عمر. إنه صاحب مبدأ يتمسك بقضيته، رفض ترك غزة والذهاب مع عائلته للعيش في إسرائيل. صبري بجلال قدره، وفرط محبته للخير، وشهامته التي لا حدود لها، قرر تبني كتلة القرف تلك. ذلك المسخ عنده ست بطون على الأقل، كميات الطعام التي تطبخها أمه له غير معقولة! لقد نمت بيننا علاقة خلال السنوات الماضية، هكذا يقول صبري عن الصبي. أي علاقة تلك؟ وكيف نمت؟ فخلال تلك السنوات نادرا ما نزل صبري من شقتهم في الطابق العلوي. هل تواصلا عبر النافذة مثلا؟ إنه في عمر ناجي لو بقي على قيد الحياة، هذا ما يردده صبري دائمًا. لم يكن رشيد مقتنعا حتى بهذه الحجة.

محض هراء! فالصبيان من عمر ناجي مثل النمل في قطاع غزة، بل هم فيضان بشري وكارثة سكانية من العيار الثقيل. ما حاجة صبري الحقيقية إذًا لهذا الصبي؟ ربما ليتجسس عليه، هكذا ظن رشيد. عندما ذهب آخر مرة للتدخين في الملعب المهجور، لاحظ أن الصبي موجودٌ هناك. «مرحبا عمو رشيد،» قال له اللعين عندما انتبه إلى أنه رآه. لكنهما تواضعا، على الأقل، وأسكنا الصبي في الطابق العلوي وتركا له هو غرفة في الطابق السفلي، غرفة تقبع فيها ثلاجة مكسوة بغلاف بلاستيكي تغطيه فقاعات هوائية، لكنها غرفة على أي حال وهو يعدّ نفسه محظوظا بالحصول عليها.

الجو جميل في الخارج، لكن روعته لم تعن له شيئا، بل تمناه في سره متقلبا متجهما. سمع صوت أمه وهي تدفع كرسي صبري إلى الحديقة، ثم اهتزاز الفناجين فوق الصينية النحاسية. فاحت رائحة القهوة في غرفته، امتزجت بنسيم الحديقة المضمّخ بالياسمين.

التأشيرة التي ستفتح له أبواب كندا غطت صفحة من صفحات جواز سفره، لكنه لا يأبه حتى بتأملها. إنها تقضي بإعادة توطينه واستقراره هناك. لكنه يضيق ذرعا بما يدفعه لكي يستقرّ في بلد آخر، هو الذي لم ينعم بأي استقرار في حياته. كان محكوما عليه أنْ يعيش مثل البدو الرحّل لا يصل إلى بلد حتى ينتقل إلى بلد آخر. الجميع وحتى أمه، عدّوا حصوله على تلك التأشيرة استثناء مذهلا لا يُصدّق. لم يكن الأمر كذلك أبدا بالنسبة له، فهي ليست سوى خيار من لا خيار له. عندما أصبح في الخارج ووصل أخيرا إلى لندن، لم يكن له أي خيار غير العودة من جديد. أما الآن وقد رجع فليس لديه أي خيار سوى الرحيل ثانية. وهكذا كان.

«ابن المحمودي هذا...» سمع أمه وهي تهمس، «عميل معروف...» حفيف عريشة الياسمين منعه من سماع رد صبري الحادّ، على أية حال. لا يهمّه سماع ما يقولون فهو يعرف أنهم يتحدثون عنه. لقد أصبح مثل سمكة في وعاء زجاجي تتسلط عليها العيون وتراقبها من كل الاتجاهات. كل حركة يأتي بها لا تمر دون مراقبة أو رصد وتسجيل، ليس له من مفر. نظر إلى ساق «غلوريا» المبتور، ولم يستطع حمل نفسه على لعن أمه، لا يستطيع وهي على مقربة منه وصوتها في أذنه. لكن كان عليه أنْ يقول لها، كان ينبغي لها أنْ تعرف، أنها لو اتعبت نفسها قليلا واعتنت بنبتته العزيزة، فإنه ما كان ليحتاج إلى التماس خدمات أحمد المحمودي. الذنب ذنبهما، أمه وصبري، هما المقصران، هما المهملان. وصله صوت دردشتهما الصباحية مرة أخرى، يتكلمان عن الحواجز العسكرية الجديدة، عن الإغلاق، الشح في إمدادات الوقود، الاقتتال مع الفصائل الإسلامية.

إيمان التي غابت عنهما لأشهر طويلة ووصلت أمس لم يهتما بسؤالها عن شيء غير ما تعرضت له عند عبور الحدود. سألتها أمه عدة مرات: احكي لي: الملتحي هو من فحص أوراقك؟ ليست تلك المرأة ذات الشعر القصير؟

أما هو فقد انتظر قدوم إيمان بفارغ الصبر. عدّ الليالي والأيام، وظنّ أنها ستنتشله من الهوة السحيقة التي وجد نفسه يهوي إليها. لكن سعادتها الغامرة بالرجوع، ثبطت همته، وأحبطته، وأبقته أسير هاويته. إنه لا يصدق أنّ سبب سعادتها هو رجوعها فقط. لا بد أنّ شيئا ما حصل لها في لندن. فعندما سألها عن سبب عودتها، إذ كان في إمكانها البقاء في لندن لمدة أطول لو شاءت، ردت عليه: «لكني

لا أنتمي إلى هناك،» ضحكت وكأنّ الأمر بَدَهيّ، عيناها وبختاه: «كيف خطر ببالك أنْ تطرح سؤالا كهذا؟»

والده، هو الآخر قطع عنه المصروف. فور أنْ عرف سبب توجيه الشرطة البريطانية إنذارا له، انفجر غاضبا عبر الهاتف: «مخدرات؟ مخدرات؟ أرسلتك إلى لندن حتى تتعاطى المخدرات؟ بدءا من هذه اللحظة، هل تفهم؟ لن يصلك ولا مليم واحد، فاهم! ولا مليم.» إيمان أعطته مبلغا صغيرا دفعه لأحمد المحمودي مقابل أتعابه. لكنه الآن في حيرة ولا يعرف كيف يتدبر أمره، لا يصدق! بات محكوما عليه الآن بالعيش في غزة، مفلس الجيب، كامل الوعي، وبلا مخدر! إنه الجحيم بعينه! الحياة هنا بالكاد تحتمل بمساعدة الحشيش، وهي بدونه ليست سوى كابوس من العيار الثقيل!

- رشيد؟

طرقت إيمان الباب. شقت طريقها بصعوبة وسط الأكياس على الأرض. تفادت انزلاق كأس الشاي فوق الصينية التي تحملها. دفع رجليه نحو الزاوية، ليفسح لها مكانا في نهاية السرير. لم يكن يشعر برغبة في الحديث.

أومأ برأسه:

- ماما تقول إنهم أغلقوا السندباد؟

- هل ستواصل عملك مع خليل في المركز؟

هزّ كتفيه.

- هل ستذهب حقا إلى كندا؟

أومأ برأسه.

- ماذا ستفعل هناك؟

هزّ كتفيه.

فركت إيمان قدميها باللحاف، إصبع قدمها الكبير اقتفى خطوطا لرسم وردة. انتظرت رشيدًا حتى يتكلم.

- ماما تعتقد أنني سأكون أفضل حالا في السجن، هل تشاطرينها الرأي؟ يبدو أنّ كل النساء من حولي يرغبن في رؤيتي وراء القضبان. ليس ثمة ما هو أنفع لي من التعفن في زنزانة.

نفخ على الشاي، ما زال ساخنا جدا. عيناه دمعتا من شدة الحرارة.

- انسَ ليزا! انسها يا رشيد. أما ماما فقطعًا لا تريد أنْ تراك في السجن.

- سمعتها للتو، قالت هذا لصبري! قالت إنّ السجن تجربة مفيدة جدا لي سأستفيد منها مثل صبري وجمال، المتطوع معنا في المركز، هذا ما قالته!

ارتشف الشاي بصوت عال.

- هل سأصير حقا إنسانا أفضل لو وضعت الأغلال في عنقي وغُطيّ رأسي بكيس أسود ورميت في زنزانة ضيقة؟

رشفة أخرى.

- شكرا لك يا حبيبتي على الشاي.

- ماذا ستفعل في كندا؟

حملقا لبرهة في سقف الغرفة. أنصتا لضجيج ركض الصغار في الطابق العلوي. غمغم رشيد بينه وبين نفسه:

- يا لها من سلالة عجيبة من الأطفال! يركضون على كعوبهم لا على بطون أقدامهم!

هزّ كتفيه من جديد:

- سأشتغل. سأشتغل.

اعتدل قليلا وأسند ظهره إلى الحائط. تمنى أنْ تتوقف ولا تسأله أكثر. كل ما يخطر في باله، حتى في أصفى أيامه وأكثرها هدوءًا، هو العمل في سوبرماركت، يساعد الزبائن على وضع مشترياتهم في الأكياس. يتخيل حياته في كندا، فلا يرى نفسه إلا في معطف أسود واقٍ من المطر طيلة الوقت، حتى وهو يتناول طعام الإفطار أو يرقد في السرير. غرفته في بناية سكنية، غرفها متشابهة، يختبئ الجيران خلف الأبواب عند دخوله أو خروجه، يتجنبون الحديث إليه، يحمل إليه الليل آهات احتساء الكحول وممارسة الحب، معطفه الذي يرتديه في حياته المتخيّلة تلك يكبر مع الوقت، يتضخم وينتفخ، يصير منطادا، يطير ويخفق فوق أرض تغطيها الثلوج في مدينة بلا اسم في أمريكا الشمالية، رأسه يطل من أعلى المنطاد مبتورًا محترقًا مثل ساق «غلوريا».

همست إيمان:

- عرفت سرّ انفصال ماما وبابا. صبري أخبرني.

- حقا؟

لم يرفع رشيد بصره إلى إيمان التي كانت تتوق إلى ردة فعل تليق بما في جعبتها من أخبار.

- هل حدثتك ماما أيضا عن ماضيها؟ لم يخبرني أي منهما بشيء.

واصلت إيمان حديثها:

- كلا، كلا.

- لكني عرفت أنّ المسألتين مرتبطتان ببعضهما البعض. أعني أنشطة ماما، مثل عملية اختطاف الطائرة، ثم وهي تكاد تفقد قدرتها على التنفس من شدة الإثارة، والطلاق.

- طيب!

تظاهر رشيد بالانشغال بما رسمته عريشة الياسمين من ظلال وأشكال غريبة على الحائط المقابل له.

- لا تتظاهر بعدم الاهتمام. أنا متأكدة من أنك تتحرّق لمعرفة ما لديّ من أخبار. ثم إنّ القصة رهيبة ولا أستطيع أن أخبر بها أيّ أحد، لهذا تظاهر على الأقل بالإنصات.

تمتم رشيد:

- حسنا.

- بابا لم يكن يعرف حتى بانتمائها إلى الجبهة الشعبية. لقد دخلا، أليس كذلك؟

أومأت في اتجاه النافذة، رشيد رفع حاجبيه بالنفي، واصلت حديثها همسا.

- عندما كان صبري صغيرا تركته مع بابا في بيروت. تذرعت بعيادة عمة مريضة لها في عمان، ثم رجعت بعد أسبوعين. كان وجهها ملفوفا بالضمادات وفوق أسنانها تقويم معدني. قالت لبابا إنها وقعت وقامت بإجراء عملية. حزب بابا وقع في حيص بيص بعد تنفيذ الجبهة لعملية الاختطاف. لم يكن لديهم علم بها، فالمسؤولون في الجبهة لم يبلغوهم مسبقا بعزمهم على تنفيذها. لهذا كان بابا وأعضاء حزبه في اجتماعات متواصلة لمواجهة تداعيات تلك العملية.

كان رشيد ينصت لما تقوله إيمان ويحاول بكل ما أوتي من قوة إخفاء حماسه الشديد لمعرفة تفاصيل ما جرى. إنه لا يعرف أي شيء من هذا، لم يخبره أحد به من قبل. أصوات ما زالت تتناهى إلى سمعه من الحديقة، أقداح تصطف فوق صينية وهي في طريقها إلى المطبخ.

- عندما أزيلت الضمادات عن وجهها كان شكل أنفها قد تغير تماما. وبعد رفع مقوم الأسنان اختفت الفرجة من بين ثناياها الأمامية. لما سألها بابا عن كل هذا قالت له إنه بسبب العملية، فلم يلحّ عليها بالسؤال.

- هل تنصت لما أقول يا رشيد؟

كان قد انتهى من شرب ما في الكوب من شاي. قلبه رأسا على عقب في الصحن وراح يراقب آخر نقطة بنية منه وهي تسيل على سطح الصحن. رفع بصره إليها ومنحها ما تطلبه من اهتمام للمضيّ في سرد ما في جعبتها.

- طبعا، كان النقاش آنذاك محتدما داخل حزب بابا بشأن العصفورة وعمليات اختطاف الطائرات. خلال أحد الاجتماعات، وقف بابا وطالب أمام الحضور بضرورة أنْ تطلع الجبهة القيادة الخارجية بعزمها على تنفيذ عمليات من هذا النوع في المستقبل. ثم قال: «ليس في وسع العصفورة أنْ تذهب وتنفذ عمليات كهذه دون إعلامنا مسبقا بذلك. لا يمكن القبول بأن نباغَت بردة الفعل الدولية على هذا النحو دون إعداد أو تحضير.» حينها خيّم الصمت على الحضور، سكت الجميع كأنّ على رؤوسهم الطير. وأخيرا نطق أحدهم وقال بسخرية مواربة: «أجل، هذا صحيح. إنّ حالنا معهم

يصدق عليه المثل القائل الزوج آخر من يعلم، وإنْ غاب القط العب يا فار!» ضجّ الجميع بالضحك، حتى بابا ضحك معهم لكنه لم يلتقط طبعا ما في الكلام من تورية، واستغرب كذلك من شدة ضحكهم.

التقطت إيمان أنفاسها. تعالى هديل حمامة في الخارج: كو، كو، كووو، كو، كو، كووو.

سأل رشيد وهو يسحب طرف اللحاف:

- متى عرف بحقيقة الأمر إذًا؟

- بعد زمن طويل، بعيد التوصل إلى اتفاق السلام. تصور؟ بعد أكثر من عشرين سنة. أنت تدري أنّ بابا كان يعترض على شروط كثيرة في الاتفاق. في ذلك الوقت، وأثناء سجال عنيف بين بابا وعدد من المؤيدين للاتفاق ومنهم والد خليل، حماد الحلو، استدار الحلو نحو بابا وقال له: هل تذكر كم كانت علاقتنا حميمة يا جبريل؟ أيام بيروت وخلال الفترة التي نفذت فيها الجبهة عمليات اختطاف الطائرات؟ هزّ بابا رأسه بالإيجاب، لكنه كان يجهل قصد الحلو من الكلام حتى عندما قال له: قصقصت جناحي جيهان، لقد طال غيابها عن المسرح. بابا المسكين لم يفهم حرفا واحدا. طبعا الحلو لم يكتف بالإشارات المبطنة، بل تعمد أنْ يكون الكلام مكشوفا، صادما، وجارحا. أخبره أنّ ماما هي العصفورة، وأنّ عددا من الشخصيات في القيادة الخارجية كانوا يعرفون بهذا الأمر لسنوات طويلة. لم يكتف بهذا، بل كذب على بابا وأوهمه بأنّ الجميع كانوا يعرفون باستثنائه هو. طبعا هذا الكلام غير صحيح، لأنه لو كان كذلك لتسربت المعلومات وأصبحت معروفة في وقتنا الحاضر.

قال رشيد:

- مسكين بابا! هل يعقل أنْ يُخفى عنه أمرٌ كهذا؟

- يبدو أنّ حماد الحلو أخبره بالحقيقة لغاية في نفسه، حتى يبعد بابا عن طريقهم ويتخلص منه، فهو يعرف حق المعرفة ما سيشعر به بابا من إهانة بالغة. على أي حال، جُنّ جنون بابا، قالت له ماما: كنت أظنك تعرف! لقد قلت لك إنني كنت في عملية.

ردّ عليها:

- كفي عن اللف والدوران! عندما قلت لي عملية اعتقدت أنك كنت في عملية طبية لا عسكرية!

نظرت إيمان إلى رشيد:

- أليس الأمر مضحكا بعض الشيء؟ بعد هذه الحادثة انتهى بالنسبة لبابا كل شيء، خلص! أخرج لنا جوازات سفر ونقلنا إلى غزة. تركها، تركنا، وترك القيادة الخارجية. قال إنّ ما يشعر به من إهانة لا حدود له. هذا هو سرّ انتقاله إلى الخليج ومصاحبته «سوزي» وكلّ الأمور الأخرى.

شقت نفاثة مقاتلة عنان السماء، هديرها صمّ الآذان. ارتفع صوت التلفاز من غرفة الجلوس، أصبح مسموعا في غرفة رشيد:

- ... تحت وطأة الضغط الشعبي، تصرُّ القيادة الإسرائيلية على اللجوء إلى الخيار العسكري ضد...

قالت إيمان وهي تحملق خارج النافذة:

- ماما تعتقد أنهم سيضربون في هذه الليلة.

- - ياللا!ا اضربوا وخلصونا يا أولاد القحبة!

أعطاها كوب الشاي الفارغ.

ألا تدري إيمان كم يؤلمه إخفاء كل هذا عنه، وأنْ يختارها صبري دونه ليُسرّ لها بذلك؟ كيف تكلمت أمه عنه من تحت نافذته وكأنه ميت؟ هل تعلم أنّ آلامه باتت لا تطاق لأنّ «غلوريا» لم تعد موجودة لتخفف عنه وطأة تلك الآلام؟ هل تدرك أنّ وضعه بات أسوأ بكثير بعد أنْ أدرك أنّ طريق الخروج لم يعد طريقا للخروج؟ لا مفرّ! فأي طريق للانسلاخ عن غزة، لا يفضي به إلا إلى غول الضمير، يتسلى بوخزه، بجلده، وبتعذيبه على مهل. لو هرب منها فلن يصل إلّا إلى مكان غريب، لا يفهمه فيه أحد، لا قيمة له فيه. ألا تعرف أنّ مصيدة غزة تطبق عليه، يشعر فيها بالاختناق والجنون لأنه لا يستطيع أنْ يكون بداخلها أو في خارجها؟

صرخ رشيد وهو يلوّح بيديه صوب السماء:

- ياللا! أيها الكلاب! ياللا! اقصفوا!

- آه! اخرس يا رشيد! إنك ممل وأنت على هذه الحال، لا تحتمل.

ضربته على ساقيه. انكفأ كوب الشاي وصحنه. التقط رشيد الكوب قبل تحطمه فوق البلاط، إيمان أمسكت الصحن بيد ولكمت بالأخرى ذراع شقيقها بكل ما أوتيت من قوة.

- آه! لماذا؟ ما بك؟

- هيا انهض! اغتسل واحلق ذقنك. رائحتك كريهة وتبدو بشعا بتلك اللحية.

- كنت أعتقد أنها تناسبني.

- كلا، أبدا! إنها بشعة، انظر هنا.

رفعت له صورته في جواز السفر التي يبدو فيها حليق الذقن.

قالت وهي تنظر في الصورة: تبدو أكبر عمرا في هذه الصورة، أجمل بكثير.

- حسنا، سأنهض. لكن كفّي عن أنْ تكوني... لست أدري، مرحة ومزعجة طوال الوقت. ثم تعالي هنا! قولي لي ماذا حصل لك في لندن؟ هل هو ذلك الإنجليزي الذي سيقدم كل تلك المساعدات المالية؟ أهو هو؟ هل أنتما...؟ هل تحبينه؟

- أخّ من تفكيرك! كم هو تقليدي! أتفهمني؟ تفكير تقليدي! يعني لا يمكن أنْ يبدي رجلٌ رغبة بالعمل معي إلا إذا كانت نواياه جنسية، هذا ما تقصده؟

رغم شراستها في الإنكار، لم تتمكن من النظر في عينيه.

سألها رشيد:

- إذًا أنتما شريكان في السلام لا في الحب. هذا ما تعنينه؟

- كم يسهل عليك التشاؤم والتهكم والاستهزاء بأي جهد كبر أم صغر! تظن أنك أحسن من الآخرين في حين أنّ ما تفعله هو الانتقاد ليس إلا.

- حسنا، حسنا، اهدئي! إنّ ما تفعلينه عظيم وأنا لا أحاول التقليل من أهميته. قولي لي، ماذا ستفعلين بالتمويل؟

صمتت إيمان لبرهة من الوقت. حاولت جمع شتات نفسها. جلست على حافة السرير. نظرت صوب رشيد ورفعت حاجبيها متسائلة:

- لا أدري بالضبط، لست متأكدة بعد. لكن قطعا سنموّل مركز المقعدين، سنجهزه بمعدات جديدة وننقله إلى مقر آخر. ثم سنفتتح مركزا للمرأة وربما حضانة أطفال أيضا. هناك الكثير يا رشيد. لا تنظر

إليّ على هذا النحو. أعرف ما يجول في رأسك. إنك تظن أنّ كل هذا ما هو إلا مسكّنات، أليس كذلك؟ لكن أي مساعدة مهما صغرت مهمة. قد نتعاون أيضا مع المركز، وربما يوافقون على دفع رواتب بعض العاملين هناك؟

حكّ رشيد الشعر النابت في مقدمة عنقه.

- أتعرضين عليّ عملا؟

- هذا جائز، لكنني لم آت هنا لهذا السبب. جئت لأنني أريد منك إصلاح شأن بذلتك وحذائك حتى تذهب غدا إلى العرس.

- عرس من؟

- عرس عاطف.

- ومن عاطف هذا؟

- إنه ابن رئيس اللجنة. أنت تعرفه، عيونه دامعة ويصافح بارتخاء ملحوظ.

- هذه الأوصاف تنطبق على كل شباب مخيم الشاطئ!

قالت إيمان بإصرار:

- لا بد أنْ تذهب.

- لن أذهب.

- بل ستذهب، يجب أنْ تذهب. قالت ماما إنها إنْ اضطرت فستجر سريرك جرا إلى العرس. إنك تدري من سيكون هناك، يجب أنْ تذهب. ماما أخرجت لك البذلة وهي تعني ما تقول.

- مقاس تلك البذلة لا يناسبني!

- هذا غير مهم وأنت تعرف ذلك؟ ماما علقتها على المشجب عند الباب الرئيسي، وهناك أيضا الحذاء وضعته لك في كيس.

جهزتهما لك لأنّ البذلة بحاجة إلى تنظيف وكعب الحذاء يحتاج إلى تصليح. يمكن أنْ تذهب إلى أبي... يا إلهي ما اسمه!

- أبو عبد الله.

- هو بعينه، ياللا! انهض. سأعود بعد خمس دقائق ويجب أنْ أجدك قد ارتديت ملابسك. هذه الغرفة تثير الكآبة.

بعد أنْ ذهبت إيمان، أرسل رشيد رسالة هاتفية. دخن سيجارة ثم تلقى الردّ الذي ينتظره. نهض وركل بعض الأكياس، صمم على استعادة مكتبه خلال ذلك اليوم. تذكر أنه سيسافر فقرر أنْ يتناسى أمر مكتبه. عثر على منشفة نظيفة خارج باب غرفته، دخل إلى الحمام، استشعر المزيّة الوحيدة التي تُحسب لشقة أبي عمر الأرضية: ضغط الماء فيها عال.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني والأربعون

- يا للروعة! يا لجمال هذه الغرز! انظروا كم هي بديعة!

تحسس أبو فارس صاحب المصبغة البطانة الحريرية الحمراء لجاكيت البذلة. تحلّق من حوله عدد غفير من العمال الذين يعملون لديه. مشى أبو فارس بهدوء إلى صندوق المحاسبة، بحث عن نظارته بين أكوام من الدبابيس والأشرطة اللاصقة. عاد إلى البذلة المسجّاة بعناية فوق الطاولة، كأنها جثمان عزيز يجهزه بما يليق. «أخّاذة! ساحرة!» رفع ياقة الجاكيت الداخلية، قرّبها من نظارتيه، حاول فكّ طلاسم الأحرف المطرزة بخيوط فضية. «آه! باريس!» أطلق صفيرا ينمّ عن احتفاء شديد وتقدير عظيم، ارتسمت إمارات الانبهار على وجهه. تعالت عبارات التأييد من عماله المطيعين، التفوا حول صاحب نعمتهم، رفع لهم الياقة، فكحّلوا عيونهم برؤية الأحرف التي تزين ياقة الجاكيت. «أنصحك بالتنظيف الـ «سوبر ديلوكس» لهذه البذلة يا أستاذ.» قدّم أبو فارس رأيه المهني بنبرة صادقة مخلصة. أشار بإصبعه إلى قائمة أسعار مكتوبة بخط يدوي، يغلفها غطاء بلاستيكي مُصفرّ اللون. أوشك رشيد على الأخذ بتوصية صاحب المحل، لكنه استدرك أمره عندما وقعت عيناه على السعر.

قال رشيد:

- أريد تنظيفها بأرخص الطرق لديك.

ربّت أبو فارس على البذلة، وأبدى تعاطفه بشدة لما تعرضت له من إهمال واضح. إنها بذلة زفاف صبري، مقلّمة بخطوط عريضة، أكتافها منتفخة بحشوات سميكة، فوق الجاكيت صفان من أربعة أزرار، «تليق بقرد يزين عنقه بـ «بابيون» فرنسي!» خطر على بال رشيد. كان أطول وأنحف مما كان عليه صبري. تخيل كم سيبدو بشعا في سروال قصير لا يغطي ساقيه بالكامل.

- تعال في الغد، ستكون جاهزة في تمام العاشرة إنْ شاء الله.

أبو فارس لم يرفع رأسه ليودع رشيد. كان ممتعضا من عدم الأخذ بنصيحته. ترك رشيد أبو فارس بينما كان يحمل الجاكيت ويستعرضه بتباه أمام عمال مصبغته.

لم يكن أبو عبد الله مصلح الأحذية موجودا، فمحله مغلق ومهجور. المتجر المجاور يبيع البهارات تتكدس في واجهته: أكياس بلاستيكية تصطبغ بألوان الخريف، أعشاب مجففة تعرّش فوق أكياس قماشية، بضائع تتربع فوق صناديق خشبية، تعلوها مظلات تحميها من أشعة الشمس. انحنى رشيد ودخل تحتها ليبحث عن شخص يسأله.

سأل رشيد بعد أنْ ألقى التحية على صاحب المحل الذي كان مختفيا خلف كومة كبيرة من الطواحين الهوائية المصنوعة من الرقائق المعدنية الخفيفة:

- أبو عبد الله؟

سأل صاحب المحل:

- ماذا تريد منه؟

- أريد أن أصلح حذائي.

- لقد رحل، لن تجده هنا.

نهض الرجل وشدّ سرواله المشدود أصلا إلى أعلى خاصرتيه، ونظر إلى رشيد:

- سافر لجلب بعض البضائع لمتجره من مصر ولم يسمح له بالعودة، رحل.

سأل أحد الزبائن:

- عمّن تتحدث؟

- أبو عبد الله.

أكد الزبون قول صاحب المحل:

- أوه! لقد رحل.

سأل صاحب المحل وهو يحملق في وجه رشيد عن قرب:

- ما هذا الذي على وجهك؟

- لا شيء، حلقت ذقني فقط.

تحسس بشرته. جرحٌ واحد على الأقل وطفحٌ جلدي آخذٌ في الانتشار.

- يا زلمة الله ستر وجهك! هل تحتاج إلى شفرة حلاقة جديدة؟ تفضل إلى الداخل وألقِ نظرة.

أشار بيده إلى داخل محله المعتم. معلبات تتناثر فوق الرفوف، كومة من الكتب والدفاتر زوايا صفحاتها مثنية إلى أعلى.

- لا داعي، شكرا لك.

تقهقر رشيد إلى الوراء. رقبته محنية، فارتطم رأسه بكومة من

ليف الاستحمام. خرج من تحت المظلات، لكن الزبون الآخر لم يكف عن متابعته بنظره.

نصحه صاحب المحل:

- عليك بالـ «فازلين» قبل النوم.

- «استخدم منشفة دافئة هكذا،» خبط على خديه بكفيه خبطًا ناعمًا كما يفعل حلاق بوجه زبونه.

لم يكن أحمد المحمودي في المكان المتفق عليه في الملعب، فجلس رشيد على حافة جدار قصير في انتظاره. قطةٌ شقراء، حاول أنْ يغريها لتقترب منه، فرت بعيدا، جفلت من صوت جوّاله. كانت رسالة صوتية من خليل تخبره أنه وصل البيت وهو في انتظاره. «ربع ساعة،» ردّ رشيد وأعاد جواله إلى جيبه. نجح في إغراء القطة بالرجوع مرة أخرى واللعب معه. لم يبرح مكانه. كل ما حوله هادئ، ولم يلمح في الشارع أحدًا يعرفه أو يستطيع تمييزه. فكّر للحظة أنه قد يكون لعب في هذا الملعب من قبل، برفقة صبري الذي كان يدفعه وهو يجلس في الأرجوحة. لكن هذا مستحيل، فصبري لم يكن موجودًا معه عندما كان صغيرًا. لا بد أن ذلك كان أخًا أكبر وهميًّا من صنع خياله.

ذكاء القطة الشقراء دفعه إلى كسب ودّها، وما إنْ تمكّن من نيل ثقتها حتى اقتربت منه وأغدقت عليه فيضًا من العاطفة. لاعبته بنطح قدميه برأسها، تمّسحت به، وتدللت عليه بمواء خفيض لا ينقطع.

على ناصية الشارع، كان هناك رجلان يقفان، إلى جانب محل التصوير، تحت صورة طفل ضاحك يرتدي ما يحاكي هيئة دب بأذنين كبيرتين. عرفهما رشيد، ميّز سريعا ذلك المقاتل صاحب

الشنب الغليظ والوجه الذي تعلوه البثور. رآه يوم القبض على أبي عمر. أما الآخر والأحدث سنًّا فلم يميزه على الفور. صاحب الشنب أومأ برأسه إلى صف من السيارات في نهاية الشارع، بندقيته تتدلى على جنبه، أما الشاب فكان يهز رأسه مبتسما. لم يصبح شابًّا بعد، بل مجرد فتى يافع ضامر الجسم، مظهره يدل على حماسٍ ومكر ومراوغة أيضا. ربما لا يتجاوز السادسة عشرة، دائب الحركة لا يهدأ، يتفحص الطريق، إلى الأعلى، ثمّ إلى الأسفل. كان ضخم الرأس، منكوش الشعر، في رجليه حذاء رياضي بالٍ لعله كان أحمر اللون ذات يوم. انصب تركيز رشيد على الحذاء. ظل يحملق فيه. تعرّف عليه أخيرا. إنه صبي الجزرة لكنه ليس حافيا هذه المرة، بائع بطاقات الهواتف الجوالة الذي رآه آخر مرة في مقهى السندباد، كبر الصبي وازداد طولا، أصبح يقاربه في الطول.

ترك الشنب الستاليني المكان، أما الفتى فاتجه صوبه على الفور. نجاحه في تليين موقف القطة ومصاحبتها، دفعه إلى التبسّم لصبي الجزرة، كأنه شاهدٌ على تلك الآصرة الجديدة بينه وبينها. لكن لم يبدُ أّن الفتى لاحظ وجود القطة.

- طلب مني السيد المحمودي أنْ أخبرك بأنه لن يتمكن من رؤيتك الآن. لكن وقته يسمح له في الرابعة عصرا.

تفحص الفتى نهاية الشارع الذي خلا من المارة. مرّر ظفره داخل ثنية أذنه من الأعلى، وقذف ما أخرجه من قذارة على الأرض.

- هل تعمل معه الآن؟ أنا اتذكرك، إنك صبي...

تأتأ رشيد في الكلام، كان على وشك القول: صبي الجزرة.

- أعرف، التقينا من قبل. أتذكر أنك دفعت ثمن فطوري.

واصل الفتى تفحّص صف من السيارات في نهاية الطريق، ثم رفع بصره إلى أسطح البنايات كأنه يبحث عن شخص ما.

دفع كيس رشيد بطرف حذائه.

- ماذا يوجد فيه؟

ردّ رشيد:

- حذاء.

سأل الفتى:

- حذاء؟ ما نوعه؟

- ألق نظرة بنفسك، خذ راحتك.

عاود الفتى إلقاء نظرة فاحصة على الشارع. ثم جلس قرب رشيد فوق الجدار. كانت البقعة التي يجلسان فيها مشمسة. راحت القطة تتمسح برِجْل رشيد، كأنها تحاول دفعه عن الجدارن لا تنقطع عن المواء المشبع بالرضى والحبور.

- شوف؟ شو حلو!

قال الفتى وهو يخرج الحذاء من كيسه. حذاء إنجليزي: مقدمته مدببة، جلده مثقب بزخارف فنية في الجانب الداخلي منه، ماركته ممهورة بأحرف أنيقة: «ويلسون لصناعة الأحذية»، لندن، ١٨٤٨، وقد حُفر أسفل طرفي الحذاء الأماميين هلالان معدنيان، لكن الكعبين كانا متآكلين مهترئين يميل كلّ منهما عن سطح الأرض. التقط رشيد فردة وتفحّص المقاس. صدق حدسه، فهو أكبر من حجم قدمه بمرة ونصف.

- كان لأخي.

قال بنبرة تشي بالغيرة والحسد:

- أعطاه لك؟

- ليس بحاجة له. يا إلهي! هل تسمع كل هذا المواء!

أصابع رشيد تغوص في فراء القطة، «لا بد أنّ المواء وصل لكل من في الشارع،» تمتم بينه وبين نفسه. تدحرجت القطة واستقرت على ظهرها، بطنها أبيض، تمسح رأسها برجل رشيد. أصابع الفتى تتحسس جلد الحذاء، تمرّ على الرباط وتستقر على الخرزتين المعدنيتين في نهايته.

- «جربه لو أحببت.» عرض عليه رشيد:

- لم لا تضعهما في قدميك؟

- «عن جدّ»!

قالها بفرح صبياني بالغ. ولدهشة رشيد لم يسأل الصبي ثانيةً، بل خلع ما ينتعله ووضعه جانبًا، ودسّ قدميه الضامرتين في الحذاء الإنجليزي.

قال رشيد وهو ينظر إلى الحذاء:

- واسع جدا.

جفلت القطة من طقطقة قطع الحذاء المعدنية فوق الرصيف. وثبت، ركضت، ثم اختفت.

قال الصبي وهو يتبختر:

- كلا، مقاسه يتطابق مع مقاس قدميّ.

تذكر رشيد أنّ خليل ينتظره في البيت، فناول الفتى كيس الحذاء الفارغ:

- خذه، إنه لك.

- شكرًا! شكرًا لك!

هتف الفتى فرحا بينما مضى رشيد في طريقه. صرخ بأعلى صوته حين انعطف رشيد واختفى على ناصية الشارع التي جاء منها الفتى:

- مشكور!

قال رشيد في نفسه: «انسَ العرس». حاول تفادي برك الماء الملوث والحفر في طريقه إلى البيت. «انس الأمر» كان شارد الذهن. فجأة تعالت أصوات طلقات نارية في مكان ما إلى يساره. حمامٌ في أقفاص رفرف بأجنحته مذعورًا، حوّم حول بعضه البعض، حاول التحليق لكنه فشل. توقف رشيد في مكانه، ظل ينظر في اتجاه الحمام حتى هدأ روعه. لم يتبع دويَّ النيران أيُّ شيء. لكن سيارة انطلقت من مكان ما، وتعالى هدير البحر ثم عاد واستكان.

الفصل الثالث والأربعون

لا بد أن للتقدم في العمر سطوة، فقد أصبح لين العريكة وبدأ في تقديم تنازلات بشأن من يصادق. اكتشف صبري أنه يستمتع كثيرا بصحبة خليل الحلو هذا، فشرح له عن كتابه ومراجعته وتنقيحه، كما حكى له كيف اهتدى إلى معرفة العميل الذي كان وراء التفجير الذي استهدفه وعائلته. باح له بالقدر الممكن من المعلومات بالطبع وأفضى إليه بما كان يراوده من شكوك حيال ذلك العميل. كان التلفاز مفتوحًا على الدوام، ونشرات الأخبار مشغولة بمتابعة عمليات القصف المرتقبة، حيث تتطرق أحيانا إلى شيء جديد: زاوية طرح مختلفة، أو قدر من التحليل الرصين. وإذ ينهمك الاثنان في النقاش، يشعر صبري بالمتعة، والسعادة لانشغال خليل بشؤون تافهة تبقيه خارج البيت حتى يتسنى لصبري أن يكون معه دائمًا. جلبت أمه الشاي والمعمول، ودخلت إيمان بأشرطة لاصقة لتأمين النوافذ.

عندما بدأ صبري بالحديث عن أيامه التي قضاها في السجن، كان تقرير إخباري عن عمليات تجريف البيوت في جنوب القطاع قد شارف على الانتهاء، ثم تلته مقابلة مع متطوعين أجانب في تلك المنطقة. كان المتطوعون على وشك تشكيل درع بشري حول بعض

البيوت لحمايتها من الجرافات الإسرائيلية. توقف صبري لبرهة من الوقت، ثم تابع حديثه، فلا جديد في هذه المقابلات المكررة. لكن الكاميرا استدارت في اتجاه إحدى المتطوعات. هبّ خليل من مكانه، طالب صبري بأنْ يصمت، لا بل بأنْ يخرس. راح يلوّح بيده إلى الأعلى والأسفل في وجه صبري.

نطق خليل أخيرا بعدما انتهت الناشطة من حديثها:

- إيفا!

تفحصها صبري، فتاة غريبة ليس من رائحة للأنوثة فيها، شعرها منكوش، وعيناها واهنتان وترتعشان أمام الكاميرا. اسمها وصفتها يطلان من أسفل الشاشة: متطوعة، طالبة دراسات طبية. ارتدى خليل سترته على عجل، حوّم حول كرسيه بغير قصد محدد، كأنه يتفاوض معه على شيء ما ثم قال:

- يجب أنْ أذهب لإخراجها من هناك. ربما تتعرض للقتل بتلك الجرافات. لم يعد لون بشرة المتطوعين ولا جوازات سفرهم تردع الإسرائيليين عن فعل ما يريدون. سيقتلونها، يجب أنْ أذهب. سأحضرها إلى هنا.

سـأله صبري:

- هل تعرفها؟

- «أجل، قابلتها في لندن. شرحت لها عن الأوضاع هنا.» فتح خليل راحة يده ووضع فتات ما أكله من معمول في صحن كوب الشاي ثم توجه نحو الباب.

عاود صبري النظر في شاشة التلفاز. الفتاة التي سببت انزعاج خليل تمشي بإجهاد ملحوظ كأنها قطعت صحراء شاسعة فوق

حمار. تمشي بظهر منحنٍ فوق ركام بيت هدمته الجرافات، ترتدي بزة فضفاضة عاكسة للضوء. احتار صبري في أمر هؤلاء الشباب مع الفتيات الإنجليزيات! كان عاجزا عن فهم ما يعجبهم فيهن. دفع كرسيّه نحو النافذة التي ترك على حافتها دفترا ومنظارا مكبرا. أراد استئناف مهمته في رصد عمليات القصف الليلية وتسجيلها. لكن استعداداته كانت عقيمة بلا جدوى، فهو من موقعه في الطابق الأرضي لا يستطيع رؤية شيء سوى الدخان المتصاعد. قرأ ما دوّنه في الليلة الفائتة وجلس منتظرا.

- «هيييه!» صرخ فجأة، «هيييه!»

صاح بغضب لم يكن يعتقد أنه ما زال كامنا فيه. كان هناك رجل غريب يتسلق جدار حديقتهم الخلفي. يبدو أنه مقاتل، فقد تدلّت بندقيته فوق ظهره. لم يستطع تبيّن ملامح وجهه. زحف الرجل بمحاذاة سور الحديقة.

صرخ صبري مرة أخرى:

- هيييه!

هتفت إيمان وأمه في وقت واحد:

- «ماذا جرى؟ هل وقعت يا صبري؟ ما الأمر؟» هرعتا إليه.

علق كرسيه بين مصراعي الباب، ولم يتمكن لتعجّله من إنزال ذراعي الكرسي، كما أنّ إيمان كانت قد أغلقت أحد مصراعي الباب. بدأ يسب ويلعن الجميع. وما إن استطاع تمييز شكل الرجل، حتى تعالى طرق عنيف على الباب.

هتف صوت من خلف الباب:

- أم صبري؟ إيمان؟

- «من يكون يا ترى؟» همست أم صبري في أذن ابنها: «هل تميز الصوت؟»

- كلا، لكنه تسلق جدار الحديقة الخلفي.

نظر صبري إلى وجهي أمه وأخته. كانتا تراقبان خيال المقاتل من خلف زجاج الباب، هيئته تدل على أنه يجثو أرضا. حذرهما صبري:

- إنه مسلّح.

- «حسنا، سأرى من يكون.» توجهت أمه نحو الباب.

- من هناك؟

- زياد الأيوبي. أم صبري، سامحيني على الإزعاج. لكني مصاب وبحاجة للمساعدة.

تساءلت أم صبري بعجب وهي في طريقها إلى الباب:

- ابن منى وخالد؟

- معقول؟

- زياد!

تجمّدت إيمان في مكانها. سحبت أمها المزلاج، فسقط المقاتل متعثرا داخل البيت.

- لم أتوقع أنْ أقابل من أخذ لي بثأري في مثل هذا الوضع.

قال صبري وهو ينظر إلى زياد بعد أنْ ساعدوه على الجلوس في غرفة الضيوف.

- من أخذ بثأرك؟ ماذا تعني؟

اعترى إيمان خجل وقلق من وجود زياد في بيتهم، وعلى مرأى من صبري؛ كما لو أنّ مجرد وجوده يفضح لقاء سريًّا حميميًّا جرى بينهما.

- هل تعرفه؟ أخذ بثأرك؟ صبري؟ ماذا تقصد؟

أردف زياد:

- إن صبري يقصد ما أردت أنْ أوضحه لك في لندن بشأن أبي عمر.

كان شحوب وجهه الآن أشد مما كان عليه يوم اغتيال سيف الدين. والدة إيمان أشارت لها بأنّ عليهما نقله إلى مقعد غطته على عجل بأغطية قديمة.

نظرت في عيني صبري بينما راحت تساعد أمها في شدّ الأغطية فوق المقعد:

- ماذا عن أبي عمر؟

- هو من زوّدهم بما يحتاجونه من معلومات للتخلص مني. إنه السبب وراء قتل عائلتي والإصابة التي أصبت بها. نحن نعرف الآن أنّ تقاريره هي التي...

حولت إيمان نظرها باتجاه زياد هذه المرة:

- كنت تعرف كل هذا ولم تخبرني به؟

- أردت أنْ أشرح لك كل شيء ولكن لم تسنح لنا فرصة...

لم يكمل زياد، قاطعته أم صبري.

- يجب ألاّ تتكلم أو تتحرك الآن. عندي بعض مسكنات الألم الخاصة بصبري، إنها ستخدرك تماما.

كان صبري يصاب بالارتباك عندما يبدأ الآخرون في الركض من حوله وهم في عجلة من أمرهم، بينما يقبع هو جامدًا فوق كرسيّه غير قادر على الحركة. هرعت إيمان إلى الخارج ومسحت آثار الدماء التي تقود إلى البيت، ثم أسدلت مع أمها الستائر. نزعتا

سترة زياد المبللة بالدماء، وعلقتاها فوق مسند أحد الكراسي، كما وضعتا بندقيته في زاوية قرب الباب، ثمّ جلبتا قطعا إسفنجية وماء ساخنًا وصابونًا، وجهزتا حقنا طبية لإعطاء زياد بعض المسكنات التي تخفف من أوجاعه.

- اتركا هذا الأمر لي.

أخذ صبري الحقن، وأزال عن واحدة منها غلافها البلاستيكي، غرسها في قارورة المسكّن ثم سحب المحقن حتى امتلأ. كم كانت هذه العملية تثير فيه لذة تقارب النشوة الجنسية.

سأل صبري زياد:

- هل تعرف من أطلق عليك النار؟

- أنا متأكد أنه من الحزب، لا شكّ لدي في ذلك. كان بعيدا عني عندما أطلق النار، لهذا لم ينالوا مني ما يشتهون.

اعتدل زياد في جلسته بصعوبة، ووقفت إيمان إلى جانبه تمسح جبينه بقطعة من القماش، في الوقت الذي ذهبت أم صبري لجلب بعض الضمادات. انتفض زياد من شدة الألم، وقبض بشدة على يدها، ساحقًا أصابعها بقبضته. ظن صبري أنّ أخته ستصرخ من شدة الألم، لكنها لم تفعل، بل بدت له أكثر صلابة وجلدا. التعبيرات التي ترتسم فوق وجهها لم يألفها صبري من قبل، فارتبك وأشاح بوجهه ناظرًا صوب زياد.

سأل صبري عند عودة أمه إلى الغرفة:

- هل تعرف لماذا يحاولون استهدافك؟

كانت الحقنة جاهزة في يده، لكن زياد سيغيب عن الوعي فورا إنْ حقنه بها الآن. من الأفضل التريّث لمعرفة من كان يحاول قتله.

- أعتقد... كلا، بل أنا على يقين من أنّ الإسرائيليين يريدون التخلص مني، وهذا ليس بالأمر الجديد. إنهم يحاولون استهدافي منذ زمن طويل، وهذه ليست المرة الأولى التي يحاولون فيها اغتيالي. لكن ما استجدّ في الأمر هو أنّ أعضاء حزبي الذين كانوا في الماضي يوفرون لي الحماية أصبح بعضهم يودّ رؤيتي قتيلا.

أشارت أم صبري لإيمان بمساعدتها في خلع قميص زياد، ثم قامت بتنظيف الجرح بقطع من القطن.

- انظر، هل ترى؟ هنا في صدرك، الرصاصة لم تبلغ هدفها، إنه مجرد خدش بسيط. لكن هناك أخرى تمكنت من اختراق لحم رجلك، اعترضتها عظمة الفخذ. ليست إصابة بليغة ولكن لا بد من انتزاع الرصاصة.

ضغطت أم صبري قرب الجرح براحة يدها لتخفف من النزيف.

- ليتك لم تقفز عن جدار الحديقة، فقد نزفت من الدماء أكثر مما تتسبب به إصابة كهذه في العادة.

ضغط زياد على شفتيه بقوة. كان وجهه أصفر، يتحدّر منه العرق الذي يلمع تحت الضوء الساقط فوقه. وضع صبري الحقنة في وعائها الخاص ثم دفع كرسيه في اتجاه زياد، فيما اقتربت إيمان لترى ما يجرى بوضوح. عينا زياد كانتا شاخصتين فوق رؤوسهم، تحملقان في القضيب الحديدي الذي يحمل الستائر وقد بدا مائلًا من أحد طرفيه. علا آذان المغرب، وغردت العصافير وخفقت بأجنحتها فوق عريشة الياسمين في الحديقة. سألت أم صبري:

- هل تعرفان أين ذهب رشيد؟

قال زياد:

- كان ينبغي عليّ أنْ أحمل الأمر على محمل الجد. لم أتخيل أنّ الأمر سيصل بهم إلى هذا الحد، لكني كنت مصدر إزعاج لهم. بعد فوزي بتصويت عام داخل الحزب بشأن عدد من القضايا بدأت (وربما كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير) أصرّ على ضرورة إدارة الحزب بعيدا عن الفساد. دعوت إلى وضع آليات شديدة للرقابة والمحاسبة المالية. فعلت هذا وأنا أظن أني كنت حذرا، فقد حرصت على عدم شخصنة الأمر أو الطعن في مصداقية أحد. ركزت حديثي فقط على المكاسب التي يحققها خصومنا من وراء اتهام حزبنا بالفساد.

قالت أم صبري بحنق شديد:

- طبعا، هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لن يسمحوا لك بالوقوف في وجه تكسّبهم غير المشروع من أموال الحزب.

- اعتذر بشدة عن مجيئي إلى هنا يا خالة، إنني آسف جدا لتوريطكم في هذا الأمر. لكنني لم أعرف لمن ألتجئ، أو إلى أين أذهب. تركت سيارتي في الشارع الرئيسي. كنت في طريقي إليها لكن خطر ببالي أنهم ربما يكونون قد فخخوها...

تلوّى من شدة الألم. يده اليسرى استقرت فوق الكرسي. لاحظ الدماء التي تغطيها. «هل تسمحين؟ من فضلك.» نظر إلى إيمان طالبا منها غسل ما عليها من دماء.

- كنت أنوي الاعتذار منكم جميعا وخاصة من رشيد. فقد بلغني أنّ اعتقاله في لندن كان بسببي.

قالت أم صبري:

- كلام فارغ. هو من جنى على نفسه.

انتبه صبري إلى ما تفعله إيمان، تتبع بإصبعها ما تركته أشواك عريشة الورد الجوري من خدوش على ذراع زياد. تساءل بينه وبين نفسه: ما الذي جرى بالضبط بين هذين الاثنين في لندن؟

- كلا يا خالتي. أعتقد أنّ أحدا من جماعة الحزب سرّب عني معلومات سرية للمخابرات البريطانية. أنا متأكد أنهم لهذا السبب أرسلوني إلى لندن. وربما يفسر هذا أيضا السرعة العجيبة التي منحني فيها الإسرائيليون تأشيرة الخروج. لكنهم فشلوا في القبض علي واعتقلوا رشيد بدلا مني.

قال صبري:

- بالفعل بينكما شبه كبير.

قالت أم صبري:

- رشيد أنحف قليلا. لكن هناك شبهًا. تفضل، اشرب.

ناولته كأس شاي بالنعناع بعد أنْ حركت فيه عددا من ملاعق السكر.

- حين تنتهي منه يحين موعد المسكّن.

حقن صبري زياد بعناية بالغة وبشيء من الحسد أيضا.

همست إيمان بعد أنْ غاب زياد عن الوعي:

- إنه يخاف من منظر الدم.. لديه فوبيا من منظر الدماء وكذلك من رؤية الحشود والجموع الغفيرة.

ردت أمها على الفور:

- هراء. رجل مثله، مستحيل!

الفصل الرابع والأربعون

لا يمكن لعمل مهما صغر أو كبر أنْ ينجز في غزة خلال ما يحتاجه منطقيًّا من وقت. دائما ما تستغرق الأمور وقتا أطول. كلُّ الناس تأقلمت مع هذا إلا خليل. يبدو أنه قرر عدم التريّث، فهو يهرول نحو وجهة ما. رآه رشيد من بعيد عندما اقترب من سور بيته. فكّر أنه حتى لو صرخ عاليا فإنه لن يسمعه. كان خليل يرتدي سروال الرياضة الأحمر يُغِذّ السير في اتجاه الشاطئ. «إنه يرتدي ذلك السروال عندما يريد أنْ يبدو في مظهر شعبي مثل بسطاء الناس.» قال رشيد في سره. سروال الرياضة ثبّط عزيمته ومنعه من التفكير بالهرولة خلف خليل. لكنه ما إنْ وصل باب البيت حتى وصلته رسالة نصية تفيد أن أحمد المحمودي يستطيع رؤيته الآن، فاستدار وعاد من حيث أتى.

أحسّ أن هناك شيئًا ما يحدث. اشتمّ رائحته وحدس به. هذا الإحساس لم يفارقه منذ أنْ سمع تلك الطلقات النارية، لكنه الآن أصبح موقنًا أكثر بصحته. حدث شيء ما، حدسُه يؤكد له ذلك. عندما سافر إلى لندن، شعر بأنه فقد تلك القدرة الفلسطينية العجيبة على استشعار أنّ ثمة ما قد يكون وقع أو أنه سيقع. لكن تلك القدرة

الفائقة رجعت إليه فور وصوله إلى غزة. نظر إلى الناحية التي بدا أن دويّ الطلقات أتى منها. كان الحمام هادئًا في أقفاصه، الشمس تغيب وتلوّن الأفق بخطوط حمراء، فيما طائرة استطلاع بلا طيار تطنّ في السماء. ليس من أمر مريب، ليس من شيء واضح.

لكن قطْعًا ثمة شيء ما يجري من حوله.

أحمد المحمودي لم يصل بعد. جلس رشيد تحت يافطة الملعب التي بهتت حروفها: ملعب الإخوة. تسكّع قرب المتاجر الموصدة. مشى صعودًا في الشارع ثم هبوطًا. تفحص السيارات المركونة على جانبيه، كلُّها في مكانها لم تتحرك واحدةٌ منها. أمرٌ عادي لا غرابة فيه، فالوقود لا يتوفر إلا للمسؤولين والمقاتلين وسيارات الإسعاف.

بحث عن القطة الشقراء في الشارع وفي الملعب المهجور، فلم يجد سوى عدد من السحالي وقطٍّ بوجه عبوس وذيل معقوف. الشارع هادئ. تهيّأ له وهو يقرفص فوق العشب في الملعب أنه رأى صبي الجزرة مختبئا خلف سيارة. القطة اختفت، ولم يظهر المحمودي، فيما كانت السماء تكتظ بطائرات من دون طيار.

وفجأة وبلا مقدمات، أعلن المحمودي عن وصوله بصفير مثل زقزقة العصافير. عند ناصية الشارع، وقف بنمطه المميز في اللباس الذي أبدعه لنفسه قبل أن يعرفه رشيد بزمن طويل: جاكيت مفتوح تحته قميص قطني، حذاء قمحي فاتح حاد المقدمة ويعقد برباط، نظارات شمسية إما فوق الأنف أو الرأس أو حول العنق. أسلوبه في اللباس أعجب رشيد وأثار في مخيلته شواطئ «ريو دي جانيرو»، و»كليبات» لمغنين يتمايلون في قمصان قطنية بيضاء ونظارات براقة، قوارب تخفق أشرعتها في عرض البحر وفتيات بـالـ»بكيني»

يتراقصن فوقها. لكن ما إنْ فتح المحمودي فمه وتكلم حتى ارتجت كل تلك الصور، وتلاشت على الفور. كأن حنجرته تقبع فوق أنفه! صوته كان أشبه بصرير مؤذ تقشعر منه الأبدان. ليس هذا فحسب، بل إنّ ذلك الصرير بدا مغلفًا بنبرة قوية من الوعيد.

كان المحمودي يكتب رسالة نصية، ثمّ سأل رشيد:

- «ممن كنت تختبئ هناك؟» مشيرًا بأنفه صوب الملعب. «إما أنك اختبأت من أحدهم أو أنك كنت تراقب أحدا، قل لي أيّ الأمرين كنت تفعل؟» أضاف دون أن ينظر إليه طيلة الوقت.

فكر رشيد في سخافة الاعتراف بأنه كان يحاول العثور على قطة. لكنه قارن هذا الأمر بالاحتمالات الأخرى، فاختار أهون الشرّين. تضاحك قائلًا:

- كنت أبحث عن قطة شقراء.

اللعنةّ! هذا الرجل لا يقلّ قماءة عن كل من يعملون في المجال نفسه. أظافره طويلة، وكلما ضغط على مفتاح في جواله صدرت عنه طقطقة عالية. لا بد أنه يشرح لأحدهم موضوعا طويلا ومعقدا. هل هذا الشخص بعيد أم قريب يا ترى؟ تك، تك، تك.

- إذًا أصبحتم الآن تلاحقون القطط لا الفتيات؟ القطط فقط!

رفع رأسه ونظر إلى رشيد، وغيّر من تعبيرات وجهه. حينها لاحظ رشيد صف الأسنان المسودّة في فمه. تبسّم فبانت الحبوب المتقيّحة قرب ذقنه.

- يجب أنْ تتوخى الحذر. هناك الكثير مما يجري في هذه اللحظات. لا ينبغي لك أنْ تتسكع هنا وهناك أو أنْ تتصرف على نحو يثير الشبهات.

- سمعت صوت طلقات نارية على مقربة من هنا قبل وقت قصير.

قلّب رشيد كل ما يملكه من نقود داخل جيبه. كل ما يحتاجه هو كمية صغيرة جدا. ينبغي أن يكون ما في جيبه كافيا. سيحاول الاقتصاد في استخدامها حتى يتمتع بها لأطول وقت ممكن. وبعد ذلك، إما يكون قد اهتدى إلى شخص آخر، أو أنه سيكون قد رحل إلى كندا. لن يضطر إلى اللجوء إلى المحمودي مرة أخرى.

- إنه الأيوبي.

- زياد الأيوبي؟ ماذا تعني؟ هل قام بإلقاء القبض على أحدهم أم ماذا؟

تذكر رشيد البندقية تتأرجح فوق كتفي زياد ومشهد شدّ وثاق أبي عمر.

- كلا، كلا. بل محاولة لقتل الأيوبي.

لاحظ رشيد مجددا خط القذارة الذي يرتسم فوق أسنان المحمودي والندبة الخفيفة حول إحدى عينيه.

- الرجل له أعداء.

أخرج المحمودي، وهو ينتظر سؤال رشيد الذي لم يسأله، كيسًا بلاستيكيا شفافا مليئا ببذور البطيخ المحمّصة، راح يتسلى بها، ثم قرّب الكيس من رشيد.

- لا شكرا لك.

سأل رشيد وهو يحاول بكل جهده ألا يبدو مهتما بالأمر:

- هل قتلوه؟

أخرج المحمودي لفافة صغيرة من الورق من جيبه الداخلي،

رفعها فوق راحة يده، فيما كانت يده الأخرى منشغلة بالأكل، وقد كشفت حركات فمه عما ينتابه من قلق متسارع.

- يقولون هذا.

كرر رشيد سؤاله محاولا ضبط نبر كلماته حتى لا تنمّ عن أي اهتمام شخصي.

- هل قتلوا الأيوبي؟

- كلا، لكنهم سيفعلون إنْ عاجلا أم آجلا. لقد أصابوه لكنه لم يمت، لن يكون اقتفاء أثره صعبا.

بعيدا قرب السياج الحدودي، كانت قذائف الدبابات تمزق وجه الأرض، وفوق رؤوسهم في السماء حوّمت مروحية على ارتفاع منخفض.

- سيعاودون الكرّة مرة أخرى، ربما يفخخون سيارته أو يفعلون شيئا آخر. المهم، عليك أنْ تحذر، فسيارته مركونة في هذا الشارع. ما بك؟ هل تشك فيما أقول؟ هل تعتقد أنه قادر على الفرار من هنا؟ بالطبع لا، كل الأبواب موصدة في وجهه. الإجهاز عليه مسألة وقت ليس إلا. اسمع، هل تريد هذا أم لا؟

مدّ المحمودي قبضته المقفلة على ما فيها لرشيد، فتحها، فأخذ رشيد ما فيها، واضعًا نقوده مكانها.

- متى أراك؟ الأسبوع المقبل؟

استدار المحمودي قليلا، وضع كيس بذور البطيخ في جيبه، وبدأ في عد النقود.

- ربما ستحتاجني في ذلك الوقت، هه؟

كان رشيد خبيرا بما يكفي ليعلم أنّ المحمودي لم يعطه الكمية المتفق عليها.

خيّم الظلام، ولم يعد من ضوء في الشارع. كان هناك عمود كهرباء يتيم ما زال النور صادرًا منه، فيما ظلالٌ طويلة للأشياء، غير واضحة المعالم تتمدد على الشارع. دسّ رشيد الحشيش في جيبه، ولعن حفل العرس في سرّه. على كل حال، هناك سفينتان حربيتان رابضتان قبالة الشاطئ، وإذا نفّذ السفلة وعيدهم بقصف شديد فلن يكون هناك عرس ولا ما يحزنون.

الفصل الخامس والأربعون

التلفاز يدور دون توقف في غرفة الجلوس، وما من أحد يكترث حتى بخفض صوته. يواصل المذيع قراءة نشرة الأخبار: ... تعهدت الفصائل الإسلامية التي تسيطر بحكم الأمر الواقع على هذه المنطقة من القطاع بالثأر من العدو الإسرائيلي. يأتي ذلك بعد اجتياح المنطقة بالدبابات والجرافات وتدمير أكثر من ستين منزلا...

قال صبري:

- إنها الفوضى تدب بيننا فنأكل بعضنا بعضا. يتآكل الصف الواحد ونتحول إلى فرق وقبائل متحاربة، مثل داحس والغبراء، هذا بالضبط ما يريده العدو.

قالت إيمان بصوت أرقّ من صوتها المعتاد وهي تنهمك في مسح جراح زياد بالمعقمات الطبية:

- فرّق تَسُد.

قال صبري مستنكرا:

- كيف ساعدناهم نحن على تحقيق ذلك! يا للعار! أجل، كانت هناك دائما حالات من هذا القبيل في الماضي. وقعت عمليات قتل لعدد من شخصياتنا اللامعة والذكية على يد آخرين منا بسبب الغيرة.

لكن بوصلتنا الداخلية لم تبلغ أبدا هذا الحد من الانحراف. إنّ محاولة التخلص من رجل كهذا لا تعني سوى أننا لم نعد نعرف العدو من الصديق.

دفع كرسيه نحو أحد الرفوف، أخرج سيجارة وأشعلها. صبري لا يدخن، لكنه حين يفعل يؤدي ذلك على نحو استعراضي كبير. لا يضع السيجارة من يده أبدا، ويظل ينقرها على طرف المنفضة، تك، تك، ثمّ ينفث دخانها نحو السقف ويطلق تنهيدة درامية كبيرة.

تساءلت إيمان وهي تشير إلى زياد:

- أليس من الأفضل ألا تدخن بقربه؟

رد صبري:

- إيه؟ وما المانع في ذلك؟

قالت إيمان ضاحكة:

- «مثل بابا.» قهقهت، «إيه؟ إيه؟ من شابه أباه فما ظلم!»

كانت تقلد طريقته في الكلام عندما دُقّ الباب.

قالت إيمان:

- ربما نسي رشيد مفتاحه كالعادة.

لكن الطارق لم يكن رشيد بل خليل و»إيفا». تذكر صبري اسم إيفا وقال لإيمان إنها الفتاة التي قابلها خليل في لندن. لكن إيمان لم تصدقه حتى رأتها بأم عينها، إيفا رفيقتها في الشقة تقف بشحمها ولحمها هنا، في غزة، في بيتها!

عند الباب حاولت إيمان اعتراض طريقهما. كانت قد أغلقت باب غرفة الجلوس خلفها، لكن المزلاج ارتخى وانشق الباب مفتوحا. وفيما كانت تطلب من خليل بالعربية اصطحاب إيفا إلى مكان آخر، كانت إيفا قد رأت ما رأت.

سألت إيفا وهي تدفع إيمان قليلا محاولةً إزاحتها من طريقها:
- ما الذي جرى لهذا الرجل؟
أشارت نحو غرفة الجلوس حيث يتمدد زياد نصفَ عار وبلا وعي أمام التلفاز.
ردت إيمان:
- لا شيء، لا شيء.
- ربما أستطيع مساعدته، أنا طالبة دراسات طبية كما تعلمين. دعيني ألق نظرة عليه؟
قالت والدة إيمان التي خرجت من المطبخ لاستقبال ضيوفها:
- تفضلي.. أجل، أرجوك! نود منك إلقاء نظرة عليه. أليس كذلك يا إيمان؟
اصطحبت إيفا إلى المغسلة الأرجوانية في الممر الداخلي بحيطانه المزينة بصور أشجار خوخ في الربيع.
- حاولت العثور على طبيب لكني لم أوفق. الرجل الوحيد الذي أثق به رحل، أما الآخرون فلا أدري، لا يمكن الثقة بهم بسهولة. هناك رصاصة في رجله لا بد من إخراجها، فقد اخترقت اللحم لكنها لم تستقر عميقا فيه، اعترضتها عظمة الفخذ. الإصابة سطحية، لكن لا بد من إخراج الرصاصة.
- حسنا، سأرى ما أستطيع فعله.
ربطت إيفا شعرها، ثمّ غسلت يديها مرات عديدة. خللت أصابعها بالماء والصابون فساحت الرغوة فوق المغسلة التي تعلوها بقع معجون الأسنان.
- لست طبيبة بعد لكنني أدرس الطب.
- لا يهم، الإصابة ليست بليغة والرصاصة لم تستقر عميقا في

الجرح. خذي هذه الضمادات وامسحي بها يديك. إنها قديمة ولكنها معقمة، كانت تخص ابني.

أومأت برأسها صوب صبري. كان يتفحص إيفا لكنه يتظاهر بأنه مستغرقٌ تماما في متابعة الأخبار.

- لديّ المزيد من الضمادات، عقمت هذه بغليها في الماء.

ناولت أم صبري إيفا ملقطا معدنيا. رفعت إبهامها الغليظ ثم وضعت سبابتها على منتصفه وأشارت لإيفا.

- الرصاصة على هذه المسافة داخل اللحم. جهزت الإبرة وعقمتها لخياطة الجرح.

تفحصت إيفا الإصابة تحت الضوء. اطمأنت لأنها قامت من قبل بمهمات أصعب من هذه بكثير. في لندن، طلب منها إزالة أشياء لا تخطر على البال من مؤخرات المرضى: زجاجات كولا، أعضاء ذكرية صناعية، حبات بطاطا! تلك العمليات أسوأ مما تودّ فعله الآن بكثير. إنه مجرد جرح سطحي نظيف. استخراج الخيوط ونتف القماش من الجرح أصعب من إخراج الرصاصة نفسها، لكنها سحبتها كلها باجتهاد مستعينة بملقط للحواجب. بعد إخراج الرصاصة، كانت خياطة الجرح مسألة ممتعة بالنسبة لإيفا. فهي تعرف أنّ أصابعها بارعة في هذه المهمة، كما أنّ الرصاصة لم تمزق اللحم على نحو يصعب معه تجميع الجرح وإغلاقه بسهولة.

رأت إيفا في جنوب القطاع ما يفعله الرصاص المتفجر الـ»دمدم« بأجسام المصابين. رأس الرصاصة ينفصل عنها ويخترق اللحم، يهتك كل ما في طريقه من أنسجة وأحشاء داخلية. مرارة الوضع وقسوته هناك بدأت تنال منها، لكنها في تلك اللحظة، وهي تمسح الجرح بالمعقمات، شعرت بأنها في حال أفضل بكثير. اطمأن

خليل لما ارتسم على وجه إيفا من علامات الارتياح. أما أم صبري فنسبت الإنجاز إلى نفسها.

- «أترين. ألم أقل لك يمكننا القيام بذلك.» تفحصت الجرح المخيط، ثم التقطت الرصاصة. جلست على الكنبة وقلّبتها تحت الضوء.

خيّم الصمت على الجميع إلى أنْ انتهت نشرة الأخبار وحلّ فاصل الإعلانات: الآن، جديد. جديد. منظف الصحون المفضل لدى ربات البيوت. عائلة تغني حول مغسلة مطبخ تلمع. «بينغ»! وتنفقئ فقاعة صابون، بينغ! وتتساقط النجوم على الأرض.

حاول خليل كسر الصمت المطبق. لا بد وأنه لاحظ حالة الارتباك بين إيمان وإيفا.

- كنت محظوظا واستطعت تدبير سيارة في الذهاب والإياب. إنني سعيد لأننا لم نترك إيفا هناك. الأمور تتدهور أكثر فأكثر.

- متى وصلت إلى هنا؟

- كيف أصيب؟

إيمان وإيفا طرحتا سؤاليهما في وقت واحد. الدعاية المتلفزة انتهت وحملت المشاهدين إلى جبال تغطي قممها الثلوج. صمتت إيمان في انتظار الجواب على سؤالها.

سألت مرة أخرى:

- متى وصلت إلى هنا.

- أشعر أنني هنا منذ الأبد مع أني وصلت منذ عشرة أيام فقط. تطوعت للعمل في غزة لمدة ثلاثة أشهر. لا يمكن تصور بشاعة الوضع. كنا عازمين على البقاء حتى الليل لكن الأمور تصاعدت على نحو جنوني. يقولون إنهم هدموا ستين بيتا، لكننا نعتقد أنّ العدد

أكبر من ذلك بكثير. لقد دمروا المنطقة بأسرها. يبدو أنهم فعلوا ذلك هنا أيضا؟ لا أصدق أنهم يفعلون كل هذا ويفلتون من العقاب. كان يفترض أنْ نبقى خلال هذه الليلة في أحد البيوت المهددة بالتدمير، لكن بالأمس أصيبت إحدى المتطوعات، صبية يهودية تدعى إيرين، بطلق ناري. إنها بخير الآن، لكننا لم نتعرض من قبل لإطلاق النار علينا. ثم جاء خليل وأقنع المنظمين بترك المنطقة. لقد كانوا يفكرون بهذا الأمر على أي حال. كنا نعرف أنه ليس في وسعنا فعل الكثير.

صمتت إيفا وبدت تائهة.

سألتها إيمان:

- هل أنت بخير؟

حاولت أنْ تختبئ خلف قشور صداقة مفتعلة مع هذه الفتاة. تشعر بارتباك حقيقي تجاهها، فطالما انتقدتها بقسوة في شقتهما بلندن. لكن هذه الفتاة التي تجلس أمامها الآن مختلفة كثيرا عن تلك.

- أشعر بذهول تام، ذهول مطلق. كنا في غاية السعادة يوم الثلاثاء الماضي. لا يمكن أنْ أنسى ما انتابني حينها، شعور لم أجربه في حياتي من قبل. خيّم علينا دفء غامر، شعرنا به نحن المتطوعين فيما بيننا ومع العائلات التي كانت حولنا. لم نتوقف عن العناق والضحك، كأننا كنا نؤكد لبعضنا على ما مررنا به وما واجهناه معا، كم هو رائع ويستحق الجهد والتعب. لا يمكن أنْ أنسى تلك الليلة أبدا. ذكراها ستظل شيئًا لا ينسى ما حييت. لا شيء في حياتي يقارن بما شعرت به في تلك الليلة، بل ينتابني الخوف عندما يخطر ببالي أنه كان من الممكن أنْ تنقضي حياتي ولا أمر بشعور يشابهه أو حتى يدانيه.

أشار صبري لخليل بالجلوس مع إيفا على الكنبة ذات المقعدين. ساقها خليل من يدها إلى هناك، لكن لا يبدو أنها انتبهت أنها جلست.

- كل هذا حدث منذ يوم الثلاثاء فقط. لكنني أشعر كأن دهرا مر منذ ذلك الحين. لا أعتقد أني أغمضت جفنا، ضجيج الجرافات، أنتم لا تدرون، أقصد بالطبع أنتم تعرفون، لكن الأمر جديد عليّ. هدير أصواتها لم يتوقف في رأسي ومنعني من النوم. كل ما فعلناه يوم الثلاثاء هو أننا أنقذنا بيتين من الدمار. تصدينا لجرافاتهم، وقفنا أمامها ولم نتزحزح، هتفنا وتمكنا من إرغام الجنود على التراجع. لكنهم ليسوا جنودا. إنهم مجرد صبية يافعين. يقولون إنهم يستمعون إلى أغانٍ وموسيقى عبر سماعات الأذن خلال قيادة الجرافات وتجريف البيوت. هل يعقل هذا؟ أرغمناهم على التراجع في ذلك اليوم وشعرنا بسعادة غامرة. لكنهم هدموهما، دمروا البيتين اللذين تمكنا من إنقاذهما. أصبحا ركاما. إنني أثرثر كثيرا، أليس كذلك؟ آسفة. لكن عقلي لا يستوعب ما يجري من حولي.

قال صبري وقد أدار ظهره للتلفاز ونظر نحو إيفا:

- إنه وضع لا يمكن لعقل استيعابه أبدا.

أردف قائلا:

- إنه لجسامة خطئه لا يمكن تسويغه أبدا. كما أنه بلغ حدا من السوء يتجاوز بكثير أي محاولة لتصحيحه أو تعديله. فلو أنك أرغمت نفسك على تفهمه بأي طريقة فهذا سيسوقك إلى تسويغه، وحينئذ لن تكوني إنسانة سويّة، أما نحن فنصبح في خبر كان.

- «أجل، صحيح.» هزت إيفا رأسها بحماس، «أفهمك تماما.»

الفصل السادس والأربعون

وصل رشيد إلى الشاطئ ليبحث عن مكان مناسب لتدخين سيجارة الحشيش. فسطح بيته لم يعد متاحا كما كان في السابق. لكنه لا يشعر هنا بالأمان، فثمّة شاحنات يقودها مسلحون تُغِذّ السير فوق الشارع، وتهتز فوق الكثبان الرملية. هناك شاحنات أخرى مكشوفة تكتظ برجال في بزات عسكرية، بنادقهم مشرعة في الهواء، وجوه بعضهم مقنعة وأخرى ملتحية، بعض أصحابها حديثو السن، بل هم في الحقيقة أطفال. كلهم هائجون ومبتهجون في الوقت نفسه، يتوقون لشيء ما، للتنفيس عما بهم من احتقان، للتخفيف من وطأة هذا المكان. سيفعلون ذلك بشن هجوم على الآخر. دخن رشيد سيجارته على عجل، واستنشق الدخان بعمق وهو يتوارى خلف كشك خشبي يبيع الحلوى في النهار. دخن بسرعة لم يألفها من قبل، وشعر بتعب شديد. كان بدنه مجهدًا يكاد يفقد السيطرة عليه، أما ذهنه فاستحوذ عليه انتباه حاد وقلق بالغ.

مكتبة
t.me/t_pdf

فجأة استبدت به الوساوس.

كانت الشاحنات مسرعة لأنها تطارده هو: رشيد؛

والمسلحون منتشرين في كل مكان بحثا عنه هو: رشيد؛

الرجال الرابضون خلف السيارات وأصابعهم جاهزة للضغط على الزناد ينتظرونه هو: رشيد؛

السيارات المركونة إلى جانب الشاطئ كلها مفخخة، تنتظر لمسة واحدة منه، لتنفجر فيه هو: رشيد؛

الأشلاء التي تتبعثر في السماء له هو: رشيد؛

الدبابات والجرافات والمروحيات تستهدفه هو: رشيد؛

السفن الحربية فوق الماء لا تصوب فوهاتها إلا إليه هو: رشيد.

انتبه لنفسه. كان يمشي بسرعة، بكتفين محنيين، وعينين دامعتين من ريح البحر وما تحمله من رمل وغبار. يحني قامته أكثر، ويحاول بلا جدوى أنْ يبدو قصيرا وصغيرا. رذاذ البحر يبصق عليه، والريح تدفعه إلى الخلف، فيصطدم بكثبان الرمل، يتلوى ويتطوّح مثل ثعبان في حفرة. الطريق إلى البيت ما زال بعيدا محفوفا بالمخاطر، وهو لا يثق بقدرته على اجتيازه. شعر كأنه نملة مكشوفة في العراء والسماء من فوقه تضج بأسراب الجراد.

وصل إلى البيت. لا يدري كيف فعل لكنه وصل. أمسك بمقبض الباب. شكر الله على ذلك. لعن المحمودي وحشيشه المغشوش. لم يلتفت إليه أحد من الجالسين في غرفة الاستقبال. تساءل إنْ كان قد وصل حقا أم أنه ما زال في الخارج؟ انتبه إلى أنّ جسده سبقه إلى البيت، أنه يتمدد هناك فوق كرسي، عاريًا حتى الوسط، مخدّرا، رجلاه بلا حذاء، وسرواله الجينز تغطيه الدماء.

إنه هو، رشيد. ميت وجثته عارية ومسجاة أمام التلفاز. إنه ميت لكنهم يتكلمون عن شخص آخر. كعادتهم. خطر ذلك في باله. عادتهم ولا يغيرونها! لا يكترثون له حيا كان أم ميتا.

كانت إيمان تشرح لامرأة أجنبية ظهرها إلى الباب:

- والداه جرى اغتيالهما في بيروت. كان الاثنان مثقفين.

أردف صبري:

- ناضل من أجل القضية طيلة حياته. رجل ذو مصداقية، نحن في أمسّ الحاجة إلى المزيد من أمثاله.

قالت أم صبري وهي تشير إلى زياد:

- بطل إنْ شئت. ألا تظنين أنه يمكن أنْ يكون ولدا من أولادي؟ يبدو كولد لي، أليس كذلك؟

تمتم رشيد:

- الابن الذي لم تنجبيه يوما.

لكن فمه كان متيبسًا من العطش، والمشهد سرياليًّا للغاية. لا يدري إنْ كان قد تلفظ بتلك الكلمات أم أنه تخيلها في رأسه. لم يفهم كيف يمكن أنْ يتغير بيته إلى هذا الحد في غضون ساعات: أخته تحدب على رعاية رجل فمه مفتوح باتساع ويتمدد فوق ملاءة سرير، خليل يتهامس مع أجنبية بيضاء تضع نظارات فوق عينيها. لقد حذره من الإنجليزيات بعد فشله مع ليزا، عرفهن على حقيقتهن. لكن يبدو أنّ خليل لم يعقل ولو كلمة واحدة من كلامه.

انتبهت أمه إلى وجوده أخيرا:

- آه! رشيد. هذا زياد الأيوبي.

أضاف صبري:

- رفاقه في الحزب حاولوا اغتياله، أطلقوا الرصاص عليه.

واصلت أمه الحديث:

- نحن نتولى رعايته. إنه رجل شجاع.

- «رائع!» ردّ رشيد أخيرا. «رائع!»

توجه إلى الممر، انحنى فوق المغسلة وغسل وجهه. التقط حبات الرمل من زوايا عينيه، فركهما، واستنشق ماء من راحتيه، نفثه خارج أنفه. كرر ذلك مرات. انتبه إلى وقوف خليل خلفه.

سأله خليل:

- هل أنت بخير؟

- أجل.

ردّ رشيد وهو يمسح يديه بسرواله، وينشّف وجهه بضمادة كانت على طرف المغسلة:

- أجل، لكنني جائع فحسب. بل أتضور جوعا في الواقع. هل ترغب في الأكل؟

في المطبخ وأثناء تناول صحن من البامية مع الأرز، اكتشف رشيد أنّ خليل التقى بطلين في يوم واحد، بطلين من الجنسين: إيفا («**إنها شجاعة للغاية! ما الذي يعنيها في كل ما يجري هنا؟ كان يمكن أنْ تقتل.**») وزياد («**هل تعلم أنّ والديه قتلا اغتيالا؟ وأنه تعرض اليوم لمحاولة اغتيال؟ إنه قائد موهوب حسبما فهمت.**») كما يبدو أنّ عرى الصداقة قد توثقت بين خليل وصبري، وعلى نحو لم يحظ هو به مع أخيه من قبل («**لم يكن لديّ علم بأنّ أبا عمر هو من بلّغ عن صبري. لم تنظر إليّ هذه النظرات؟ ألا تعرف ذلك؟ لقد قال لي ذلك للتوّ.**»)

رائع! رائع! كان رشيد يتمتم دون أنْ يرفع عينيه عن صحنه. لقد طفح به الكيل. إنه يمقت أي شكل من أشكال تأليه الأبطال، يكره السريّة والكتمان وإخفاء الحقائق لأيّ سبب كان. أدرك بينه وبين

نفسه أنه سئم من هذه المسرحية العائلية الهزلية، وقرر بأنه ينبغي حظر كل العلاقات الرومانسية عندما سمع خليل يقول: («**ألا تتفق معي؟ يبدو أنّ إيمان وقعت في غرام زياد**».) البامية بلا طعم، يبدو أنّ أحدهم أجهز على كل حبات البامية وقطع اللحم المفروم. إنها مجرد شوربة بندورة تختلط بخيوط خضراء، بقايا قطع صغيرة من البامية، أرغم نفسه إرغاما على بلعها. وقع بصره على واحدة من الصواني التي تعدها أمه لصبري. **قطعًا قدمت له اللحم**، دار في خلده. كانت أسوأ بامية يتناولها في حياته، رغم الجوع وسيجارة الحشيش المغشوش. لعلّ أمه كانت تفكر فيه عندما طهتها، غرفت له صحنا من ماعون طافحٍ بالاحتقار الذي تشعر به نحوه.

راقبه خليل. كان في السابق ينظر إليه نظرة خاصة طالما حاول رشيد واعيًا تجاهلها. نظرة عندما يتنبه لها يتمنى لو أنه لم يفعل. كانت تنمّ عن شيء أكبر من مجرد الحب. لم تستوقفه من قبل، فضّل، أو تظاهر دوما، بعدم وجودها. أما الآن وقد اختفت وتلاشت، فقد شعر أنه يفتقدها أكثر مما كان يتصور.

الفصل السابع والأربعون

ليس من موضع لرشيد في غرفة الجلوس، فقد تحلقوا حول زياد الغائب عن الوعي ولم يتركوا له مكانا. تناهى إلى سمعه مذياع صبري: ... **تعهّد مسؤولون إسرائيليون بمواصلة القصف الجوي للأراضي الفلسطينية، كما أكدوا تخطيطهم لردّ انتقامي عنيف ردًّا على الهجوم الصاروخي الفاشل الأحد الماضي من قبل الفصائل الإسلامية...**

جلس وحيدا في غرفته، حاسوبه ملقىً على الأرض عند قدميه يتربع وسط كومة من الأسلاك، شاشته مغبرة. لم تكن لديه الرغبة في مجالسة أي كان أو سماع أية أخبار. موجة ضحك جماعي مجلجل وصلته من غرفة الجلوس. وجد نفسه ملتصقا بالنافذة، وبرد الليل يلسع خديه. ضغط جبينه على الزجاج. زال تأثير الحشيش تماما، ذهنه الآن صافٍ بلا تشويش أو ضبابية. لا بد أنهم في غيابه بحثوا عن شيء في غرفته، فقد كانت قمصانه مبعثرة فوق سريره غير المرتب. القميص الذي اعتادت ليزا ارتداءه يتمدد فارغا هامدا وسط السرير. جلس رشيد وراح يقلب صفحات جواز سفره، كأنه كتاب مقدس، أو طريق للخلاص. قطعًا كانوا يبحثون عن قميص لزياد.

تعالت أصواتهم من جديد، متوافقة ومتناغمة، ثم اندلعت موجة جديدة من الضحك. صوت خليل يشبه ثغاء الماعز، علا على بقية الأصوات، اختلط بصوت شجار الجيران في الطابق العلوي، وطغى على نشرة الأخبار وصراخ أولاد الجيران.

حينها، وحينها فقط انجلت له الأمور. فجأة انقشع الضباب عن عينيه. أبصر أخيرا وأدرك ما يريد.

هبّ واقفا. نظر إلى سريره، ملابسه، أكياس حاجياته المكدسة فوق أرض غرفته. تطلّع في الحاسوب، حملق في الصورة فوق جواز سفره، فشعر أنّ كلّ شيء يؤكّد له سلامة ما اهتدى إليه، الحلّ الذي تنزّل عليه.

ما إنْ أدرك مصيره حتى شعر بتواصل وتناغم عجيب مع كل ما يحيط به. لم يحسّ بمثل هذا من قبل أبدا. قراره واضح، حاسم وقاطع، يوصد كل الأبواب في وجه أي قرار آخر.

مرّت طائرة نفاثة على علو منخفض، هديرها صمّ الآذان وهزّ أركان البيت. ساد السكون ولم يعد من صوت سوى صوت مذيع الأخبار.

أحسّ بأنه يحلق عاليا، يرتقي فوق كل هذا.

طاقة عجيبة دبت في أوصاله.

إنه وضوح الهدف.

كأنما ولد من جديد.

الفصل الثامن والأربعون

ما إنْ تجاوز الأرض الخراب وابتعد عن البيت حتى بدأ يمشي بخيلاء. البندقية على كتفه منحته لذة السير على هذا النحو، أعطته دورا وهدفا يفتح له أخيرا طريق الانتماء. توجه رشيد صوب المكان الذي انتابه الخوف فيه، نحو الشاطئ. مشى فوق أسلاك شائكة مقطّعة، وسياج سقط على الأرض. وعندما وصل إلى هناك وجد المكان أكثر هدوءًا مما كان عليه. ليس من أثر للشاحنات المسرعة وتلك الممتلئة بالرجال. ورغم أنه تعمّد المشي على نحو مكشوف وواضح إلا أنّ أحدا لم يلاحظه. لم يكن هناك من بشر، حتى السماء كانت أكثر هدوءًا. سمع صوت طائرة استكشافية. توقف وأصاخ السمع، فلم يتناه إلى سمعه أكثر من ذلك. كانت أشعة القمر تضيء وجه البحر الذي تربض فوقه سفينة حربية منتصبةً كبرج بئر نفطي.

يمم وجهه شطر المدينة من جديد، وسلك دربا آخر يحاذي أراضيَ زراعية. ثمّة بيوت بلاستيكية تعصف بها الريح، أرضٌ محروثة بمعدات قديمة تقليدية، بل موغلة في قدمها، تعود إلى زمن الفراعنة وبلاد ما بين النهرين. كان كل شيء واضحًا للعيان مع اكتمال البدر في السماء. ففي وسط حقل بعيد، تحوّل مدخل أحد البيوت، بالضوء

المعلق فوق عتبته، إلى مكعّب برتقالي اللون. يا لهذا المكان! كم هو مدهشٌ في هذا الوقت من الليل! تجدد إحساس رشيد بكل ما حوله، فهو يرى الأشياء واضحةً على نحو غير مسبوق، بفضول طفل صغير.

تجاهل المروحيات التي تحوّم جنوبا، ولم يعبأ بمراقبة كيفيّة تحوّل الغيم إلى دخان تحت أشعة كشافاتها المبهرة. راح يتأمل السماء من فوقه حيث يتراكم السحاب ويرسم قبة رائعة ترصّعها النجوم، فيما تبدو على مبعدة كتلةٌ خفيفة مشوّشة من البياض.

بين الفينة والأخرى، كانت تمرُّ مقاتلة نفاثة، تختطف سكون الفضاء وتغتصب سحر الليل. هدير مجلجل، انفجار مزلزل، ورعبٌ لا يريد مجرد التفكير فيه.

راح يمشي بخطى واثقة وقامة مشدودة. لقد منحه ما عقد عليه العزم حرية لم يتخيل أنه سينعم بها يوما. ما هو مقبلٌ على فعله الآن يفوق في عظمته أي شيء آخر في حياته. خفق قلبه فخرا، ثم انقبض ذعرا. تصلّبت عضلات وجهه وقست ملامحه، وفقدت يداه الإحساس. ما يحسّ به الآن هو نوعٌ مختلفٌ من الخوف، محسوبٌ وضروريّ، ولم يتصوّر يومًا أنه قادرٌ على تحمّله. فلا مناص، لا بد أن يصل إلى التحرر والانعتاق، إلى الحرية التي كان يظن أنها صعبة المنال.

عثر على المفتاحِ في جيب السترة، تماما كما توقّع. كان يتدلى من سلسلة مفاتيح عُلِّقت فيها كذلك عينٌ زرقاء تحمي من الحسد. رقم السيارة ونوعها كانا محفورين على المفتاح، كما يأمل. هذا ما يحتاجه حتى يهتدي إلى مكان السيارة.

بدت المدينة كأنها مهجورة، طرقاتها موحشة، شوارعها ساكنة،

ومتاجرها موصدة. اتجه إلى الناصية، وأطل على الشارع الرئيسي فأبصر الملعب. اجتاحته موجة من الخوف كادت تودي به، فقمعها. عضَّ على أسنانه، وشدَّ على ذراع البندقية. لم يكن هناك من حركة. سمع بكاء طفل مختلطًا بالمقدمة الموسيقية لنشرة الأخبار. عمود الكهرباء الوحيد الذي ما زال يعمل تراقص ضوء مصباحه: سطوعا، شحوبا، خفوتا، ثم سطوعا من جديد. لم يأت إلى هذا المكان من قبل وهو معتمٌ على هذا النحو. في الجهة المقابلة عُلّقت لافتة متباهية تعد بتمويلات أوروبية وتتفاخر بإعادة البناء والتعمير. لكن كلّ ما يحيط باللافتة كان مكانًا موحشًا سُويّت بناياته بالأرض.

كليك. انتبه وأصاخ السمع. كليك، كليك، كليك. صوتُ بندقية تُجهّز لإطلاق النار. استدار نحو الصوت، لكن الصمت خيّم من جديد على ما يبتلعه الظلام في جوفه. على مبعدة من ذلك المصباح الكهربائي اليتيم، وضوئه الشاحب فوق أسطح السيارات المغبّرة، خُيّل إليه أنه لمح شخصا. هل هو وائل؟ جاسوس صبري الصغير، حفيد أبي عمر؟ كليك. سمع الصوت من جديد. لكنه لم ير شيئا، لم يسمع شيئا، لم يلحظ شيئا، وحتى ذلك الطفل أمسك عن البكاء.

الفصل التاسع والأربعون

داهم النوم إيفا في منتصف حديث طويل احتشد بجمل استفهامية واستنكارية. أعطوها رغما عنها سرير إيمان لتنام عليه، لكنها افترشت الأرض وشعرت كأنها تنام في معسكر للطيران، هدير المقاتلات فيه لا ينقطع، وطنين المروحيات متواصل. وسط هذا كلّه كان شخير إيفا يسمع عاليًا، فيما فمها فاغرٌ وشعرها منكوش.

ارتفع صوت شخيرها أكثر بعدما خفّت حركة الطائرات. كان إيقاعه يعلو كخوار ويهبط كمواء. توقفت الطائرات عن التحليق، والتقطت أذنا إيمان أصواتا من الطابق العلوي، حيث تقوم الأمهات بهدهدة صغارهن، ويسحبن فراشهم إلى وسط الغرفة، بعيدًا عن موت يحوّم خارج النوافذ.

كانت منتبهة للغاية، أكثر يقظة وسعادة من أي وقت مضى. لكن سعادتها لا تدعو إلى الاطمئنان، بل ستُسْلَب منها، سيأتي أحدهم لا محالة ويختطفها منها.

- سيصلون إليه.

هبّت إيمان فزعة وأصاخت السمع.

سيأخذونه منها. ربما هم في الطريق الآن. أعداؤه يبحثون عنه.

سيشي أحدهم به، ويأخذونه منها. جيرانهم لا علم لهم بنوايا رفاق حزبه، من أين لهم أن يعلموا بذلك؟ ربما سيقولون: أجل رأيناه، الأيوبي، ذهب في ذلك الاتجاه، نحو بيت مجاهد هناك. سيقتحمون البيت، يكسرون زجاج الباب، يفتحون المزلاج، ويجرّونه إلى الخارج. تركت فراشها. يجب أنْ تخرج لتفحص آثار دمائه مرة أخرى. تلك البقعة العنيدة فوق عمود اسمنتي مهدّم، لا بد أنه خطا فوقه، حاولت جهدها أنْ تزيلها بقدمها دون أنْ تلفت الأنظار. لكن البقعة لم تختف تمامًا. من يلاحقونه ويقتفون أثره سيكتشفونها، ستقودهم تلك البقعة إلى حائط بيتهم، سيقفزون عنه كما فعل هو.

رائحة الممر تعبق بالهيل والمعقمات الطبية والسجائر. عبرت منه ودلفت إلى غرفة الجلوس. خليل يغفو فوق كنبة، قدماه عاريتان يكسوهما شعر وتبرزان من تحت الغطاء، رأسه مائل، يستند إلى الكنبة، حذاؤه في الزاوية، جورباه مكوران بأناقة. أما هو، زياد، فما يزال في مكانه، لا يكفيه هو الآخر الغطاء الذي يلتحفه، رأسه يميل جانبًا مستندًا إلى الكنبة. دخلت إيمان بهدوء، وأشعلت مصباحا جانبيا فوق الطاولة لتراه على نحو أفضل.

مفرش الطاولة تزينه زخارف لولبية، وتتدلى من حاشيته خرزات ملونة، قماشه اسودّ مع الوقت، عليه خرابيش أطفال، وبقع أقداح شاي وفناجين قهوة. لم ينشغل بال إيمان بالبقع ولا بالخرابيش، بل بجواز سفر رشيد. وجدته مفتوحا على الصفحة التي تحمل التأشيرة الكندية. أحدهم وضع كتابا للبروفيسور مايرز فوقه ليظل مفتوحا على هذه الصفحة.

ربما كان عليها خلع حذاء زياد، فلن ينعم بالراحة في نومه وهو

على هذه الحال. انهمكت في حلّ رباط الحذاء. ربما كان رشيد في حاجة إلى شيء آخر بالإضافة إلى التأشيرة، لذلك وضع جوازه فوق الطاولة لكي يذكّروه به في الصباح. جذبت فردة الحذاء اليمنى على مهل فتناثرت حبات رمل على الأرض. فعلت الشيء نفسه بالفردة الثانية. ليتها غسلت قدميه قبل أنْ يفقد وعيه. لكنها لم تجرؤ، لأن ذلك سيجذب انتباههم. إنهم يعرفون أنها ليست من صنف النساء اللواتي يتطوعن لغسل أرجل رجال غرباء.

لكن رشيد قال إنّ تأشيرته جاهزة، بل أكد أنّ كل شيء انتهى، وأنه حصل حتى على تأشيرة الخروج الإسرائيلية. راحت تنزع الجوربين، لونهما داكن، لهما رائحة غرفة رشيد، رائحة رجل بلا امرأة، ليس لديه من يعتني به. لم تشعر بالنفور، بل أعجبها ما في هذه الرائحة من عنصر احتياج للآخرين. وضعت الجوربين بعد أنْ طوتهما في حذاء زياد، كما يفعل خليل (كان غريب الأطوار فيما يتعلّق بقدميه، وجوربيه، وحذائه، وملابسه، وبصورة شديدة الخصوصيّة). أرادت أن تفعل شيئًا آخر يعبّر عن اهتمامها ورعايتها لهذا المقاتل الجريح. سوف تضعهما بعيدًا عنه، قرب الطاولة إلى جانب معطفه. لكن معطفه الأخضر لم يكن موضوعًا فوق الكرسي حيث تركوه. لم يكن موجودًا في المطبخ كذلك، ولا على المشجب عند المدخل.

بحثت إيمان في غرفة رشيد، وسحبت أغطية السرير. قلبُها حدّثها بهذا. شعرت بذلك. لقد رحل رشيد.

وقفت عند الباب الرئيسي، وتفحصت أقفاله. كان المزلاجان العلويّ والسفليّ مسحوبين، لكن الباب كان مغلقًا بالمفتاح من الخارج. فركت جبينها بشدة.

ثمة شيء لم تفهمه، شيء شديد الوضوح.

جواز السفر، المعطف. جواز السفر، المعطف.

جواز سفر رشيد، معطف زياد.

بلعت ريقها مرتين، تنفست بسرعة مرتين، ووجدت نفسها تدور في دائرة ضيقة. شعرت أنها عاجزة عن التفكير. عادت إلى مدخل البيت، وبحثت عنه. لم تكن البندقية هناك. شعرت بالبرد والشلل يصيب يديها وقدميها ومعدتها.

لم يكن ثوب أمها يساعد على الحركة السريعة؛ كان طويلًا جدًّا وضيّقًا للغاية، لكنها اختطفته هو والمنديل من على كرسيّ المطبخ، وارتدتهما فوق بيجامتها. كما أنها عثرت على المفاتيح الإضافية في أحد الأدراج.

خرجت إلى عتمة الليل. كانت أشعة القمر تنعكس على حواف الأرض الطينية، والبياض العكر للخيام، وحيطان البيوت المهدّمة. في مقدورها أن تسمع كلماته بوضوح الآن، رغم أنها لم تكن مفهومةً تمامًا لها من قبل، وكانت العائلة تتجاهلها لأنها صادرة عن رشيد. تذكّرت ما كان يقوله (أنه الابن الذي لم تلده)، وكأنه يرثي نفسه. غبيّة!

راحت تلاطفه، تتملقه، وتناشده في سرها: لن تفعلها، لن تستطيع ذلك. تناغم إيقاع كلماتها مع وقع خطاها المسرعة. لن تفعلها! لن تستطيع ذلك! لن.... لا بد أن هذا يمثّل بعض الحقيقة، **حقيقة أنه يريد أن يفعل ذلك**. ليس في وسعها أنْ تقول ذلك. ينبغي أن تقول شيئًا آخر عندما تنجح في إقناعه بأن لا يفعل (من المؤكد أنها ستنجح في إقناعه). ستقول له: «يكفيك شرف المحاولة»، أو

«يكفي أنك كنت مستعدا وجاهزا للقيام بذلك. هذا عظيم وكاف.» هذه الجملة الأخيرة أفضل من سابقتها، أجل ستقول له وتضيف: «يمكنه الاعتناء بنفسه.» لكن هذا غير مقنع. إنه يعرف وهي تعرف أنّ هذا غير صحيح. توقفت مضطرة عن المشي، أنفاسها متقطّعة لاهثة، رأسها يدور، لا تدري ما تريد، (**لا تعرف من منهما تختار**). صوت سقيم مقيت في رأسها، يثير فيها القشعريرة، يوسوس لها، يزين لها بأنها تريد أنْ يحدث ما سيحدث دون تدخل منها. **هيا، اقتل نفسك، أيها الأحمق**. لا يهمني ذلك. فيضانٌ من الدموع انبجس من مقلتيها. جرى وفاض وأغرق وجهها. هذا يكفي. يكفي.

أطلقت ساقيها للريح، ترنحت، ثم تعثرت. سمعت صوت محرك سيارة يدور في الشارع الرئيسي، ثم كأن شهابا ضرب وجه الأرض. انفجارٌ مهول، ألسنة نيران تتراقص، وراء تلك المباني، هناك، من أمامها.

الفصل الخمسون

رغم أنهم لعبوا دورًا كبيرًا في تحديد مصير عائلته، وأنه رأى منهم وسمع لهم أكثر بكثير مما يتحمّله أي إنسان، إلا أنّ رشيد لم يمسك بندقية في حياته. جهّز البندقية التي يحملها الآن بين يديه لإطلاق النار بعد أن حرر مسمار الأمان (تعلّم هذا مما شاهده في التلفاز)، ووضع حزامها الجلدي خلف عنقه، واستعدّ. كان الصوت يأتي من خلفه (كليك، كليك)، أو ربما من فوقه. إصبعُه على الزناد؛ فكّر أن كل ما تبقّى لا يحتاج سوى الضغط على الزناد لينطلق الرصاص.

مرت طائرة في السماء، ثمّ خيّم صمت مطبق على الشارع. تبددت أصوات أجهزة التلفاز، اختفى بكاء الأطفال، ولم يعد يسمع أصوات (كليك، كليك) التي سمعها من قبل. أصبحت روائح القاذورات المتعفنة والأرز المطبوخ أشد نفاذًا.

جاءه الصوت من جانب الحائط:

– أنت! يا أيوبي! أنت!

أيًا كان المنادي فلا شكّ أنه على بعد خطوتين خلفه. صوته أجّش لكن لا بد أنه شابّ. كان رشيد بعيدًا قليلًا عن عمود الكهرباء،

بحيث بدت نصف معالم وجهه غير واضحة تمامًا. استدار ببطء، فخرج الصبيّ من جنح الظلام، ووقف في منتصف الشارع، خلفه يشعّ ضوء عمود الكهرباء. كان ينتعل حذاء صبري في قدميه، دون جوربين، وقد تدلّى من رقبته هاتف جوّال يشبه البطاقة التي يضعها رجال الأمن في أعناقهم.

كان رشيد ما يزال ملتصقا بالجدار ومحتميا بالظلام. كان في مقدوره أنْ يركض إلى السيارة، ويطلق النار على الصبي الذي لم يبدُ عليه أنه مسلح. لكنه قطعًا لم يكن بمفرده. لو تمكّن من إطلاق النار على أولهما فإن الإجهاز على ثانيهما سيكون أسهل. تصور أنّ أصعب ما في الأمر هو اتخاذ القرار لا تنفيذه. لكن وجود هذا الصبي أحبط كل شيء. لا يستطيع أن يطلق النار عليه وهو يراه ينتعل حذاء صبري في قدميه، مفكوكَ الرباط، ودون جوربين. أغمض عينيه، دفع البندقية إلى الأمام، لكن الصبي قفز مبتعدًا عن مرمى النار، ولا بدّ أنه أصبح قبالته الآن لأن صوته بات قريبًا جدًا، قرب وجهه تمامًا.

قال الصبي منتشيا بدقة ملاحظته:

- لم يخف عليّ أنّ ثمة أمرًا مريبًا. لقد لاحظت مشيتك، لم تكن مشية شخص جريح. ماذا تفعل هنا؟ لماذا ترتدي ملابس الأيوبي؟ ولم تحمل بندقيته؟ أين الأيوبي؟

نحّى رشيد البندقية جانبا. إنه عديم الفائدة، أخفق حتى في هذا.

- قد تعرض نفسك للقتل وأنت تتسكع هنا.

ردّ رشيد:

- هذا ما أريده. هذا ما أسعى إليه.

ضحك الصبي وراح ينظف سنا من أسنانه بحافة ظفر من أظافره.

- «إذا كنت تريد أن تُقتل، فثمّة طرق أسهل بكثير لتحقيق ذلك من ارتداء ملابس شخص آخر.» حكّ الصبي رأسه، وتساءل بينه وبين نفسه فيما إذا كان رشيد صادقا أم مخادعا.

- أريده أنْ يظل على قيد الحياة. أريد أن أموت بدلًا منه.

ضحك الصبي مجددا. أطلق قهقهةً شريرة حمقاء.

- ولماذا تريد فعل ذلك؟

- يجب أنْ يبقى على قيد الحياة، لا ينبغي أنْ نسمح لأحد بالتخلص منه. ليس بأيدينا نحن.

- «لكنهم يقولون إنه خائن وعميل.» قال الصبيّ وهو يقذف من قاع حلقه كرة ضخمة من المخاط، بصقها بقوة، فالتصقت بالجدار أمامه.

- أين هو على أي حال؟

- إنه ليس خائنا ولا عميلا.

لم يكن رشيد متأكدا إنْ كان الصبي سيستوعب ما سيقوله له. فرغم ما يتّقد في عيني الصبي من ذكاء، إلا أنهما (ومع أنهما يعيشان على الرقعة الصغيرة من الأرض نفسها) كانا ينتميان إلى عالمين مختلفين جدا.

- الأيوبي بطل، قائد. هل تفهم ما أقوله لك؟ ما يدفع الآخرين للتخلص منه هو أنه فضحهم، عرّاهم، كان يحاول منعهم من سرقة أموال الناس.

نظر الصبي إلى رشيد بفضول، حكّ فتحة أنفه بإصبعه، رفع

رجلا وحكّ بها الأخرى. تراجع رشيد قليلا إلى الوراء، فربما كان القمل قد استوطن جسد الصبي.

سأله رشيد:

- ما دخلك أنت بهذا الأمر؟

أحسّ برغبة عارمة واندفاع شديد لتنفيذ خطته، فلن يسمح لصبي الجزرة بإحباطها.

- اسمعني. إن مت بدلًا منه، سيعتقدون أنهم قتلوا الأيوبي. حينها يعيش منتحلا شخصيتي، يرحل ويسافر إلى أي مكان، ثم يعود ويحرر فلسطين. ما شأنك أنت؟ تظاهر بأنك لم تقابلني أبدا، قل لهم: أجل، لقد كان الأيوبي، رأيته بأم عيني، قتل، مات، وتكللت المهمة بالنجاح. طالِبْهم بترقية أو مكافأة مالية. الأمر سهل للغاية.

كان عليه أنْ يثق بما سيفعله الصبي، وإلا فلا جدوى من المضيّ قدما في خطته.

خيم الصمت لبرهة من الوقت. مدّ رشيد يده إلى جيبه الخلفي، لكن الصبي أخرج مسدسا وصوبه نحوه على الفور.

- ماذا تفعل؟

نبرة الصبي أصبحت الآن شديدة وقاسية.

- «إهدأ! إهدأ!» مدّ رشيد يديه إلى الأمام. «هل تعرف أني سعيد لرؤيتك، كنت أريد أنْ أعطيك شيئا لكني انشغلت بهذا الأمر. خذ هذا لك.»

ناول الصبي إيصال المصبغة، فقلّبه بين يديه، وقال بارتياب:

- ما هذا؟

- إنه إيصال استلام بذلة في غاية الروعة. إنها في مصبغة أبي

فراس. ستكون جاهزة غدا بعد تنظيفها. اذهب وخذها فهي لك. لن تتخيل كم هي جميلة مع هذا الحذاء.

تفحص الصبي الإيصال تحت الضوء. كان عليه رقم مطبوع، حافته مثقوبة، لا شيء آخر.

- بذلة؟ ما نوعها؟

- كيف يمكن أنْ أصفها لك؟ إنها مثل تلك التي يرتديها زعماء العصابات الأمريكية. لو انتقيت لها اسما فلن يكون سوى «بذلة زعيم العصابة الأمريكية».

جرى الكلام على لسان رشيد وهو يتخيل كم سيستمتع بوصف المشهد لخليل. إنه سيضحك ملء شدقيه. لم يعد رشيد متأكدا من أنه يريد فعل شيء يفوّت عليه فرصة رواية هذه القصة لخليل.

- «زعيم العصابة الأمريكية؟» علت ابتسامة كبيرة وجه الصبي.

يبدو أنه وُفّق للغاية في اختيار هذه التسمية. سحب رشيد بندقيته خلف ظهره حتى يتمكن من استخدام يديه.

- «أجل، بذلة زعيم العصابة الأميركية، ألا تعرف كيف تبدو؟ حسنا، سأشرح لك. الكتفان عريضان، هكذا، مقلّمة بالأبيض وبطانتها من حرير أحمر.» فرك رشيد إصبعيه، «ملمسها ناعم للغاية، مصنوعة في باريس، مصممها مشهور بل من كبار المصممين.»

غمزه الصبي وكأنهما يتبادلان نكتة قذرة:

- باريس!

هز رشيد رأسه:

- أجل، باريس.. أتدري أنك محظوظ لأني صادفتك هنا. فهذه البذلة لا تناسب أحدا سواك.

انتاب القلق رشيد، خاف أنْ تكون مبالغاته مفضوحة ونواياه مكشوفة. وقف الصبي يحملق فيه بشدة، عيناه كأنهما من زجاج.

- «حسنا، لا بدّ لي من شرح أمر مهم لك.» قال الصبيّ، «يجب أنْ تعرف أنّ من يضغط على زر بدء الاستعراض هو أنا. لهذا فإنّ هذه المسرحية أو الاستعراض، سمه ما شئت، هو استعراضي أنا. فاهم كيف؟» ثمّ رفع الجوال الذي يتدلى من رقبته، «لدي رقم مسجل هنا، عندما أضغط عليه، بوووم، تنفجر السيارة. فاهم علي؟ أنا ملك هذا الاستعراض. لكن في هذه المرة، كما تعلم، وحسبما تقتضي الأمور، هناك شخص آخر أيضا. لكن مهمته محصورة في مراقبة التنفيذ فقط، يعني مجرد مراقب ليس إلا، لكن من الضروري أنْ تعرف بوجوده هنا.»

- أين بالضبط؟

- أوكيه. نحن هنا، امشِ مباشرة إلى هناك فتصل إلى الملعب، مفهوم؟ أوكيه! السيارة ستكون إلى يمينك بعدما تنعطف نحو الشارع الرئيسي، لونها أزرق وهي ثالث سيارة هناك. مقابل السيارة وفي زقاق صغير بعد الملعب يتوارى المراقب. والآن...

راح الصبي يلعق طرف إبهامه. نظر إلى رشيد. راح يفرك سبابته بإبهامه، كأنه يهم بعدّ أوراق نقدية.

- هذا الأيوبي، عن جد بطل؟

أكد له رشيد بنبرة جدية للغاية:

- بطل عن جد الجد.

- حسنا، إنْ كنت مستعدا للموت بدلا منه.

انتفخت أوداج الصبي قليلا ثم قال:

- يا زلمة! «لو إيش ما كان» ما بموت من شان حدا.

قالها بزهو ثم استدرك:

- إلا عشان فلسطين طبعا.

- طبعا. معلوم.

- «أوكيه!»: مرر الصبي لسانه فوق أسنانه ثم لثته وشفتيه. فكّر مليا، هزّ رأسه، وصل إلى قرار.

- «شوف، بدي أحكيلك شو لازم تسوّي.» ثم أخبر رشيد ما يتوجّب عليه فعله.

- «أعتمد عليك يا زلمة؟ كلام رجال يعني؟» سأل رشيد.

- وحياة عمرك يا حبيبي، وحياتك.

طوى الصبي إيصال المصبغة ووضعه في جيبه، وردد ثانيةً: «وحياتك.»

وهكذا وافق رشيد على تنفيذ خطة الصبي.

الفصل الواحد والخمسون

لا بد أنها لم تتزحزح قيد أنملة من مكانها حيث وقفت. تجمدت بلا حراك. توقف بها الزمان والمكان في بقعة معتمة فوق قطاع صغير، في زاوية بعيدة من المتوسط، حيث يتقاتل شعبان، يقتل كل منهما الآخر لأجل شيء لم تعد تتذكر ما يكون. قال لها رشيد ذات مرة:

- «إننا مثل شطري حبة جوز،» متى قال لها ذلك؟ هل عندما بكت في مدرستها بسويسرا قهرا لأنهم سيرحلون من جديد؟ أم بسبب فقدانها من جديد لأحد الأعزاء؟ أو عند اختفاء أمها أو أبيها، كعادتهما، لأجل تنفيذ مهمات جليلة؟ هل كانا في أحد المطارات؟ على حدود بلد من البلدان؟ قال: «لن نفترق أبدا، سأظل معك إلى آخر العمر.»

بدأ طوفان من البشر يتدفق من كل مكان، يحملون شموعا ومصابيح، ويتدافعون نحو الانفجار. مصور يهرول، يرفع ميكروفونا ضخما، ويرتدي سترة واقية من الرصاص. سحبها الجمع الزاحف إلى ناصية الشارع، فأطلت عليها ألسنة اللهب. كانت عظيمة ومبهرة، امتدت والتهمت السيارات المتوقفة، وأجهزت على حياة أبرياء

غافلين. انتبهت إلى نفسها وهي تقف وسط الحشود. ليست سوى امرأة بين نسوة كثيرات، واحدة من بين المئات اللواتي يرتدين الثوب ويغطين رؤوسهن، يصرخن ويولولن على موت شقيقها، شقيقها هي.

تعالى الصراخ:

- الأيوبي! قتلوا الأيوبي!

صاح أحدهم:

- إنه مقاتل ميت.

النقّالة التي ترتفع فوق رؤوس الناس مرّت من أمامها. لكنه ليس رشيد. تمكنت من رؤية رجليه، وميزت حجم الجسد المسجى فوق النقالة. ليست القدمان له، الحذاء ليس حذاءه!

- «إنه من السلطة! من مقاتلي السلطة!» تواصل الصراخ.

- فخخوا سيارته! كان المستهدف هو الأيوبي!

- «الموت للإسلاميين!» صرخ صبي، «يحيا حزب السلطة!»

- «يا إلهي، لا قدرة لي على احتمال المزيد!» صاحت امرأة تقف قرب إيمان، ولطمت صدرها. «لم أعد أطيق المزيد! نقتل أنفسنا بأيدينا! مستحيل! بعد كل ما أصابنا؟ بعد كل ما نزل بنا؟ ما الذي دهانا؟»

- يا له من انفجار مريع! يا لشدته! لا أثر له في السيارة! لابد أنّ العبوة الناسفة كانت تحت مقعده مباشرة!

- لم يتبق سوى قطع صغيرة من سترته، انظروا، خضراء، أميزها دائما، تلك السترة الخضراء.

رشيد! من أنفها، من عينيها، كان كلّ شيء يتدفق دون انقطاع. وجهها محمر، يلسعها، كلما مسحته بكمّ الثوب فإنه سرعان ما يعود

إلى ما كان عليه. لم تعد قادرة على رؤية شيء. أخذت تولول الآن: رشيد!

أمسكت بها إحداهن، كانت تقف خلفها (كأنها أم نضال من اللجنة النسائية)، أمسكت بها وأسندت قامتها لئلا تقع.

- هل أضعت أخاك يا حبيبتي؟ ربما سار خلف الجثة مع الرجال. امض في هذا الطريق، هيا، اذهبي.

يد المرأة فوق ظهرها قوية وحنون، وجهتها نحو الطريق الذي أتت منه. كانت ذاهلة لا تدري ما تفعل، حائرة لا تعرف هوية من تبكيه. سارت مع الحشود المفجوعة بموت مقاتل مجهول.

الفصل الثاني والخمسون

إذا كانت خطة الصبي قد تضمّنت تدبير أمر المقاتل المراقب، فيمكن القول إنّ كلّ شيء سار حسب الخطة.

كان الشارع الرئيسي أشدّ عتمةً من الشارع الذي ترك الصبي فيه. ما إنْ دلف إليه حتى بدأ يسمع تدفق الدماء في أذنيه، صوتها شلالٌ مدوٍّ. كأنه في زورق انقلب فوق الشاطئ والموج يضرب جنباته بعنف. القمر ما زال مكتملا. تحسس طريقه إلى الشارع، خطوات عديدة تفصله عن باب السيارة، مسافة لا بد له من قطعها. حاول أن يصرف انتباهه عن كل ما حوله، ويهدّئ أعصابه المشدودة مثل أوتار ستنقطع؛ عن قلبه الذي سينفجر من شدة الخفقان. صدره يعلو ويهبط وتنفسه ثقيل، كأن أحدهم يمشي من خلفه: هيه، هيه، هيه، لعله عجوز بدين. هيه، لكنه يدري أنه وحده وليس هناك في المكان سواه. حمل نفسه على تناسي كل هذا وركّز تفكيره فقط على صفّ السيارات: انبعاجات وخدوش، مرايا جانبية ملتوية، ملصقات فوق النوافذ الخلفية، دمى كلاب صغيرة، حواف مزينة بفرو رخيص مرقط مثل جلد نمر. أجل، في مقدوره التقدم إلى الأمام كما يفعل

في العادة: خطوة ثم خطوة، يرفع قدمه الأولى إلى أعلى، يهوي بها إلى أسفل، ثم يأتي دور الثانية.

جفل فجأة. قفزت قطة عن الجدار الواطئ المحيط بالملعب. قفزت على نحو غريب كأنّ أحدهم جذبها بحبل من رقبتها. تفحصها دون تفكير ليتأكد إنْ كانت قطته الشقراء التي صادفها عصرا. وفي تلك اللحظة رآه، أبصر المقاتل المراقب، التقت عيونهما.

كان يتوقع أنْ يكون أحدث سنًّا من الصبي أو أصغر حجما على الأقل. لم يتخيل أبدا أنْ يكون المقاتل هو صاحب الشارب الستاليني الذي صادفه يوم القبض على أبي عمر.

- «أنت!»، صاح المقاتل وكان أقرب إليه أكثر بكثير مما جعله الصبي يعتقد. «أنت؟» ورغم أن رشيد لم يكن يتوقع ما حدث، إلا أنه على الأقل كان متفوقًا على الرجل في حجم توقعاته، وهو الأمر الذي منح رشيد ثانيتين أو خمسًا ليفكر بسرعة ويتصرف. قال بينه وبين نفسه: «لا بد أنها تعمل هكذا»، وصوّب نحو كرش الرجل المندلق في اتجاهه مثل علامة سؤال، وضغط على الزناد. كان عليه أن يفعل ذلك قبل أن يبتعد شيء ما عن رشيد ثم يندفع نحوه ثانيةً ويسدد إليه لكمة قوية جعلته يترنّح. شعر أنه يسقط إلى الأمام مرتطماً بسيارة اصطدم عظم حوضه بمرآتها الجانبية، في الوقت الذي سقط فيه المقاتل على الأرض.

في لمح البصر، خلع السترة ورماها مع البندقية داخل السيارة. فتح النافذة على عجل، فتسارع نبضه وتلاحقت أنفاسه. لا بد أنّ أحدهم سمع صوت إطلاق النار. ثمّة أصوات تأتيه من البيوت عبر الشاطئ. أغلق باب السيارة ومدّ جذعه عبر نافذتها. ما تبقّى يعتمد

على درجة الثقة بالصبي، على كونه سيضغط فعلًا على الرقم في جواله لتنفجر العبوة الناسفة. أدار مفتاح السيارة ليبدو الأمر حقيقيًا. الآن! خرج صوت الصراخ من جسده ورأسه. ركض، مبتعدًا عن السيارة، نحو زقاق صغير، إلى مكان ضيّق ومتوارٍ. الآن! علت الصرخة في رأسه من جديد قبل أن يصل إلى المنعطف. **افعلها الآن أيها الصبي! اضغط الآن!** تعالى جحيم الانفجار، كأن أبواب السماء انصفقت من خلفه. طار من مكانه، سقط إلى الأمام على وجهه، مثل جماد، فوق بلاط الرصيف المدمر، على المنشورات الرطبة المبلولة وقطع الزجاج المهشم.

الفصل الثالث والخمسون

ذلك الوغد الخسيس نال منه. هنا في القلب أصابه وأجهز عليه، لا شك لديه في ذلك. سقط المقاتل على رجل واحدة فانطبقت الأخرى من تلقاء نفسها. كأن أحدهم سحب منه طوق النجاة في عرض البحر. تلاشت أنفاسه، وفارقت الحياة جسده. كان يصارع الموت وينتفض كذبيحة. هوى إلى الأرض. كل شيء مظلم، رطب ولزج. ابنه هو كل ما كان يفكر فيه الآن، لا المقاتلون ولا الاجتماعات ولا غيرته من ذاك الأيوبي الذي كان طريقه دائما سهلًا معبّدًا. لم يفكر بأمه وأبيه، أو بالخيمة التي ولد فيها، سقفها واطئ يرغمه على الانحناء كلما عبر إليها. لم ترد في خاطره زوجة أبيه التي حملت والده على الرحيل وتركهم هناك في المخيم. لم يتذكر أي شيء من هذا سوى ابنه، صغيره الذي أراد له حياة أفضل، ولم يتوان لأجله عن القيام بأيّ عمل وضيع. لا يشعر بغير ذراع الصبي البضة تطوّق عنقه، بنظرات المحبة والثقة الدافقة من عينيه، لأجله فعل كل ما فعل. انطفأت جذوة التفكير لديه والتيار يجذبه إلى الأعماق ويؤرجح جسده، إلى الأمام ثم إلى الخلف، واهبًا إياه ما يستطيع أنْ يهبه من عزاء.

الفصل الرابع والخمسون

في ذلك الحين، كم كان رائعا أنْ يركض، أنْ يشعر بجسده يتحرك كما يشتهي ويحب، أنْ يكتشف طاقة لم يحسب أنه يمتلكها من قبل. أذهله هذا التناغم بين عقله وجسده، بينما هو يتقافز من جانب إلى جانب، فوق المجارير المفتوحة وسط الأزقة. كيف يمكنه أنْ يفعل كل هذا دون أنْ يبطئ من سرعته ولو قليلا، كيف يقدر على الوثوب إلى نهاية هذا كله: فوق الأرض المجروفة والأعمدة الساقطة وحبال الخيام في الأرض الخراب التي كانت لهم؟ كيف يدفعه قلبه إلى الأمام بكل ما في ركوب المغامرة وملاحقة الفرصة وغنيمة المستقبل من طاقة عجيبة؟ أحب ذلك كله: القمر الذي ينير وجه البحر، الموج الأسود الذي يغمز النجوم، الأفق الممتد بلا زوارق حربية؛ لم يكن وجودها مرغوبًا فيه، لأن تلك الليلة هي ليلته. وها هو يركض بخطى واسعة الآن - واحد، اثنان - ثمّ يحلق فوق هذا كله، عاليا، عاليا، وبعيدا. يطير ويطير، حتى يصل البحر.

شكر

مكتبة
t.me/t_pdf

أود إزجاء الشكر للأصدقاء والأقارب والأدباء والمؤسسات ممن لم يضنّوا علي بوقتهم لقراءة الرواية وإسداء النصح وتقديم الدعم على مرّ سنوات عديدة وهم: غسان أبو ستة، ليلى المالح، عمر القطان، ميتشيل ألبيرت، لورين باكتشاس، سامية بانو، شمين بشير، برنا بهندار، المجلس الثقافي البريطاني، غانور بروس، إميلي بيرنهام، كلم كارينز، كارولاين سيدرويل، كارلي تشيرتشل، كاثي كوستاين، ستيف كراج، آيمي كارمر، كلير، دينا، هاني، حسن صالح، ناديا، سلمى، سميرة وتيسير الدباغ، وفاء درويش، ميك ديلب، خالد العلي، عزة الحسن، «إنجليش بين»، بيرناردين أفاريستو، «فيش بليشنج»، إيمانويل جربوع، هاريس غازدار، فينيسا غيب، كارلو غيبلر، ماجي جي، زينة غندور، جو غلانفيل، فرانسيسكو غولدمان، كاتيا حدادين، آني هيكسون، ديفيد هولمز، «انترناشيونال بين»، رنده جرار، مايك جونز، فريدريك جوزيف، دينا قصراوي، كافي كتاني، راحات كرد، مهى لاذقي، دانيل ماتشوفر، إيلويز مارشال، لينا مصري، سكوت مكغاراغان، عبد الله، لولا، ليندا، ناصر، سمير وجمانة مطاوع، ناديا نقيب، تيسا اونيل، والراحل هارولد بنتر،

كرستين بولمان، عادل رحمان، كارولاين رووني، جاكوب روس، دانا سجدي، توبي ساراكي، شيرلي ستيوارت، ستيسي ستوبل، «تايلز اوف كونجستيد»، كاثرين فيالا، سو سيد ورديل، «ذا ويست كورك ليتراري فستيفَل»، ساره لي ويستون وجوش زينر.

أخص بالشكر كذلك الأصدقاء والأقرباء الذين قدموا لي ملاحظات تفصيلية حول المسودات الأولية لهذه الرواية: بيلوما بايزا، ناديا كابي أوسغود، فِلِسيتي كنلايف ليستر، كلير الدباغ، ناديا الدباغ، عزة دروزة، كرستين هابارد، غريام هارفيلد، الياس نصر الله وجيمس ريتشارد.

كما أدين بالكثير لكاثي جونز لما أبدته من حماسة ودعم كبيرين، وقد كانت وفاتها المفاجئة في شباط (فبراير) ٢٠٠٨ صدمة وخسارة كبيرة. كما أن الشكر موصول أيضا لأماندا (بنكي) «ايربن» التي تعمل في «آي سي إم» ومارغريت هالتون على ما بذلتاه لي من نصح وتشجيع.

كم أنا محظوظة أيضا بممثلتي ووكيلتي التحريرية المذهلة كارولاينا ساتن التي تعمل في دار «كيرتِس براون». إن جهدها لم يقتصر على تفهم أسلوب كتابتي وموضوعها فحسب، بل ساعدتني أيضا على تطويرهما وتجويدهما. إن ملاحظاتها التحريرية كانت واضحة وقيمة، وبدونها فإن هذا الكتاب سيكون أقل جودة مما هو عليه الآن. فدائما ما كانت ثقتها بقدراتي الكتابية عالية كما كانت أيضًا الراعية الدائمة لمصلحتي، ولهذا فإني مدينة بالشكر الجزيل لها. شكرا كارولاينا على كل شيء.

أخص بالشكر أيضا الكاتبة أهداف سويف على ما حبت به هذه

الرواية من ثناء وترويج وجهد في أن تجد طريقها إلى عالم النشر. إن دعمها للكتاب الفلسطينيين، وما تقوم به من عمل في «المهرجان الفلسطيني للأدب»، بالغ الأهمية لكل كاتب يُعنى بقضية يرغب كثيرون في أن تظل طيّ النسيان. كما أن كتاباتها هي مصدر إلهام لي، ذلك أن روايتها «في عين الشمس» كان لها أثرٌ في تغيير حياتي على نحو لا يدانيه سوى قلة قليلة من الكتب.

لا بد لي أيضا من إسداء الشكر لـ «دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر» وبالأخص لكل من: آندي سمارت، سيف سلماوي وجيهان مرعي على اختيار الرواية للنشر، كاثي روني وصفاء مريش على جهدهما خلال عملية النشر، وشكر خاص لجيهان على ملاحظاتها التحريرية.

هناك الكثيرون أيضا ممن أود شكرهم في «مؤسسة قطر للنشر» وأبدأ أولا بالقارئة وائلة قيسيه من مدينة الخليل التي قرأت الرواية وبعدما انتهت منها قالت لأكساندرا برينغل: «هذا تماما ما نشعر به تحت الاحتلال.» شكرا وائلة. هذه الكلمات مهمة وعنت لي الكثير.

كما أني مدينة بالامتنان لكلير هاي على عينها اللاقطة ومهاراتها التحريرية، لإيريكا جارنز على جهودها التحريرية ومتابعة عملية النشر، لأليكسا فون هيرشبيرغ على حماستها وسرعتها في العمل، للانث كوس، يلموت وترام آن دوان وبيبا مكارثي على متابعة الأعمال الإدارية، لسارة غرينو على التصميم الجميل للغلاف، للمصور جوناثان رينغ على ما امتاز به من صبر إزاء موضوع متقلب. ولا أنسى بالطبع ألكساندرا برينغل التي بذلت ما بذلته من عمل وكأن صدور الرواية كان حلمًا شخصيًّا لها.

شكرا أيضا لعائلة بشير في مدينة كراتشي على ضيافتهم الاستثنائية الكريمة لي خلال إقامتي معهم في شهر كانون ثاني (يناير) عندما كنت في مرحلة تحرير الرواية، وشكرا كذلك لعائلة أونيلز في البحرين على سماحهم لي باستخدام بيتهم للمهمة نفسها في الشهر الذي يليه.

كما أود أن أشكر بشكل خاص ابني ميرو وابنتي مايا على دفئهما وظرفهما وشقاوتهما، رانجاني نيرمالا ديفي جون التي لولا حدبها ورعايتها لعائلتي لكانت هذه الرواية أقل بكثير مما هي عليه الآن، زينة غندور التي أحضرت لي دفترًا وحثتني على البدء في الكتابة، وعبد الله مطاوع والد أطفالي وزوجي السابق وصديقي.

وأود أيضًا أن أشكر خلود عمرو لترجمتها الرقيقة، وشكر خاص لوالدي تيسير لمراجعته للترجمة.

انضم إلى مكتبة .. .. اضغط اللينك

t.me/t_pdf

ملاحظات الكاتبة

هذه الرواية عمل إبداعي من وحي الخيال ولا تمثل الشخصيات فيها أي فرد حي أو ميت. بيد أني مدينة للعديد من الأعمال الواقعية بأشكالها المختلفة، من كتب ووثائقيات ومواقع شخصية على الإنترنت، لما وفرته لي من مادة ساعدتني على الوصف وإثراء السرد، ليس سهلا في هذه العجالة ذكرها جميعا، ما قرأت منها أو رجعت إليه على مر سنين عديدة. لكني أود إبداء الامتنان لعدد من الكتاب القديرين ومنهم: سعيد أبو الريش، فيليس بينيز، ديفيد مَكدووال، نورمان فنكلشتاين، رشيد ووليد الخالدي، نور مصالحة، إيلان بابي، ساره روي، الراحل العظيم إدوارد سعيد، جو ساكو، آفي شلايم، توم سيغيف، روزماري هوليس ويزيد صايغ. أما حياة الفلسطينيين كما وصفت ووثقت في «ما بعد الانتفاضة» لحاييم ورفقة غوردن وطاهر شريتح وفي «أصوات محتلة» لويندي بيرلمان وفي «يوميات لاجئ» لبيرلا عيسى، أصيل منصور وآدم شابيرو، فقد قدمت لي رؤية قيمة لما يجري في الداخل، في حين أن الفيلم الوثائقي «قطاع غزة» لجيمس لونغلي ما زال يسكنني ولا يبارحني.

تمثّل سلمى الدباغ جيلا جديدا من كاتبات لا يكتفين بالنظر الى الوطن وقضيته بمنظار واحد ومن بعد واحد. إنها بتجربتها متعددة الأبعاد والزوايا تنقلنا إلى أجواء عشناها، وأخرى لم نعشها، وتفتح لنا الشاشة على مصراعيها لنرى ما تراه ونتفاءل، أو نتشاءم، وفي الحالتين نزداد فضولا ونتساءل حول أجزاء الوطن المتداعي فنكتشف معًا أن للصورة أكثر من وجه.

«غزة تحت الجلد» رواية غنية بالأبعاد والأسئلة والتفاصيل، رواية أقرب إلى غزة، وأبعد منها، ففيها فلسطين، كل فلسطين، من الداخل، ومن الخارج، ووطن صغير يتمزق من خاصرته.

الروائية الفلسطينية سحر خليفة

صوت أصيل وقوي

الروائية المصرية البريطانية أهداف سويف

عمل لافت وجذّاب يحكي عن الاقتلاع والانتماء، الخيانة والغدر والوفاء... والشجاعة التي تعيد تعريف فلسطين وشعبها

صحيفة الأوبزيرفر البريطانية

سلمى الدباغ كاتبة فلسطينية بريطانية تعيش في لندن.
ظهرت قصصها في عدد من المختارات القصصية الهامّة المنشورة بالإنجليزية. «غزة تحت الجلد» هي روايتها الأولى التي سبق نشرها عن دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر بعنوان Out of It عام ٢٠١٢.

t.me/t_pdf

www.bqfp.com.qa
ISBN 9789992194683
90100
9 789992 194683

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation